



جديد بديف
jadidpdf.com

القرآن

نسخة شخصية



أحمد خيرى العمري



XXXXXXXX

Remember me ☐

[Forgot your password?](#)

LOGIN

مكتبة جديد كتب بديف

JadidPDF.COM



القرآن: نسخة شخصية

يمكنكم تحميل المزيد من الكتب الرائعة والحصريّة
بحجم خفيف جداً على مكتبة جديد بدف

<https://jadidpdf.com>

الكتاب: القرآن نسخة شخصية

المؤلف: أحمد خيرى العمري

تنسيق داخلي: سمر محمد

الطبعة الأولى: يناير 2020

رقم الإيداع: 2020/2756

S . B . N : 4-108-992-977-978

مدير النشر: علي حمدي

المدير العام: محمد شوقي

مدير التوزيع: عمر عباس

00201150636428

لرأسلأ الالار Email: P.bookjuice@yahoo.com

الأراء الوارأة فف هأا الالكأاب أعبفر عن وأةة نأظر الكأاب
ولا أعبفر بالأأرورة عن وأةة نأظر الالار

أأمفع الأقوق مأأفوظة ©

عأفر الكأاب للنأشر والأأرفف

القرآن: نسخة شخصية

د. أحمد خيري العمري



<https://jadidpdf.com>

يمكنكم تحميل المزيد من الكتب الرائعة والحصرية

بحجم خفيف جدا على مكتبة جديد بدف

<https://jadidpdf.com>

<https://jadidpdf.com>

الفهرس

إهداء.....	١١
مقدمة.....	١٣
تعميم.....	١٧
سورة الفاتحة ١: عين على العالم.....	١٩
سورة البقرة ٢: الصراع المرير مع الأمر الواقع المر.....	٢٤
سورة البقرة ٢: الصراع المرير مع الواقع المر لا يزال مستمراً ..	٣٢
سورة آل عمران ٣: عن جبر الخواطر المكسورة.....	٣٩
سورة النساء ٤: عن المستضعفين في الأرض.....	٤٥
المائدة ٥: الطبيعة البشرية بلا تجميل ولا قوتوشوب.....	٥١
سورة الأنعام ٦: أهم علاقة في حياتك.....	٥٩
سورة الأعراف ٧: الأنا في النحن.....	٦٦
سورة الأنفال ٨: محاسبة المنتصر.....	٧٢
سورة التوبة ٩: الحرب والسلام.....	٧٦

- يونس هود يوسف ١٠ - ١١ - ١٢: من البئر إلى العرش ٨٠
- سورة النعد ١٣: التغيير قيد الإجراء ٨٧
- سورة إبراهيم ١٤: الخروج من الظلمات إلى النور ٩٢
- سورة الحجر ١٥: الصورة الكاملة ٩٦
- سورة النحل ١٦: عن قواعد متعددة وسقف واحد ١٠٠
- سورة الإسراء ١٧: مسؤوليتك الشخصية جداً ١٠٤
- سورة الكهف ١٨: أطوار الاستحالة ليست مستحيلة ١٠٩
- سورة مريم ١٩: عن المرأة الخارقة ١١٣
- سورة طه ٢٠: لن أعيش دور الضحية ١٢١
- سورة الأنبياء ٢١: هدم من أجل البناء ١٢٧
- سورة الحج ٢٢: تأشيرة حج ١٢٢
- سورة المؤمنون ٢٣: أهمية الشخص «العادي» ١٤١
- سورة النور ٢٤: «نور، أنى أراه؟» ١٤٦
- الفرقان ٢٥: أهمية ألا تكثرت كثيراً لما يقال ١٥٥
- سورة الشعراء ٢٦: لا تُلْم نفسك كثيراً ١٦٣
- سورة النمل ٢٧: أقصر الطرق أطولها أحياناً ١٧٠
- سورة القصص ٢٨: قصص تنتهي، وأخرى لا تنتهي أبداً ١٧٧
- سورة العنكبوت ٢٩: هجرة ١٨٥

سورة الروم ٣٩: أثر الفراشة.....	١٩٣
سورة لقمان ٣١: بيان وراثته.....	١٩٧
سورة السجدة ٣٢: رعدة القلب الأولى.....	٢٠٤
سورة الأحزاب ٣٣: كورس تعليم حضر الخنادق.....	٢١١
سورة سبأ ٣٤: أوهام القوة وأوهام الضعف.....	٢٢٢
سورة هاطر ٣٥: عن تحديد المواقف والفرص الثانية.....	٢٢٧
سورة يس ٣٦: يا إنسان!.....	٢٣٥
الصافات ٣٧: استعد، تثبت، انطلق.....	٢٤٤
سورة ص ٣٨: عن العزة والشقاق.....	٢٥٩
الزمر ٣٩: معركة مدوية بصمت.....	٢٦٧
سورة فاطر ٤٠: البحث عن منقذ للخروج.....	٢٧١
سورة فصلت ٤١: صافرة إنذار داخل رأسك!.....	٢٧٢
الشورى ٤٢: العسل الذي وصل!.....	٢٨٦
الزخرف ٤٣: بعض ما يلعب، يقتل.....	٢٩٣
الدخان ٤٤: دخان بنكهة الوعي.....	٢٩٩
سورة الجاثية ٤٥: اللحظات الأخيرة قبل نطق الحكم.....	٣٠٣
سورة الأحقاف ٤٦: العنوان: الرمال المتحركة.....	٣٠٨

سورة محمد ٤٧: نسخة أفضل منك	٣١٤
سورة الفتح ٤٨: مضاتيح الأبواب الموصدة	٣١٩
سورة الحجرات ٤٩: في حجرة مجاورة	٣٢٥
سورة ق ٥٠: ذاكرة المستقبل	٣٢٨
سورة الذاريات ٥١: أدوار في حياتك	٣٣١
سورة الطور ٥٢: أسئلة الامتحان مصرية	٣٣٥
سورة النجم ٥٣: في أعالي التجربة	٣٣٨
سورة القمر ٥٤: بديهيات واضحة كالشمس والقمر	٣٤٢
سورة الرحمن ٥٥: علاج نفسي يحتاجه حتى الأصحاء	٣٤٨
سورة الواقعة ٥٦: تسلق طبقي	٣٥١
سورة الحديد ٥٧: الإنسان الحديدي	٣٥٧

إهداء

إلى قارئ «مجهول»

يشعر أنني كتبت هذا الكتاب له شخصيًا.

مقدمة

هذا ليس كتاب تفسير، ولا يجب أن يكون كذلك بالنسبة لأي شخص؛ لذلك فهو لا يغني ولو قليلاً عن أي كتاب تفسير سواءً من أمهات الكتب أو من الكتب المعاصرة، ويهمني جداً أن أؤكد ذلك وأكرمه: لأن معاملته ككتاب تفسير سيكون خطأ فادحاً، كما أنه سيأخذ من الكتاب هدفه الأساسي.

هذا الكتاب مثل هوامش كتبها شخص ما وهو يقرأ القرآن ويحاول أن يتفاعل مع حياته اليومية عبره، فيكتب كيف ساعدته الآيات على فهم العالم المحيط به، وكيف يتعامل مع هذا العالم، ومن البيديهي جداً أن هذا الأمر شخصي جداً، ويمكن لشخص آخر يمر بظروف مغايرة أن يكتب أشياء أخرى مختلفة تماماً، كما يمكن للشخص نفسه في ظروف أخرى أن يتأثر أكثر بمواضع أخرى، وهكذا.

رغم ذلك، فإن تجربة تفاعل شخصي مع القرآن يمكن أن تكون مفيدة لكثيرين، فبعض التجارب قد تكون مشتركة بين كثيرين، كما أن الاطلاع على تجربة من هذا النوع قد يساعد على أن يكون للقارئ تجربته الشخصية الخاصة به في التفاعل مع القرآن، مع الأخذ بنظر الاعتبار ما سبق من أن هذا الكتاب وأي تجربة معادلة ليست «تفسيراً»، وبالتالي لا تُغني عن كتب التفسير.



بدأت فكرة الكتاب علي شكل منشورات علي الفيسبوك في رمضان. كانت الفكرة هي أن تكون «ختمة رمضان» مختلفة، ويتنوع من التدبير الذي يجعل من تجربة الختمة الرمضانية التقليدية أكثر تفاعلاً وتأثيراً في شخص الذي يقرأ القرآن.

قبلها بسنوات، كانت أصواتنا تتعالى منتقدة حرص البعض علي «عدد الختمات» في رمضان دون محاولة التدبير أو التفكير.

للأسف، انتهى الأمر بأن خسرنّا «قراءة الختمة»، ولم نربح التدبير. هناك جيل جديد لم يمد يحرص علي «ختمة رمضان»، أو أي ختمة في أي وقت.

هذا الكتاب محاولة لربح الاثنين معاً.



المنشورات في «صيفتها الأولى» كتبت تحت وسم «القرآن ٣٦٠ درجة»، وهو العنوان الذي كنت أقصد عبره أن تكون الرؤية المقدمة هي رؤية شاملة للسورة عبر تجوال في داخلها. كما لو كنت أنظر لها عبر زاوية نظر ٣٦٠ درجة.

لكن مع الوقت، بدأ لي أن ما أفضله أقرب إلي أن يكون نسخة شخصية منه إلي شمولية الرؤية للسور القرآنية؛ لذا فقد فضلت أن يكون العنوان مختلفاً: ليعبر أكثر عن المحتوى.

حدث تغيير على المنشورات بطبيعة الأمر. وما نُشرَ على الفيسبوك يومها ليس ما يُنشرُ في هذا الكتاب بالظبط.



ملاحظتان علي أن أسجلهما هنا:

الأولى: الكتاب لا يغطي كل السور القرآنية، بل يغطي الأجزاء الـ ٢٧ الأولى. أي بداية من سورة الفاتحة إلى نهاية سورة الحديد.

السبب في ذلك أن أغلب السور في الأجزاء الثلاثة الأخيرة (وحى بعض السور في الجزء السابع والعشرين) ذات طبيعة مكثفة في المعاني؛ مما يجعل التفاعل معها (بالنسبة لي على الأقل) أطول من سواها، وأخشى أن هذا سيجعل حجم الكتاب أكبر على نحو يفوق تحقيقه لهدفه. فقرأت كتاب «كبير الحجم» إلى جانب القرآن سيكون أمرًا مستبعدًا بالنسبة لكثير من الشباب، بينما سيكون الأمر مقبولًا أكثر إذا بدأ حجم الكتاب متوسطًا.

أقول هذا وأمل أن تكون هناك فرصة للعودة إلى الأجزاء الثلاثة الأخيرة.

الثانية: حجم السورة ومساحتها وعدد آياتها لا يؤثر بالضرورة على حجم ومساحة التفاعل الشخصي معها؛ لذا ربما يكون التفاعل المكتوب مع سورة متوسطة الحجم أو قصيرة نسبيًا أكبر حجمًا أو مساويًا لتفاعل مع سورة من طوائف المنور، وقد يعود هذا بشكل أساسي إلى طبيعة التفاعل الشخصي التي تتفاوت بين موضوع وآخر، وبالتالي بين سورة وأخرى.

شخصيًا أعرف أن لا يوجد «عدد كافٍ من السطور» للتفاعل مع أي سورة من سور القرآن، من أقصر سورة فيه إلى سورة البقرة؛ لذا لا يجب وضع أي اعتبار للعدد أو الحجم هنا.

أقدم عملي هذا وأنا أعرف أن لا شيء يمكن أن يفي القرآن حقه من التفاعل، لكن هذا ما استطعته، فما كان فيه حسن فمن توفيق الله وفضله، أما التفصيل فهو من طبيعتي البشرية.

أسأله تعالى أن يصحح نيتي في عملي هذا، وأن يقر لي ما فيه من زلل.

تعميم

كل سور القرآن تحتوي على ثلاثة عناصر أساسية في نسيجها؛ مثل الحجر والإسمنت والحديد في البناء، تتكامل مع بعضها لتشكل «البناء» أو «النسيج» الذي سيضم أشياء أخرى لاحقاً.

هذه العناصر الثلاثة لا تكاد تخلو سورة في القرآن منها مجتمعة، باستثناء القليل من قصار السور التي قد تقتصر على عنصر واحد أو اثنين من هذه العناصر.

هذه العناصر الثلاثة هي:

أولاً: صفات الله - عز وجل - وقدرته وخلقته لنا ولكل ما هو موجود.

ثانياً، رسالته إلى البشر عبر كتبه وأنبيائه ورسله.

ثالثاً: البعث بعد الموت، الحساب، الجزاء: الثواب والعقاب.

هذه العناصر مبنوثة في كل سور القرآن على نحو يجعلها جزءاً من نسيج القرآن نفسه، مثل جدران البيت أو بابه أو سقفه، لا يمكن تخيل بيت دون وجود هذه المكونات، كذلك هذه العناصر بالنسبة للقرآن، هناك بالتأكيد مواضع وعبر وأمثال أخلاقية في سور القرآن غير هذه العناصر، كذلك لا تتكون البيوت من سقف وجدران وأبواب فحسب، بل تحتاج بعد البناء إلى مكملات أخرى ليكون البيت قابلاً للحياة فيه.

هذه العناصر الثلاثة هي من بديهيات أي مسلم مؤمن، ولعل كونها بديهيات مرتبط أساسًا بكونها جزءًا من التسييج القرآني على هذا النحو. بالنسبة لمسلم مؤمن بهذه البديهيات فإن تفاعله الشخصي مع القرآن سيكون «مقاداة» بهذه البديهيات، ولكن تفاعله الأساسي سيكون غالبًا مع غير هذه العناصر، أي مع خصائص ميزت كل سورة عن سواها.

بعبارة أخرى، هذه العناصر تكون مثل العوامل التي تؤثر على حدوث تفاعل ما أو سرعته دون أن تكون أساسًا عنصرًا من عناصر التفاعل (مثل الحرارة والضغط).

لذلك فإن التفاعل الشخصي مع هذه العناصر الثلاثة لن يكون شديد الوضوح في هذا الكتاب، رغم أنها تقود التفاعل وتؤثر به وتحيط به من كل الجهات.

منّ لديه مشكلة في واحدة من هذه العناصر الثلاثة لن يستفيد كثيرًا من هذا الكتاب، وعليه أن يبحث عن حل لمشكلته أولًا في كتاب آخر.

سورة الفاتحة ١

عين على العالم

بها يُفْتَحُ القرآن.

ويمكن لها أن تفتح عينيك، تفتح قلبك، تفتح عقلك.

تفتحك نحو رؤية مختلفة للعالم.

الفاتحة مثل مقدمة أو استهلال للقرآن، كل ما تقرأه في القرآن سيمر أولاً بهذه المقدمة، كل معنى يأتي في القرآن سيكون محكومًا منضبطًا بما تقوله المقدمة.

ليس هذا فقط، هذه المقدمة ستكون ركنًا من أركان صلاتك، لا تصح صلاة من دونها. وهذا يعني أن كل مسلم «ملتزم بفرض الصلاة» يقول: الفاتحة «١٧» مرة في اليوم كحد أدنى.

ماذا نقول في الفاتحة؟ لقد تعودنا الأمر حتى صرنا نقولها دون تفكير فيما تعنيه.

لكن لو فتحنا أعيننا عليها لرأينا الكثير.

شمة إصرار على رؤية الإيجابية.

الفاتحة تبدأ بالحمد، الحمد هو فاتحة الفاتحة ومبتدؤها، والحمد هو الثناء لله مستحق الحمد، وعندما تقول الثناء والحمد له ١٧ مرة في اليوم - كحد أدنى - فهذا يعني أنك متمسك بالإيجابية. بالأمل، رغم أن كل شيء قد يكون قائماً في منتهى السوء. رغم أنك قد لا ترى أي ضوء في الظلام المحيط بك، رغم أن كل شيء حولك قد لا يندثر إلا بالسوء والمزيد منه، وأنت مدرك لذلك بكامل وعيك دون تخدير أو تزييف، لكنك تقول: «الحمد لله»، إيجابية رغم الوعي بالسلبيات.

تجد ما تثني عليه، تجد ما يستحق الحمد عند مستحق الحمد، وتؤكد على ذلك ١٧ مرة في اليوم في عمود دينك، كما لو أن هذا الحمد هو عمودك اليومي الذي يمنحك القوة والدعم في رحلة أهوالك كل يوم.

كل يوم، مهما كان وضعك صعباً، فإنك تقف لتشهر «الحمد» بوجه هذا العالم وظروفه وأوضاعه،

هذا الحمد مرتبط في الفاتحة بثلاث صفات لله عز وجل، من بين كل صفاته وقدراته - عز وجل - الفاتحة تحدد ثلاث صفات فقط: رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين.

رب العالمين يعني أنه رب الجميع حرفياً، رب الفقراء والأغنياء وأيضاً أولئك الذين في الوسط، رب الأصحاء والمرضى، رب المتعلمين والجهلة، رب النساء والرجال والأطفال والشيوخ، رب الفاجحين والفاشلين، رب المشهورين والمغمورين، رب البشر من كل الأعراق والألوان، رب المؤمنين

به ورب الذي لا يؤمنون به على حد سواء، أحياناً نتحاز إلى الوهم أنه ربنا نحن فقط، لكن الفاتحة تؤكد لنا أنه ﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ ١٧ مرة كل يوم.

﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ (الفاتحة: ٣)

صيفتان لوصف رحمته عز وجل، سيكون هناك الكثير للتفريق بين الكلمتين، لكن هذا الكثير سيقول لنا: إن رحمته تتخذ أشكالاً متعددة أكثر بكثير من محاولتنا لحصر رحمته التي كتبها على نفسه، قد تعجز أحياناً عن فهم هذه الرحمة، لكن عليك أن تمنع نفسك وقتاً، وستفهم ذلك لاحقاً. ستفهم أنها كانت رحمة بطريقة ما، رحمة على المدى البعيد وليس على قصر نظرنا الذي يجعل للرحمة شكلاً واحداً، علينا أن ننظر إلى الصورة الكبيرة أحياناً لفهم الرحمة، لا يكفي أن نشاهد أجزاءً من الصورة لنحكم عليها، علينا أن نحاول قدر الإمكان مشاهدة الجزء الأكبر منها.

﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ (الفاتحة: ٤)

يعني أن المنتهى له، وهذا المنتهى يعني أن كل شيء له، وهو يعني أيضاً أنه ليس رحماً رحيماً محسوب، بل هو عادل أيضاً. وعدله يتحقق في يوم الدين.

هو إذن رب الجميع، رحمن رحيم، وعادل أيضاً.



﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (الفاتحة: ٥)

كل ما نفعله في حياتنا يمكن أن يندرج في هذين الأمرين، عبادتنا له، واستعانتنا به.

العبادة والاستعانة قطبان كقطبي المغناطيس. وبينهما مجال فاعليتنا في الدنيا ونجاتنا في الآخرة، كل قطب يحتاج الآخر. دون الاستعانة (والتي تعني أن لديك ما تفعله أصلاً في حياتك وتطلب العون منه فيه)، دون وجود هذه الاستعانة، ستكون عبادتك منزوعة الهدف والفاعلية.

ودون وجود العبادة، لن تكون استعانتك حقيقية، الاثنان معاً، قطبان يتحدان فيولدان الحركة.

أول «استعانة نطلبها منه تأتي سريعاً في «الفاتحة»، هي الطلب منه أن «يهدينا الصراط المستقيم»، وهذا الطلب يعني ضمناً أنك ترغب في معرفة هذا الصراط، في كل خطوة في حياتك، في كل مغترب طرق هناك خيار، وأنت تطلب منه - عز وجل - أن يرشدك للطريق الصواب، وهذا يعني أيضاً أن الطريق الصواب، الصراط المستقيم، ليس محتكراً عندك كما يتوهم البعض، بل أنت تطلبه ١٧ مرة في اليوم كحد أدنى.

وأنت أيضاً تعرف أن هناك مَنْ أخطأ الطريق قبلك، لكن الخطأ يوماً يكون من طريقين: الأول هناك مَنْ أخطأ عامداً متعمداً، مع سبق الإصرار والترصد؛ المغضوب عليهم، وهناك طريق آخر للخطأ غير العامد، حصل ولكنه لم يحدث بنية مسبقة الضالين.

وأنت تؤمن بإمكانية وجود طريق ثالث غير هذين الطريقين، طريق الذين أنعمت عليهم بنعمة المراجعة والتفكير في كل خطوة على الطريق. ١٧ مرة في اليوم.

الفاتحة، فتح كل يوم، تساعدك في تحقيق فتحك الأكبر، تمنح قلبك وعقلك وذاتك وعينك لتساهم في عالم أفضل، ولو كان هذا العالم هو عالمك المحيط بك فقط.

أو على الأقل لتكون أكثر وعيًا به.

الفاتحة، فتحك اليومي، ١٧ مرة كحد أدنى^(١).

(١) للمزيد : الجزء الثالث من سلسلة كيمياء الصلاة للمؤلف، بعنوان: عالم جديد ممكن.

سورة البقرة ٢، الجزء الأول

الصراع المرير مع الأمر الواقع المر

سورة البقرة هي سورة «الصراع المرير مع الأمر الواقع المر»، سورة مواجهة حقائق الأشياء مهما كانت مريرة ومؤلمة وجارحة. موقعها في بداية القرآن الكريم يجعلك مباشرة في مواجهة مع حقائق الأشياء هذه كلما فتحت القرآن لتقرأ فيه. لا شيء يزيّف صعوبة الواقع ويُجمّله، ولا شيء يقول لك: إن الأمر استثنائي وإنك تعيش في مرحلة سيئة يتفرد ويجعلك تحن لزمان آخر، لا، هذه هي الحياة بكل روعتها وبشاعتها، وهؤلاء هم البشر بكل سموهم وسقوطهم، وهذا أنت أيضاً، بكل سموك الذي تركز عليه وكل سقوطك الذي تتجاهله، هذه هي الحياة وهذا هو الأمر الواقع، لديك خياران: الأول أن تتعامل مع هذا الواقع، والثاني أن تتجاهله، وأنت مَنْ يقرر.

سورة البقرة مثل نشرة أنباء مليئة بأخبار الكوارث الطبيعية وغير الطبيعية؛ ظلم واستبداد واغتصاب وقتل وسفك للدماء، نشرة الأنباء هذه كانت على مدار تاريخ البشرية كله، أغلب فترات التاريخ كان فيها من هذا الكثير، ليس الأمر خاصاً بعصرنا ولا عصر نزول السورة، دوماً هناك فرعون ما بأسماء مختلفة وأشكال مختلفة، ودوماً هناك «بنو إسرائيل» أيضاً بأسماء مختلفة، ودوماً هناك محاولات إصلاح من قبل البعض،

ودوماً هناك محاولات لحاربة هذا الإصلاح، ودوماً هناك من يدّعي أنه يُصلِحُ بينما هو يفسد في الحقيقة.

ما قد يشير استغرابك في نشرة الأنباء هذه أنها تبدأ بخبر عن نفوس الناس، النفوس التي آمنت والنفوس الأخرى، نفوس الختم على القلب والسمع والبصر، الخير الأول سيُفَرِّدُ الكثير عن هذا، عن المفسدين الذين يدعون الإصلاح، عن الذين يستهزئون ويخادعون، عن أولئك الذين يتبعون كل ضوء لامع يمر ولو للحظات دون بوصلية أو خطّة.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يُغْنِعُهُمْ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٢﴾ بِمَا كَانُوا يَصْغُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١٤﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾﴾ (البقرة: ٨: ١٤)

لماذا خبر الأنفس هذا مقدّم على كل الأخبار الأخرى: فرعون وظلمه وما يفعل بالناموس، في نشرات الأخبار العادية التسلسل معكوس، البداية تكون بأخبار الكوارث، ثم يأتي الحديث عن خبر الأنفس في نهاية النشرة.

لكن ليس مع سورة البقرة، لماذا؟

ببساطة لأن الخبر الأول أهم، الخبر الأول هو الذي يحدد كيف ستتعامل وتتفاعل مع كل ما يلي من أخبار، الخبر الأول هو الذي يقول: إن كنت ستكون فرعون بطريقة ما، فرعون في بيتك مع مَنْ حولك أو في عملك، أو عوناً له، أو أنك ستكون في الجهة المقابلة.

سترى صورًا لأشخاص كثيرين في السورة، أشخاص عرفتهم وخبرت طباعهم، سترى في سورة البقرة أشخاصًا يبيعون كلام الله بثمن بخس، تراهم كثيرًا للأسف في الواقع.

﴿وَأٰمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِنِّي فَاتَّخِذُكُمْ (البقرة: ٤١).

﴿قَوْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيُشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا قَوْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبْتُ أَيْدِيهِمْ وَرَبُّهُ لَهُمْ مِمَّا يَكْتُمُونَ﴾ (البقرة: ٧٩).

سترى ظلمًا واستبدادًا، وسترى المظلومين يصبحون ظالمين أيضًا. أحيانًا بنفس دور الظالم الذي ظلمهم، وأحيانًا بأنواع أخرى من الظلم، فالظلم أنواع.

﴿وَإِذْ أَخْبَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بَيْنَكُمْ الْبَحْرَ فَأَخْبَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿١١﴾ وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ أَخَذْنَا الْعَهْدَ مِنَ يَدَيْهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ (البقرة: ٤٩-٥١).

سترى الشراهة والطمع وكفر النعمة.

﴿وَإِذْ قُلْنَا يَا مُوسَىٰ لَنْ نَصْرِكَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّنَا يُخْرِجَ لَنَا مِمَّا ثَنِيَّتِ الْأَرْضِ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّانِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِيهَا وَبَصِلِهَا﴾.

وسترى القلوب القاسية أشد قسوة من الحجارة، رأيتها في الواقع كثيرًا، أو على الأقل سمعت عنها، ثم وصفتها لك سورة البقرة.

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنْ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَشْقَىٰ فَيَخْرُجُ مِنْهُ النَّارُ ۚ وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾. (البقرة: ٧٤)

ويستري من يقول لن يدخل الجنة سوانا، احتكرها لمن يشبهه ويوافقته.
﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ۚ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة: ١١١)

وتستغرب من تشابه المنطوق مع من تراهم حولك ويناديون بنفس الأفكار وإن كانت مع أسماء أخرى. هل هو التاريخ يكرر نفسه؟ أم هي الطبيعة البشرية تقع في نفس الأخطاء مرة بعد أخرى؟

﴿وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودَ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنْ هَدَىٰ اللَّهُ فَكَيْفَ يُهْدِيَ اللَّهُ لِقَوْمٍ أَكْثَرُ مِنْهُمْ غَوًى ۚ وَمِنَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا آبَاءَهُمْ بَعْذَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ۚ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ۚ لَوْلَا نُصِّرُكَ﴾ (البقرة: ١٢٠)

تأخذنا السورة أيضًا إلى خبر آخر من الأنفس: كل فئة لن ترضى عنك إلا إذا أصبحت تابعًا لهم تمامًا. تندمج بهم دون حدود في الهوية تميزك وتحمي تميزك، لكن هل رضاهم مهم أساسًا؟ لا تريد رضاهم. تريد رضا ربهم وربك ورب الجميع، وكل ما تطمح منهم هو أن يتقبلوك فحسب، لا أن يرضوا عنك.



تذكرك سورة البقرة أيضًا ألا تفرح كثيرًا بقائمة عيوب بني إسرائيل أو سواهم. يمكن أن ما رأيته فيهم ينطبق عليك دون أن تتنبه. ربما أنت

من تخطر في ذهن أحدهم عندما يقرأ سورة البقرة، انتبه لذلك، انظر لميوتك قبل عيوب الآخرين، عيوب الآخرين هم أولى بإصلاحها، أما عيوبك فهي في متناول يدك، أم أنها أصعب من أن تكون كذلك؟

مع كل ذكر لبني إسرائيل، السورة لا تتحدث لك عنهم لمجرد الحديث التاريخي عنهم، بل لأنهم النموذج الذي يمكن أن نفرق جميعاً إلى تكرار أخطائهم. ولو دققنا قليلاً فينا؛ لوجدنا أن ذلك حدث ويحدث فعلاً، من العجل الذي أُشرب في قلوب البعض - كما أُشربت أشياء أخرى - إلى رؤية الله جهره، كل ذلك بمعان وأسماء مختلفة، حتى التبه الذي دخله بنو إسرائيل، يبدو أننا قد دخلنا في تبه معادل، أو أن بعضنا على الأقل قد فعل.



﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٣٠).

تأخذك السورة إلى أصل الحكاية وباديتها، سترى آدم وهو يتسلم منصب الاستخلاف والملائكة تتسائل عن أهليته للمنصب، وتلمح إلى إمكانية أن يسفك الدم، وستتذكر أن الحياة الإنسانية في أحيان كثيرة قدمت معطيات قد تبدو أنها لصالح الملائكة في تساؤلهم هذا، يكاد «الواقع المعاصر» يكون مصداقاً لما قالته الملائكة، أو على الأقل هذا ما يبدو لنا الآن.

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ قَنُوسِي وَلَمْ خِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ (البقرة: ١١٥).

﴿وَوَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ۝ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ۝ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنْ بِيَ هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْغَىٰ ۝﴾ (البقرة: ١٢١: ١٢٢).

سُتْرِى آدَمُ يَزَلُّ، وَمِنْ ثَمَّ يَتَوَبُّ، وَيَهْبِطُ إِلَى الْأَمْرِ الْوَاقِعِ، وَسُتْرِى أَبْنَاءَهُ بِمَعْصِيَتِهِمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ حَتَّى السَّاعَةِ. وَسُتْرِى نَفْسُكَ فِي زَلَّةِ أُنْيُكَ آدَمَ، أَنْتَ أَيْضًا زَلَلْتَ وَأَخْطَأْتَ وَهَبِطْتَ مَعَهَا يَجِبُ أَنْ تَكُونَ عَلَيْهِ إِلَى وَاقِعِكَ الَّذِي تَعْلَمُهُ جَيِّدًا، فَهَلْ تَبَيَّنَ؟

قِصَّة سَيِّدِنَا آدَمَ هِيَ قِصَّتُنَا جَمِيعًا، نَحْمِلُهَا مَعَنَا أَيْمًا كُنَّا، إِنَّهَا حِكَايَةُ كُلِّ يَوْمٍ الَّتِي تَتَكَرَّرُ بِأَشْكَالٍ مُخْتَلِفَةٍ، الْمَهْمُ فِي الْأَمْرِ هُوَ كَيْفَ تَنْتَهِي هَذِهِ الْحِكَايَةُ.



﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً يَقُولُوا أَتَنْتَهِدُنَا هَرُؤًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (البقرة: ٦٧).

سُتَلْفَت نَظْرُكَ «الْبَقَرَةُ» هُنَا، مَا الَّذِي جَاءَ بِهَا إِلَيَّ هُنَا؟ وَلِمَاذَا هِيَ مَهْمَةٌ لِهَذِهِ الدَّرَجَةِ بَعِيثُ إِنَّ السُّورَةَ أَخَذَتْ اسْمَهَا؟ سَتَتَأَمَّلُ فِي الْحِكَايَةِ. اللَّهُ بِأَمْرِ يَذْبَحُ بَقَرَةً، أَمْرٌ بَسِيطٌ وَاضِحٌ، وَلَكِنْ تَنْهَالُ الْأَسْئَلَةَ: لَوْنَهَا وَزَنْهَا عَمَرُهَا، إلخ. أَسْئَلَةٌ لَا عِلَاقَةَ لَهَا بِالْمَقْصِدِ مِنَ الذَّبْحِ. وَلَكِنَّهَا تَعَكْسُ التَّنَطُّعَ وَالتَّكَلُّفَ فِي تَقْيِيدِ الْأَوَامِرِ الشَّرْعِيَّةِ.

أَلَا يَذْكُرُنَا هَذَا بَشِيءٌ؟ هَلْ يُمْكِنُ أَلَّا يَذْكُرُنَا هَذَا بَشِيءٌ؟

للأسف، البقرة اليوم موجودة مع كل أمر شرعي، هناك عند كل أمر شرعي من يتعامل معه كما تعامل بنو إسرائيل مع البقرة ويسطر فيه الكتب ويبنّي عليه الفتاوى والخلافات والاختلافات، اسم السورة يذكرنا بالتركيز على مقاصد العبادات، يحذرنّا من مغبة التكلف والتنطع بها، ونحن سقطنا في نفس الفخ بالضبط، كما لو أن السورة توصينا بذلك!

وستذكرك «البقرة» هنا بمشكلتنا في التعامل مع «التضحية» عمومًا. البعض يركز على «التضحية» - خصوصًا على تضحيته هو - أكثر من تركيزه على نتائج هذه التضحية.

البعض يتعامل مع «تضحيته» كما لو كانت مُنَجَّرًا عليه أن يذكره في سيرته الشخصية حتى لو لم يحقق شيئًا من هذه التضحية. أصبحت التضحية هدفًا، بدلًا من أن تكون وسيلة إلى الهدف. وسورة البقرة تحذرنّا من هذه التجارة: لأن نتائجها سيئة.

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ٥ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (البقرة ١٢٧: ١٢٨)

وكما أخذنا السورة إلى أيّنا آدم وزلته، تأخذنا أيضًا إلى أيّنا إبراهيم وهو يبنّي البيت، كما لو أنها تقول: إن إصلاح الخطأ والصراع مع الأمر الواقع يكون بالبناء على قواعد صحيحة وثابتة.

وسمى أن مشهد رفع البناء يُعرَض بصيغة الفعل المضارع (... يرفع)،
 كما لو أنه يفتح الباب لتشاركت إبراهيم وابنه في رفع البنيان.
 وسيتدخل ارتفاع القواعد مع دعاء إبراهيم لذريته، العائلة هي ما
 يجب أن يُحمى بالبنيان، هذا هو جوهر الارتفاع الحقيقي.

سورة البقرة ٢ - الجزء الثاني

الصراع المرير مع الواقع المر لا يزال مستقرًا

يستمر الصراع المرير مع الأمر الواقع المر، ولكن تواصل سورة البقرة منحنا إشارات تساعدنا في هذا الصراع. تقول لنا: إن هذا جزء من طبيعة الحياة نفسها، وإن صعوبة هذا الصراع جزء من الامتحان الذي علينا اجتيازُه في الحياة الدنيا.

﴿قَدْ تَرَى ثَقَلَبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلْتُوَلِّيَنَّهُ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلَّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ (البقرة: ١٤٤)

تأخذك السورة من حيرتك وإرهاقك في صراعك إلى وجهه الشريف - عليه الصلاة والسلام - وهو يتقلب في السماء بحثًا عن «قِبْلَةٍ» يتوجه لها، كما لو أنها تخفف من عناء صراعك قليلًا، يذكرك الأمر بشكل ما بكل الحيرة التي مررت أو تمر بها، بل يذكرك بحيرة الجيل كله وهو يمر بمنعطيات تاريخية دون أن يجد «قِبْلَةً» يرضاهها.

كم من أناس ضاعوا وأضاعوا لأنهم لم يجدوا قِبْلَةً، هدفًا، اتجاهًا يمكن لبوصلتهم أن تساعدهم في الوصول إليه، وذاكرنا الآيات بأننا في كل مفترق نختار فيه؛ علينا أن نتجه إلى ذات القبلة، إلى ذلك البيت الإبراهيمي الذي رأينا رفع قواعده قبل قليل في نفس السورة، والذي كانت الصيغة المضارعة تدعونا للمشاركة في البناء.

تذكرنا هذه الآيات بضرورة أن نُمَيِّدَ ضبطه بوصلتنا بين الحين والآخر لتعود إلى «إعدادات المصنح» الأولية والأساسية: لنزيل ما تراكُم عليها من صداً وغيار.



﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة: ١٨٣)

﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ﴾ (البقرة: ١٩٧).

﴿إِنَّ الصَّلَاةَ وَالزُّكُوفَ مِنَ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَن حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ١٥٨).

﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ (البقرة: ٢٣٨).

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَن اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (البقرة: ١٧٣).

﴿تَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالنَّبِيرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا تَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْغَفْوُ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ (البقرة: ٢١٩).

سنرى في نفس السورة الأمر بالصيام وتعليماته. وأيضاً سنرى شيئاً من شعائر الحج. ومن إقامه الصلاة. ومن أوامر نهي واضحة محددة، فيذكرنا كل ذلك بيقرة بني إسرائيل وما فعلوه معها من تطوع وتكلف

في الأسئلة، وتذكّر: البعض منا فعل الشيء ذاته مع كل هذه الشعائر؛ في الصلاة، في الصيام، في الحج، في كل ركن من أركان الإسلام، بل في كل أمر شرعي، هناك من يقف نفس موقف بني إسرائيل من البقرة، والسورة تذكرنا: إياك أن تغرق في التفاصيل بحيث تضيي الهدف والمقصد من الأمر الشرعي.

وكثيراً ما يحدث مع الأسف.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرُّ بِالْحَرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُتِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبَعْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءُ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢﴾﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلَّذِينَ وَاللَّذِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿٣﴾ فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤﴾﴾ (البقرة: ١٧٨: ١٨١)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُتِلْتُمْ بَدِئْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاصْبِرُوا وَلَكُمْ كُتِبَ بِالْعَدْلِ﴾ (البقرة: ١٨٢)

هذا الصراع المرير مع الأمر الواقع المر سيطلب وجود قوانين تنظم الأمر الواقع وتخفف من مرارته قدر الإمكان، الحياة ليست نزهة في بستان، ومواجهتها بالشعارات أمر لطيف في البداية ولكن مآلات النهاية تزيد المرارة، سيكون هناك قصاص، وسيكون هناك وصية تُترك لحفظ الحقوق، سيكون هناك من يظلم في الوصية، وسيكون هناك من عليه أن

يتدخل لمنع الظلم، وسيكون هناك ديون بين الناس. وكاتب بالعدل ينظم ذلك، فالدينه الفاضلة مجرد وهم لا وجود له، والطبيعة البشرية تتطلب توثيقاً كهذا.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٢١٦)

سيكون هناك قتال أيضاً، رغم أنه ﴿كُرْهُ لَكُمْ﴾، لكنها الحياة بواقعيتها. ليست نزهة، وتتطلب المواجهات مهما كرهنا ذلك، وستذكرك السورة بأن الأصل في الأمر هو أنك تكره القتال، وأن الأمر ليس كما يروج البعض كما لو أننا خلقنا لنقاتل، لكنه الاضطرار ومواجهة الأمر الواقع المر هو الذي يجيز القتال وليس أي شيء آخر.

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَّغُنَّ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرَّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تَبْسُكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ (البقرة: ٢٣١)

سيكون هناك زواج وخلافات في الزواج تقود إلى الطلاق، أمر مؤسف بالتأكيد، ولكنه يجب أن يُنظَّم ويُقَنَّ، وضع ضوابط لهذا الأمر سيقبل حتماً من خسائر الطلاق، ومواجهة الواقع عبر تشريعات تقلل الخسائر أفضل بكثير من منع الطلاق بشكل قاطع.



﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ (البقرة: ٢٥٥)

في خضم كل هذا الصراع المثير تأتي آية الكرسي كما لو أنها جاءت لتريحك من الصراع قليلاً، تربت على كتفك وتقول لك أن تستريح هنا من كل هذا الذي مررت به، تشير لك إلى ملكوت الله وقدرته وعلمه الذي يفوق كل قدراتها على التخيل، ستشعرك الآية بأنه عز وجل يعرف كل هذا الذي تمر به، ويعرف ما سيحدث لاحقاً. مجرد معرفته بذلك ستمنحك بعضاً من الطمأنينة والسكينة، لست وحدك تماماً في هذا الصراع، هو الذي لا يفعل عنك لحظة واحدة، وسيدرك ذلك بآية سابقة، ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ (البقرة: ١٨٦)

﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي﴾ دوماً ننسى هذا الجزء من الآية، نركز على ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ﴾ وننسى ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا﴾.

الشيء ذاته مع آية الكرسي.

سنرتاح بعلمه الذي لا يغيب عنه شيء، لكن هذا لا يحدث بحفظ «آية الكرسي» منفصلة عما قبلها وبعدها من وصايا وأوامر، بل عندما نأخذ كل شيء حزمة واحدة.

بعد طمأنينة آية الكرسي ستأخذك الصورة فوراً إلى ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْظُمُ الْبَغْاُثَ وَيُؤْمِنُ بِإِلَهِهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَیِّعُ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٥٦)، كما لو أنك تحتاج أن تستوعب هذه الآية وما تقوله بعد أن تكون قد استرحت وأخذت أنفاسك قليلاً عند آية الكرسي.

ستذكر كم من الإكراه مُورِضٌ باسم هذا الدين الذي قال ألا إكراه في الدين، كل أمر شرعي تعرّض للإكراه بدرجة أو بأخرى، وستلاحظ أن الرشد هو ذاته في اللا إكراه، وفي الآية التي تحدثت عن إجابة دعوة الداع ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ صدقة! حاشا لله.

لكي تفهم اللا إكراه حقًا، وتمارسه حقًا، وتمنع الإكراه باسم دين اللا إكراه، عليك أن تكون راشدًا أولاً.



﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُنْزِلُ السَّمَاءَ قَالَ أَوْ لَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَكِنَّ لِي بِكَ إِيمَانٌ قَلِيلٌ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٦٠).

ستأخذك السورة أيضًا إلى أبيك إبراهيم وهو يسأل ربه عن إحياء الموتى لكي يطمئن قلبه، وستذكر كم قلوبًا كنمت حاجتها إلى الطمأنينة وهممت أسئلتها كي لا توصم بالكفر والابتداع والجحود، ستتمنى لو أنك تستطيع أن تحتضن أباك إبراهيم، وتهمس في أذنه بمخاوفك وعقلك، لكن بكفيك منه أن قال هذه الكلمات وأنه هنا في السورة، أنت لك الحق أيضًا أن تبحث عن طمأنينة قلبك وعقلك، وليس لأحد أن يمنعك من أسئلتك وتساؤلاتك في الطريق إلى الطمأنينة.



﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (البقرة: ٢٨٦)

وفي آخر كل هذه الملحمة من الصراع مع الأمر الواقع، ستأتي كلمات الخاتمة في السورة لترتد عليك، هل تعبت؟ هل أرهاقت هذا الأمر الواقع؟ لا بأس، هذا طبيعي، لا يكلف الله نفساً إلا وسعها، يمكنك أن تطلب ألا يؤاخذك الله إن نسيت أو أخطأت، يمكنك أن تقول: إن بعض الأمور لا طاقة لك بها، وتطلب منه عز وجل ألا يحمّلك فوق طاقتك، افعل ما في وسعك، ولكن كن على بصيرة بهذا الواقع المحيط بك، حاول أن توسع مما في وسعك بالتدريج، بحيث يتناسب مع ما كُلفَ به.

سورة آل عمران ٣

عن جبر الخواطر المكسورة

سورة آل عمران هي سورة «جبر الخواطر» بامتياز.

لكن جبر الخواطر هذا لا يكون بكلمات ترضية ومواساة كما تعودنا من جبر الخواطر أن يكون، بل تفعل السورة ذلك عبر تزويد خاطرك المكسور بجبهة وهي يخرجك من لحظة الانكسار الراهنة إلى «الصورة الكبيرة» التي قد تقيب عن أذهاننا أحياناً، خاصة في لحظة ألم الانكسار والمعاناة.

كيف ذلك؟

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (آل عمران: ٧).

تشير لك السورة منذ بدايتها أن تتجه إلى «أم الكتاب» وتعرض عن المتشابه الذي يشوش عليك، كما لو أنها تقول لك أن تركز على مجمل الصورة الكبيرة وتترك التفاصيل التي تلهيك عنها.

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ (آل عمران: ٩).

وتذكرك بأن نهاية القصة هي في يوم قادم حتماً ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ وليس في أيام عابرة جعلك ألقاها يوهمك أنها النهاية.

﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْدٌ بَلْهُمْ سَتُغْلَبُونَ وَتُخْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَيَفْسُ الْوَيْهَادُ﴾ (آل عمران: ١٤)

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ يَبْدُلُ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ (آل عمران ٤٦: ٤٧)

تقول لك السورة: إن الفصول تتغير. والدوائر تدور. وإن ما يبدو منتصراً عزيزاً في مرحلة ما قد ينتهي خاسراً ذليلاً في نهاية المطاف. تقول لك السورة: إن شهوات الحياة مباحة وجميلة، لكن لا تكسر نفسك بأن تحصر نفسك فيها، فنتج ما هو أكثر من ذلك في هذه الحياة، تقول لك: إن المحك هناك في أفق أبعد لكنه حقيقي، ستنبهك إلى دوران العالم والملك والمال والسلطة والجاه بين الناس، مالك الملك يؤتي الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء، يعز من يشاء ويذل من يشاء، فلا تقتر كثيراً بمرك فهو عابر. ولا يحزنك عز من أذل أو ظلمك فهو عابر كذلك، لا شيء يدوم من هذه الأمور.

﴿وَإِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذَرَيْتَهَا مِنَ الشُّبْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ (آل عمران ٣٥: ٣٦).

﴿هَٰذَا لَكَ دُعَاؤُكَ رَبَّكَ فَادْعُ ۚ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ۝ فَادْعُهُ الْمَلَائِكَةَ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُنَزِّلُ فِي بَيْتِهِ مِصْرًا طَيِّبًا مِنْ اللَّهِ وَنَبِيًّا وَحُضُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ۝ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكِ قَالَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ۝﴾ (آل عمران: ٣٨-٤٠).

﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ قَالَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (آل عمران: ٤٧).

سيعرفك جبر الخواطر على أسرة بسيطة فقيرة، وامرأة تنذر طفلها القادم بعد طول انتظار، تبدو الأمور صعبة بالنسبة لها عندما يأتي الطفل أنثى، فليس الذكر كالأنثى، لكن جبر الخواطر يأخذ هذه الأنثى إلى مكانة غير مسبوقة بين العالمين، وتأخذك السورة مرة أخرى إلى شيخ يكاد أن يفقد الأمل في صبي له، لكن جبر الخواطر من جديد يحقق له ما بدا مستحيلًا، تأخذك السورة إلى مريم وقد فُهِتْ أنها ستلد من غير زواج ومن غير أن يمسها بشر، أي كدر وانكسار هذا الذي سيحدث معها، لكن جبر الخواطر يقودها إلى طريق آخر مختلف تمامًا، ومنرى مكرهم يحقق بابنها لاحقًا، ولكن النهايات ستجعله فوقهم على نحو غير مسبوق.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلِيْسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْفُرُونَ بِالْحَقِّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (آل عمران: ٧١).

وقد يكسر خاطرك أن ترى أهل الكتاب يلبسون الحق بالباطل ويكتمون الحق وهم يعلمون، ولكن هذا يجب أن يذكرك أنه خطر محقق حتى بك، بكل من يزعم أنه يحمل «الكتاب»، كل الطرق التي ضلوا عبرها هي

طرق يمكن أن تضل أنت غيرها أيضاً؛ لذلك فخاطرك لا يُخَبِّرُ بأن ترى «نهاياتهم». بل بأن تعي بأخطائهم التي يمكن أن تقودك أيضاً إلى نفس النهايات، كل الأمثلة التي تتحدث عن أخطائهم لم تأتِ لكي تفاخرهم بها، بل لكي تتجنب الوقوع فيها.

﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (آل عمران: ١١٠)

في عز انكسارك ستقول السورة لك: إنك من خير أمة، لكن لن يتركك تستعمل ذلك كأفيون يخدرك عن واقعك، بل سيجعله جبهة وعي: الأمر مشروط، فهل أديت شروطه؟ أن تأمر بالمعروف وتنه عن المنكر يعني أيضاً أن كلمتك يجب أن تكون مسموعة، أن لك مكانة تجعلك «قدوة»، وأنك مثال لما تأمر به وتنهى عنه، فهل أديت هذه الشروط لكي تحقق هذا الانتعاش؟

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُشْكُرُونَ﴾ (آل عمران: ١٦٣).

تأخذك السورة إلى أعلى لحظات عزك، إلى لحظة النصر في بدر، فيريك ما جعلك النصر تتساه، ويقول لك: لقد كنت ذليلاً كسيراً، لكن سارت الأمور إلى عاقبة أخرى مختلفة تماماً، جبر النصر كسرَكَ وما كنت فيه من ذل، وتغيرت نظرتك لنفسك ونظرة الناس إليك.

﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿إِنْ يَسْأَلْكُمُ فَزَحْ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ فَزَحْ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَضَاوَلَهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَبَتَّجِدَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ (آل عمران ١٣٩: ١٤٠).

ثم تأخذك السورة إلى كسر كبير، إلى يوم أُحُدٍ، فترتّب على كتبك كما لو أنك كنت هناك، إنه حال الدنيا، تتغير الفصول، تلك الأيام نداولها بين الناس، مرة لهؤلاء ومرة لأولئك، لكن لا سواء بالضرورة حتى لو تشابهت الظروف، فإلهم أن تكون العاقبة مختلفة.

تقبض عليك السورة في لحظة انكسار هائل، هوان وحزن، وتقول لك: إنك الأعلى.

ثم مرة أخرى تجعل ذلك مشروفاً، إن كنت مؤمناً.

بل إن جبر الخواطر يأخذك حتى إلى كسر لم يحدث، لكنه كان محتملاً، كسر كبير جداً، أن يُقتل الرسول - عليه الصلاة والسلام - نفسه.

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْغَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَنِ يَصُرَ اللَّهُ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾
(آل عمران: ١٤٤).

جبر الخواطر يقول لك هنا: إن العاقبة في الثبات.



في حياة كل منا يوم بدر، وفي حياة كل منا يوم أُحُدٍ، وجبل تم تعذيبنا منه، وطمعة مؤلة في الظاهر، وهزيمة موجعة مضجعة، وخواطر مكسورة.

ولكن هناك أيضاً سورة آل عمران، تأتلك لتجبر كسرك وتطيب جرحك وتمسح دمعك، كان الصراع مريراً في «سورة البقرة»، ولا بد أنه تضمن كسراً ككسر يوم أُحُدٍ، أو أيام أُحُدٍ؛ لذلك تأتي بعدها سورة آل عمران؛ لتجبر ما كُسر.

آل عمران يأتونك خصيصةً ليهمسوا في أذنيك: هذا يحدث دومًا، انظر إلى الصورة الكبيرة، إلى العاقبة، إلى النهاية التي تضم كل النهايات.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾
(آل عمران: ٢٠٠).

وتنتهي السورة بخطة للخروج من كسر الخاطر، خطة لجبر الخاطر: اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا.

الصبر داخلي، بينك وبين نفسك، وقد يبدأ بهذا الوعي جبيرة الكسر. والمصابرة خارجية، تجاه الأمر المحيط بك، ولا يمكن أن يحدث ما لم يبدأ من الصبر، ويكون قاعلاً بينك وبين من حولك أيضًا، تصبرهم ويصبرونك.

والمرابطة مواجهة ما أودى بك إلى ما كسرك.

وخلال كل ذلك: التقوى.

سورة النساء ٤

عن المستضعفين في الأرض

ورغم أن اسمها سورة النساء، إلا أنها ليست فقط عن النساء، إلا أنها عن كل المستضعفين في الأرض: النساء واليتامى والمساكين، كل من يمكن أن يكون عرضة للاستغلال.

لكن هذه السورة ليست لنزف الدموع على هؤلاء ولا حتى للحث على التعاطف معهم، هؤلاء يحصلون أصلاً على الكثير من التعاطف الذي لا يُسمن ولا يُغني عن جوع، بل هي ببساطة لتغيير أوضاعهم، وتغيير هذه الأوضاع لا يحدث بالمواظبة ولا بالنوايا الحسنة فقط، بل بالقوانين، بتغيير الأوضاع التي قادت إلى استغلال ضعفهم. ولأن الاستغلال الأكبر كان يأتي عن طريق جعل هؤلاء في حالة حاجة «مادية» فإن أولى خطوة كانت في كسر هذا الوضع وتغييره.

تخليصهم من «العوز المادي» وجعلهم «مستقلين» مالياً هو أول خطوة في هذا.

﴿الرَّجَالُ نَصِيبٌ مِمَّا قَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا قَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبٌ مَفْرُوضًا﴾ (النساء: ٧)

﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ الْاُنثَيَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَرِثَتْهُ أَبَوَاهُ فَلِلأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِلأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ زَيْنِ آبَائِكُمْ وَلِبَنَاتِكُمْ لَا تَذَرُونَ أُولَهُنَّ أَقْرَبَ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾
(النساء: ٦١)

﴿وَأُولُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالُهُمْ وَلَا تَبَدَّلُوا الْحَبِيبَ بِالْغُلْبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوتًا كَبِيرًا﴾ (النساء: ٤)

بعد أن كانت المرأة عند أغلب قبائل العرب تورث كما يورث المتاع عندما يتوفى عنها زوجها^(١)، أصبحت شريكة في الإرث كما الآخرين، وستتغير بذلك حساب إرث الجميع، أول دروس إزالة الاستضعاف ثاني هنا تحديدًا، توفير الاستقلال الاقتصادي، الكفاية الاقتصادية على الأقل، وستتجاوز ذلك الأمر الزوجة إلى البنت والأخت أيضًا، وحتى صغار الذكور الذين كانوا لا يرثون سابقًا؛ لأنهم لا يعتبرون عند القبيلة قوة مهمة ما داموا غير قادرين على حمل السيف حسب أعراف العرب^(٢)، الآن الأمر اختلف، لقد أعيدَ رسم كل شيء، وضمن ما رُسم كانت تلك الحدود التي تفصل بين الضعف والاستضعاف، حدود الله، لم يعد من السهل استقلال وضع المرأة أو اليتيم ما دام قد أصبح شريكًا، سماها القرآن حدود الله، ﴿وَلَكُمْ حُدُودُ

(١) صحيح البخاري ٤٥٧٩

(٢) المفصل في تاريخ العرب، الجزء ٩ صفحة ٨٠

اللَّهُ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ (النساء: ١٣)

لماذا الحديث عن المرأة يكاد يهيمن على سورة تتحدث عن المستضعفين في الأرض؟ لأنها ببساطة مظلومة المظلومين، هناك طبقات أو فئات كثيرة تتعرض للظلم، رجالاً ونساءً، لكن النساء في هذه الطبقات تتعرض لظلم مركب، ظلم يعم قسرتها ككل، وظلم يخصصها يضاف إلى الظلم الأول.

﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَيِّعَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ (النساء: ٢٨: ٢٩)

السورة تقول لنا: إن الإنسان خلق ضعيفاً، لكنها تفرق بين هذا وبين استغلال هذا الضعف، بين الاستضعاف، والأمر لا يخص النساء فقط، ولا اليتامى والمساكين فقط، كل منا مرشح لأن يكون مستضعفاً في مرحلة ما، في منطف ما من حياته. قد يتعرض لظلم، لن يأخذ حقه، لظلم من شخص أشد قوة يستغل قوته، دوماً الاستضعاف مرتبط بظلم ظالم يستغل ضعفاً ما.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَالْفُتُوحِ وَيَقُولُونَ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾ (النساء: ٥١)

وبعض هذا الظلم يكون من قبل مؤمنين أيضاً لكنهم مؤمنون بتصيب من الكتاب، بأمور فيه توافق هواهم، ويؤمنون معه بالطواغوت الذي قد يكون «الأناء» في أعماقهم، وهذا ما يجعلهم يظلمون، بل وقد يكون ظلمهم باسم الدين!

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾ (النساء: ٧٥).

سنتقول لنا السورة: إن تغيير وضع هؤلاء يستحق أن يكون في مصاف القتال في سبيل الله، ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾، إنها سورة كل المستضعفين وليس النساء فقط.

﴿وَمَنْ يَفْعَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ (النساء: ١٢٤)

نعم، ربما هناك اختلافات بين الذكر والأنثى، لكن ليس عند رب العالمين، ليس في فعلهم للخير، السورة تساوي بين الذكر والأنثى في عمل الخير، وتؤكد أن الجميع سواسية عند الحكم العدل.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْمَلُوا وَإِنْ تَلُوتُوا أَوْ تَعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ (النساء: ١٣٥)

وتقول لنا السورة: إن العدل والقيام بالعدل وحده هو الذي يمكن أن يزيل الامتضاعاف في الأرض، وهذا لا يمكن أن يحدث بالشعارات ولا بالدعوة لذلك ولا حتى بتغيير مفاهيم الناس فحسب.

بل يجب أيضًا أن يُصَرَّن بالقانون.

ولذلك عندما تنتهي السورة فهي تنتهي بحكم آخر من أحكام المبررات،
 في آية الكلافة، كما لو أنها تقول: إن كل الحديث عن القسط والعدل يجب
 أن يُقَيَّدَ بقانون، يجب أن يُقَنَّ، يجب أن يجد ما يحميه ويحققه.

فلنتذكر هنا أن منح الحقوق للمرأة أو لأي معتضعف في الأرض، ليس
 منحة ولا منة من أحد، بل هو واجب، بالضبط هو إرجاع الحق لصاحبه،
 الذي قد لا يعرف أصلاً أنه حقه:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ
 تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا نَبِيرًا﴾ (النساء: ٥٨)

في منتصف السورة نجد هذا الحوار الذي لا يمكن إلا أن يجعلنا نفكر
 بكل شيء حتى النهاية.

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا
 مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَٰئِكَ
 مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ (النساء: ٩٧)

إذن المظلوم قد يكون ظالماً أيضاً.

تَسْمِعُكَ حواراً بين الملائكة وبين فئة «ظالمي أنفسهم»، هؤلاء لم يظلموا
 سواهم، بل ظلموا أنفسهم، تقول لهم الملائكة: فيم كنتم؟ ظلم الآخرين
 مفهوم! لأنه غالباً ينبع من الطمع والجشع، لكن أن تظلم نفسك حقاً، فيم
 كنتم؟

فيرد عليهم هؤلاء بالقول: إنهم كانوا مستضعفين في الأرض، كانوا
مظلومين.

فيأتي رد الملائكة المنطقي صادمًا: ألم تكن أرض الله واسعة؟

بصدمنا الرد، نعم، أرض الله كانت واسعة، لكن عقولنا في أحيان
كثيرة تكون أضيق من أن تستوعب هذا، فتتمسك بما يجعل الأرض ضيقة،
ويجعل خياراتك قليلة، لقد كنت ظالمًا لنفسك عندما استسلمت لظلمهم
لك، الظلم أنواع، والبقاء في مكان تكون فيه مظلومًا ظلم.

الأمر صادم، مظلوميك التي ربما كانت معذراته تبرر به أمورًا كثيرة
قد تكون دليلًا ضدك.

ثم تأتي آية بعدها تخفف الأمر قليلًا، فهناك مَنْ لم يستطع فعلًا
الخروج إلى أرض الله الواسعة، فهذا أيضًا يتطلب قدرًا من القوة.

سورة النساء ليست عن النساء فقط، بل عن الإنسان ككل، لا يمكن
فصل قضية المرأة المظلومة عن قضية الرجل المظلوم.

سورة النساء عن الإنسان... الإنسان المظلوم والإنسان الظالم....
والإنسان الظالم باستسلامه للظلم.

المائدة هـ

الطبيعة البشرية بلا تجميل ولا فتوشوب

سورة المائدة هي سورة «الطبيعة البشرية» بلا رتوش ولا مجاملات، تأخذك السورة لتُجَلِّسَك على مائدة واحدة مع الطبيعة البشرية وجهاً لوجه، وتضع لك النقاط على الحروف بحيث يبدو كل شيء في أقصى حالات وضوحه.

تبدأ السورة بمطالبة المؤمنين بالالتزام بعقودهم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَيْعَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُنْتَلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ (المائدة: ١).

وكل ما يلي سيبين لك أن الحياة كلها يمكن أن تكون مجموعة من العقود التي ينبغي الالتزام بها، وأن الطبيعة البشرية تحتاج إلى أن يكون هناك «عقد» أولاً. ومن ثمَّ تحتاج إلى أن تلتزم ببند هذا العقد، دون وجود عقود ملزمة تميل الطبيعة البشرية إلى أن تتماذى، إلى أن تتجاوز، إلى أن تذهب إلى أسفل ما فيها وأكثر جوانبها ظلمة.

سيبدأ الأمر بوجود عقد أو تشريع يخص الطعام ﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ بَيْعَةُ الْأَنْعَامِ﴾، وسيكون هناك تعليمات أخرى تخص الطعام تمنع الميتة والدم ولحم الخنزير، وأخرى تحرم أوضاعاً معينة لأنعام هي حلال بالأصل.

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ النَّيْعَةُ وَالَّذُومُ وَلَحْمُ الْخَيْزُرِ وَمَا أُهْلَ بِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالسُّخْرِيَّةُ
وَالنُّوْقُودَةُ وَالْمُرْدَّةُ وَالطَّيْحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾
(المائدة: ٣)

لكن لماذا هذا الأمر مهم جداً لدرجة أن السورة تبدأ به؟

ببساطة لأن الإنسان، مضطره إلى طعامه كي يستمر بالحياة، لا شيء
سيغير هذه الحقيقة، وعندما ترسخ عنده فكرة وجود عقد يحتوي على
ممنوعات ومسموحات في طعامه، ويعتاد عليها وعلى الالتزام بها، فإن
فكرة العقد نفسها والوفاء بالعقد ستتكرس أكثر وأكثر.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشُّهُرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْمَلَائِدَ
وَلَا آمِنَ الْبَيْتِ الْحَرَامَ يَتَتَفَعُونَ فُضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا
وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى
الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾
(المائدة: ٩) سيكون هناك عقد يخص «شعائر الله» و«الشهر الحرام»
والصيد في الحرم، حتى في الحرب هناك «عقد» يجب أن يوفى به، حتى
مع ظلم البعض هناك التزام بعقد أن تعدل معهم، ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ
قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا﴾.

هذه العقود أو التشريعات التي قد تبدو بسيطة هي نموذج مصغر
للميثاق الأكبر، لعهد وعقد أكبر على الإنسان أن يوفى به ويلتزم به،
والسورة تدرج معنا في فهم ذلك؛ من عقود يومية سهلة في الأداء (فيما
يخص الطعام مثلاً) إلى ما هو أكبر وأشمل.

﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ وَبَعَثْنَا فِيهِمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَبِيًّا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُضَاعِفَنَّ عَنَّاكُمْ سَبْعَ أَضْعَافٍ وَلَا أَضَاعِفَنَّ جَنَاحَ عَجْرَافٍ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٣﴾ قَبِيضًا نَقَضْتُمُ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا دُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾﴾ (المائدة: ١٣-١٤).

نأخذنا سورة المائدة إلى ميثاق بني إسرائيل الذي نُقَضَّ بقسوة قلوبهم وتحريفهم لمقاصد كتابهم (قسوة القلب وتحريف المعاني، هل يذكرنا هذا بشيء؟)

﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا دُكِّرُوا بِهِ فَأَعْرَجْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾﴾ (المائدة: ١٤).

وتأخذنا أيضاً إلى ميثاق النصارى الذي نُقَضَّ بتفرفهم وبقلوبهم في السيد المسيح، (هل يذكرنا هذا بشيء مجدداً؟)

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى هُنَّ أُمَّتُاؤُ اللَّهِ وَأَجِبَاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾ (المائدة: ١٨).

ومرة أخرى: يتوهم كل من الطرفين أن محبة الله حصريّة له فقط، وهذا أيضاً، (هل يذكرنا بشيء؟ أليس هذا نوعاً قابلاً للتكرار؟ أتم يسقط بعض منا في هذا المطلب أو ذاك أو في الاثنين معاً؟)

﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَانِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ (٢٤) قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٥) قَالَ فَإِنَّهَا حَرَّمَ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيَهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿ (المائدة: ٢٤: ٢٦)

تأخذنا سورة المائدة أيضًا إلى تيه بني إسرائيل، أربعين سنة يتيهون في الأرض نتيجة لنقضهم الميثاق، فتكاد ترى في هذا التيه وجوهًا كثيرة تعرفها، بل قد تفكر مع نفسك أنك ربما وُلِدْتَ في التيه وكبرت في التيه ودرست في التيه، وتخرَّجت في مدرسة التيه وانسببت لجامعتها، وتزوجت لتتجب أطفالًا في التيه أيضًا، وكل ذلك دون أن تعرف أنك في التيه، بل ربما كنت تتوهم أنك على صراط مستقيم، أنك على الطريق الصواب، إنها الطبيعة البشرية عندما تكون بلا ميثاق ولا عقد ولا بوصلة، ستنه، ستكون مرصودة للتيه.

﴿وَاتَّكَلَّ عَلَيْهِمْ نَبَأُ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الشَّيْئِينَ ﴿٢٠﴾ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَنَّكَ إِلَيَّ أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢١﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ نَبُوءَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ (المائدة: ٢٧: ٣٠).

من أرض التيه ستأخذنا السورة إلى أصل القصة: إلى أول جريمة في تاريخ الطبيعة البشرية، عندما قتل قابيل هابيل، الدافع الغيرة، الحسد،

الطمع، نوازع موجودة في الطبيعة البشرية، وعندما يُنزع اللجام عنها، يمكن أن تقترف أي شيء، حتى أن يقتل الأخ أخاه.

يمكن أن نذهب الطبيعة البشرية إلى هذا المدى من السوء، تاريخ البشرية مصداق على ذلك، نشرات الأخبار مصداق على ذلك.

لذلك كان لا بد من أن تكون هناك حدود واضحة، عقوبات رادعة، لكن من يتخطى بنود العقد والميثاق، ستذكر الآيات عقوبات مشددة بحق من يفسدون في الأرض ويقطعون الطريق.

﴿مَنْ أَجَلُ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَكُسُوفُونَ (٣٢) إِنَّمَا جزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ جزَاؤُا فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (المائدة: ٣٢، ٣٣).

وعقوبات أخرى بحق من يرتكب جرائم السرقة.

﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (المائدة: ٣٨).

قد يعدها البعض قاسية، لكنها الطبيعة البشرية للأسف، إن لم تلجمها بردع وقوة، سيحدث معها التماذي بكل أشكاله، القصاص لا بد منه ليس لعقوبة المجرم، فقط، ولكن لمنع مجرمين كامنين آخرين في الطبيعة البشرية من الظهور.

تلك الطبيعة البشرية عندما تكون بلا عقد ولا رادع، تكون هي الجاهلية بعينها.

﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَنْعُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾
(المائدة: ٥٠)

الجاهلية هي أن تشرك الطبيعة البشرية بلا تهذيب ولا تعليم ولا التزام برادع أو قانون، وستحتوي على درجات واسعة وتشمل أناساً يدعون أنهم ضد الجاهلية وأنهم يحاربونها وأنهم إنما يريدون حكم الله، لكنهم في الحقيقة التطبيق العملي لعن الجاهلية الأعمق.

البعض منهم سيقاذل عن إنسانيته ويرتد إلى مستوى حيواني في السلوك (القردة والخنازير) كما سيقول القرآن، والبعض منهم سيعبد (الطاغوت).

﴿قُلْ هَلْ أَنْتُمْ بِشِرِّ مِنَ ذَلِكَ مَتُوبَةٌ عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَعَظِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ (المائدة: ٦٠)

والبعض سيدعي بخل الله برحمته على العالمين؛ ليبرروا بخلهم هم ويجعلوه مقدساً.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ بَدَأَ اللَّهُ مَغْلُولَةً غَلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِخُ فِي شَفَاةٍ وَلَئِنْ يَشَاءْ لَنُغْلِبَنَّ مِنْهُمْ مَنْ شَاءَ مَا أَنْزَلْنَاهُ مِنْ رَبِّكَ طُفِيفًا وَكُفْرًا وَآلَقِينَ بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا يُلْحَرْبُ أَطْفَالَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْفِيْنَ﴾ (المائدة: ٦٤).

الطمع، أكل الحرام، العداوة والبغضاء، كلها ستكون صفات للطبيعة البشرية وهي تتغلى عن عقودها وعهودها وتتجاول عليها، وسيأتي في هذا السياق تحريم «الخمر والميسر والأنصاب والأزلام».

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّا جَعَلْنَا الْخَمْرَ وَالْمَيْسِرَ وَالْأَنْصَابَ وَالْأَزْلَامَ رِجْسًا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَأَجْتَنِبُوا لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾ (المائدة: ٩٠).

فالخمر تحديدًا تخفف من سيطرة الإنسان على نفسه، وهذا يمكن له أن يبرز فيه أسوأ ما فيه، والميسر والأنصاب والأزلام «تحرلها» دافع الطمع عند الإنسان، الربح المبني على معض «الحظه» لا على الجهد والعرق، وهذا أيضًا قد يبرز فيه أسوأ ما فيه.

تنتهي السورة بالحواريين وهم يطلبون المزيد من السيد المسيح، إنها الطبيعة البشرية التي لا تكف عن الطلب، حتى عند المؤمنين، هذه المرة الطلب هو مائدة من السماء، وسيتحقق طلبهم كطلب أخير لا حجة بعده.

﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنُتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٠﴾ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَنَطْمِسَ رَبَّاتِنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَّقْتَنَا وَنَعْمُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ (المائدة: ١١٢-١١٣).



نزلت مائدة السماء على حواريي السيد المسيح، أما المائدة التي أنزلت لنا فهي مائدة مواجهة مع النفس ومع الطبيعة البشرية، مائدة تواجه فيها تاريخ ما مضى وتجاربه المريرة، مائدة تطلب الطاولة على الكثير من الأوهام فيما يتعلق بالطبيعة البشرية.

وجهاً لوجه مع أنفسنا، على تلك المائدة، نعم، نحتاج إلى قوانين رادعة، إلى تشريعات ملزمة. وإلا فإن هناك دوماً قاييل يقتل هابيل، وأرض التيه محيطة بنا وفي انتظارنا. نحتاج أن نكون صادقين مع حقائق الطبيعة البشرية «المؤسفة» لكي نفر باحتياجاتها، نحتاج الصدق في مواجهة ذلك. الصدق.

تنتهي السورة بأية تقول لنا: ﴿مَنْ يَتَّقِ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾. للخروج من التيه، ولكي نمنع قاييل آخر من أن يقتل هابيل مجدداً.

سورة الأنعام ٦

أهم علاقة في حياتك

سورة الأنعام هي عن أهم علاقة لك في حياتك.
ليست عن علاقتك بشريكك أو شريكك أو أمك أو أبوك أو أولادك.
ولا حتى عن علاقتك بنفسك.
بل عن علاقتك بمن أوجدك.
عن علاقتك بالله خالقك.

السورة هي أول سورة مكية من طوال السور! لذا فهي بلا حديث عن
تشريع أو عقود، لا وجود للمنافقين فيها، ولا شيء عن اليهود، وهي أمور
لمسناها في السور السابقة التي كانت كلها قد نزلت في المدينة.
السورة نزلت في مكة، وهي تأخذك عملياً إلى النبع الأول، إلى مرحلة
الإنشاء.

هكذا تسلسل الأمر: في سورة البقرة كنت في خضم الصراع المرير
مع الواقع، في سورة آل عمران كان جبر الخواطر. في سورة النساء كانت
هناك القوانين التي تزيل الاستضعاف عن المستضعفين في الأرض، في
سورة المائدة جلست وجهاً لوجه مع الطبيعة البشرية وتعرفت على مخاطر
ألا يكون هناك ما يلجمها ... ما يوقفها عند «حدودها».

الآن بعد أن اجتزأت كل هذا، تصل إلى العلاقة الأهم في حياتك.
لماذا ليس قبل هذا؟ ألا يفترض أن تركز على هذه العلاقة قبل كل شيء؟

ليس بالضرورة، فكل ما سبق يمكن له أن يشوش عليك في علاقتك تلك. صراعك المريع مع الواقع من حولك ومع الكسر الذي فيك ومع الاستضعاف ومع طبيعتك البشرية يمكن له أن يؤثر سلباً على كل علاقاتك، حتى العلاقة الأهم! لذا فنسأل سور القرآن يجعلك «تحل» قضاياك العائقة أولاً، أو على الأقل تصبح أكثر وعياً بها، قبل أن يدخلك إلى السورة التي تأخذك إلى العلاقة الأهم في حياتك، طبعاً هذا لا يعني أن ما سبق كان خالياً من هذه العلاقة، لا بالتأكيد، فكل ما في سور القرآن يرتبط بهذه العلاقة بطريقة أو بأخرى. لكن الحديث هو عن أهم وأبرز ما داخل السورة في كل سورة.



﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْبِلُونَ﴾ (الأنعام: ١)

تبدأ هذه السورة بما بدأ به القرآن كله: بالحمد، هذه العلاقة الأهم في حياتك ستبدأ دوماً من ناحيتك بالحمد، مهما كان ومهما حدث، الحمد، لكك تمر أحياناً بما يجعل هذا صعباً.

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ لِيَجْمَعَ بَيْنَكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنعام: ١١-١٢).

سنأخذك السورة في رحلة تتفحص فيها كل شيء . وفي نهايتها سيكون الحمد نتيجة طبيعية.

سُخِّرَ جَكَ السورة من عالمك الضيق الذي قد يستقبل الحمد إلى عالم أكبر بكثير، إلى الكون والخلقة بأسرها: السماوات والأرض، الظلمات والنور، مهما كانت «الأنا» عندك متضخمة بورم من أورام الذات، فتذكرك بعجم الكون سيجعل الأنا تنكمش ولو قليلاً، تذكرك بعظمتك الأرضي ليس للتقليل من شأنك، بل لأنها الحقيقة التي ننساها أحياناً، بل ننساها دائماً بينما ننساق إلى التكذيب والجدال بحق وبغيره.

تأخذك سورة الأنعام إلى الأرض، تسير بك لتتجول فيها عبر مقطع عرضي يدرس تاريخاً وينظر في مصائر أممها، وتأخذك إلى هذا الكون المصنوع بدقة، كم تبدو صغيراً عندما تقارن نفسك فيه، لكن السورة لا تدعك تقلل من شأنك وتتساق في ذلك، بل هي تقول لك أيضاً: إن خالق هذا الكون قد أمرك أن تكون أول من أسلم له، أول المسلمين.

﴿قُلْ أَعْبُدُوا اللَّهَ أَعْبُدُوا إِلَهًا فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعَمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (الأنعام: ١٤).

الخطاب للرسول - عليه الصلاة والسلام - الذي تنزل عليه الوحي، لكنه بطريقة ما موجه لك أيضاً، يمكنك أن تكون الأول في شيء ما، وهذا أمر من خالقك. تأخذك السورة في مسيرة في صفاته عز وجل، هو الذي يكشف عنك الضر، وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير، عنده مفاتيح الغيب ويعلم كل شيء، ليس بينك وبينه إلا أن تتأكد من أنك لست من هؤلاء.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُخَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (الأنعام: ٢٥)

ستأخذك سورة الأنعام بينما ثمة مواساة للرسول عن كل ما يقوله المكذبون فتجد نفسك قد اقتربت أكثر من دواخله الشريفة الكريمة، هو يحزن إذن مثلنا جميعاً، ربما لأسباب أخرى غير تلك التي نحزن لأجلها، لكن الحزن واحد، مواساة الآيات له -عليه الصلاة والسلام- ستواسيك أيضاً بغض النظر عن سبب حزنك، ستقوى لك السورة: إن كل دواب الأرض ﴿أُمَمٌ أَمْتَالُكُمْ﴾، وعليك أن تذكر هذا فربما تحتاجه لاحقاً، ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا ظَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْتَالُكُمْ مَا قَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ (الأنعام: ٢٨).

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَرَزَرْتَنِي أَتَعْبُدُ أَصْنَامًا إِلَهَةً إِنِّي أَرَأَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿فَلَمَّا حَضَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُجِبُ الْآفِيلِينَ ﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْسَ لِي بِهِدْيِي رَبِّي لَا كُورَ لِي مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسُ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (الأنعام: ٧٤: ٧٩)

ثم تأخذك السورة إلى حوار إبراهيم وأبيه، وتلك الليلة التي هرب فيها إبراهيم أن يواجه معبودات قومه.

الكوكب، أهو هو؟ هل هذا هو الإله الخالق؟ لكنه قد أهل، وإبراهيم لا يحب الآفلين، الفطرة السليمة لا تحب الآفلين، المنطق البديهي لا يحب الآفلين.

ثم جاء القمر، وهو يبدو أكبر، وكرر إبراهيم أسئلته، لكن القمر أهل أيضاً، وإبراهيم لا يحب الآفلين. ثم ها هي الشمس أكبر، هل تكون هي؟ لكنها أفلت أيضاً، وإبراهيم يعي أن الإله الحق لا يأفل قط، ولا يدخل أصلاً في مقاييس الكبر، الله أكبر لأنه أكبر من هذه المقاييس، ووجه إبراهيم وجهه لقاطر السماوات والأرض، اكتشف بداهة الخالق ووحدانيته بعقله قبل أن يتنزل عليه الوحي، وفتح لنا الدرب كي نوفق بين عقلنا وإيماننا، تلك اللبلة لا تزال تشع نوراً يمكننا أن نعلمه ونتحسسها كلما حاصرنا ظلمة الشك والتشكيك وظلمة الجمود والظلاميين^(١).



وكما صاح إبراهيم في ملكوت الله بعقله تأخذنا السورة إلى ﴿قَالِى الْحُبِّ وَالنَّوَى﴾ وه مخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي ﴿قَالِى الْإِصْبَاحِ﴾ ﴿يَدِيعُ السَّآوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ﴿خَالِى كُلِّ شَيْءٍ﴾ ﴿لَا تُذِرْكُ الْإِبْصَارُ وَهُوَ يُذِرُكَ الْإِبْصَارُ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ ﴿الْقَبْرِ ذُو الرَّحْمَةِ﴾، صفات الله في خلقه وأثرها على خلقه، وكلها تقودك إلى أن تكتشف أن علاقتك به - عز وجل - هي أهم ما يمكن أن تنشئه من علاقات في حياتك وبعد حياتك.

﴿قَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْتُ جَعَزٌ لَا يَظْعَمُهَا إِلَّا مَنْ لَشَاءَ بَرِغْبِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ فَلَهُنَّهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا الْفِتْرَاءُ عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَرُونَ﴾

(١) للمزيد: البوصلة القرآنية، المؤلف.

وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِلَّذِينَ كُفِرُوا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَصْحُرَ مَيْتَةً
فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصَفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٨﴾ (الأنعام ١٣٨: ١٣٩).

لماذا الأنعام؟ تشير السورة في أكثر من موضع إلى تلاعب المشركين في
علاقتهم بالأنعام وتقسيعها، مرة يقسمونها لتكون محرمة على الإنثاء،
ومرة تكون فقط لسدنة الأوثان، مرة يُذَكَّرُ عليها اسم الله ومرة أسماء
الأوثان.

لكن هذه الأنعام لم تكن مجرد أنعام، كانت دعامة من دعائم الاقتصاد
آنذاك، كانت مثل «رأس المال»، ولو فكرنا قليلاً لوجدنا أن هذا التلاعب
برأس المال عبر الدين وعبر الشعارات الدينية التي تُظهِر الورع وتُبْطِن
الربح في التجارة.

السورة تنبهنا إلى ذلك، وما كان اسمه أنعام يوماً ما، يمكن أن يكون
اسمه المال، أو رأس المال اليوم، أو أي صيغة وشكل من صيغه وأشكاله.

ليس هذا فقط، فضعف علاقتك به عز وجل لن يقود فحسب إلى أن
تتورط في استغلال الدين لتحقيق الربح.

لكنه يمكن أن يتوحد إلى أن تكون أنت أيضاً جزءاً من «عملية التثريب»
التي يديرها البعض، أن تكون كالأنعام التي يربحون عبر التلاعب
بمقدراتها.

علاقتك به - عز وجل - هي الفيصل الفارق الحاسم بين أن تكون أنت،
وأن تكون من الأنعام، كلها في النهاية «أمم أمثالكم»، لكن الإنسان لديه
خيار آخر: ألا يكون كالأنعام.

﴿قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِثْلَ دِينِ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ (الأنعام ١٦٦: ١٦٣)

تنتهي السورة بذلك الاكتشاف الذي أثار شعلته سيدنا إبراهيم أول مرة. وأكمله سيدنا محمد. ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ (الأنعام ١٦٦: ١٦٣). لا يزال هذا الأمر مضيئاً، ولا يزال يمكنه أن يذير ليالي شكك وحيثك، وتكتشف ذلك الأول الكامن فيه.

﴿قُلْ أَغْنِيَ اللَّهُ أُنْبِيَ رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ ؟ تتساءل الآيات في خاتمة السورة بعد أن قادتنا من الحمد إلى فائق الحب والنوى وخالق السماوات والأرض مروراً ببليلة إبراهيم.

يكون الجواب: لا، ليس غير الله.

أهم علاقة يمكن أن تحصل عليها في حياتك: هي علاقتك به عز وجل. أمر لا يمكن أن يحصل للأنعام.

سورة الأعراف ٧

الأناس في النحر

إذا كانت سورة الأنعام هي عن علاقتك الشخصية بالله عز وجل، فإن السورة التي تليها - «سورة الأعراف» - هي عن علاقتك بمجتمعك.

هكذا انتقلنا من ﴿وَجْهَتْ وَجْهِي﴾ و﴿صَلَّيْتُ وَنُكِّي وَنَحْيَايَ وَمَنَائِي﴾ و﴿أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾ و﴿جِئْتُونَا فَرَادَى﴾ في السور السابقة إلى «يا بني آدم» (تكررت ٤ مرات) و«أهل القرى» (٣ مرات) و«أمة» (خمس مرات)، علماً أن هذه التكرارات هي الأكثر بين سور القرآن.

والعلاقة بين الأمرين (الفرد - المجتمع) مهمة ومتشابكة ومعقدة، الصلاح الفردي مهم، وهو محور مهم من محاور سورة الأنعام.

ولكن هل الصلاح الفردي ممكن أصلاً إذا كان المجتمع يسير باتجاه آخر؟ هل النجاة الفردية ممكنة إذا كان المجتمع سفينة هائلة الحجم تفرق ببطء في عرض المحيط؟

هذا ما يمكن أن تساعدنا فيه سورة الأعراف.



تبدأ السورة بمدخل بعيد لنا قصة أبينا آدم (من الآيات ١١ - ٢٥) منذ سجود الملائكة لآدم إلى خروجه من الجنة، فيكون ذلك مدخلا لكل ما ستأخذنا إليه السورة من نداء لنا بصفتنا أبناء آدم.

﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سُوءَاتِكُمْ وَرِيثًا وَلِبَاسُ الثَّقَلَىٰ ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿١١﴾ يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سُوءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ (الأعراف: ٢٦، ٢٧).

﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (الأعراف: ٣١)

﴿يَا بَنِي آدَمَ إِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (الأعراف: ٣٥).

الخطاب هنا للمجتمع (بني آدم)، لكننا دخلنا إليه من قصة فرد (آدم) يمكن أن نمثل تجربته في كل حياتنا.

الأعراف تقللنا من «الفرد» - آدم - وتجربته كفرد إلى تجربة «أبناء آدم» المجتمعية التي تستفيد من تجربة هذا الفرد.

من الآن إلى النحن.

انتقلنا هنا من سورة الأنعام التي قَدَّمْتُ لَنَا سيدنا إبراهيم «منفرداً» في تلك الليلة التي أعلن فيها أنه لا يحب الأظلمين، إلى سورة الأعراف التي قَدَّمْتُ لَنَا الأنبياء: (نوح وهود وصالح ولوط وشعيب) وَمَنْ معهم من المؤمنين وهم يحاولون إصلاح مجتمعاتهم.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (الأعراف: ٥٩).

﴿وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُوتًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ (الأعراف: ٦٥).

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَمَذَرُوهَا تَاكُلُ فِي أََرْضِ اللَّهِ وَلَا تَسْمُرُوا بِسُوءِ قِبَاغَدِّكُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ﴾ (الأعراف: ٧٣).

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ (الأعراف: ٨٠).

﴿وَإِلَىٰ مَذْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ قَاتِلُوا الْكَيْلَ وَالْيَمْرَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (الأعراف: ٨٥).

هذه السورة بالمناسبة هي أول سورة تعرض هذه القصص في القرآن حسب ترتيب القراءة (التوقيفي والمختلف عن تسلسل النزول). ورد ذكر بعض هؤلاء الأنبياء كأسماء في سور سابقة من التي مررنا عليها، مثل

سورة النساء ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالذِّكْرِ مِنْ بَعْدِهِ﴾، لكن قصص الأنبياء هؤلاء وردت أول مرة بحسب الترتيب في سورة الأعراف، أي إننا لو لم نكن نعرف عنهم شيئاً إلا من القرآن؛ لكانت سورة الأعراف هي أول مرة نتعرف فيها على «قصص هؤلاء الأنبياء».

لكن هذه ليست قصص أنبياء محسوب، هذه قصص معاناتهم مع أقوامهم ومجتمعاتهم في سبيل إصلاحها، كل القصص التي ذُكرت هنا في الأعراف هي قصص دعوتهم لأقوامهم، وكلها قصص انتهت بخروج الأنبياء والمؤمنين من مجتمعاتهم، وتعرض هذه المجتمعات للدمار.

هذا باختصار هو ما حدث في كل القصص التي ذُكرت لأول مرة في سورة الأعراف، الرسالة هنا واضحة، لا نجاة فردية، لا يمكنك أن تنجو بمفردك بينما يذهب مجتمعك إلى القاع، عليك أن تحاول كل ما في وسعك، وهذا وحده يمكنه أن يعطيك تذكرة نجاة، قارب نجاة تقفز به ومن معك من السفينة الغارقة.

الأمر ثقيل وصعب حتماً، الأمر هنا ليس أن تؤمن شخصياً فقط، بل أن تعد يدك لمساعد الآخرين في إيمانهم، وكثير منهم لا يرغبون بذلك أصلاً، هل هذا يفسر ما ابتدأت به السورة؟

﴿كِتَابُ أَنْزَلِ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَتُكْرِىَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الأعراف: ٢).

فلنتذكر هنا أنك عندما تدخل قصص الأنبياء وهلاك أقوامهم في سورة الأعراف، ثم تأخذك السورة بعدها إلى ما مرَّ معك سابقاً من قصة هارون وموسى، فإنك لا تعود تنظر إلى القصة كما في السابق، الآن

أصبحت نعي أن موسى خرج بكل قومه، استطاع أن يأخذهم جميعاً في قارب النجاة، لم يكن الأمر كما حدث في قصص الأنبياء الآخرين الذين تعرض أقوامهم للهلاك إلا مَنْ معهم من المؤمنين، هنا استطاع موسى أن يأخذ كل قومه معه، كما لو أنك ستعيد فهم قصة سيدنا موسى من جديد على ضوء التجارب النبوية الأخرى وبالمقارنة بها.

سنأخذك بعض الآيات إلى منطقة شخصية وعامة في الوقت نفسه، إلى حيث تتجاوز الآنا والنحن ويتداخل البيت والمجتمع.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ يَقِفُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْقُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ (الأعراف: ٩٦-٩٨).

تشعر بطريقة ما أنك المقصود بذلك، تشعر أنك عندما فكرت بالهجرة كنت تشعر بهذه الآيات، تشعر أنك عندما هاجرت كنت تريد أن تهرب من هذا، شيء ما في أعماقك يقول لك: إنك كنت شريكاً في المسؤولية.

ولكن شيئاً آخر - في أعماقك أيضاً - يرد عليك ويقول: لقد دفعت ثمننا باهظاً.

﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٠١﴾﴾ (الزُّمَرِ)

يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴿٤٦﴾ وَبَيْنَهُمَا جَبَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٧﴾ (الأعراف ٤٦: ٤٧).

هل أولئك الرجال على الأعراف، أولئك الذين في الوسط، بين الجنة والنار، الذين سُمِّيتِ السورة على المكان الذي يقفون عليه، هل أولئك كانوا من الذين لم يحققوا المعادلة؟ نجوا شخصيًا وفرديًا، ولكن لم يحاولوا بما فيه الكفاية مع أهوامهم. ويقفوا في الوسط بين الآنا والنحن، بين السفينة الفارقة وقارب النجاة، بين الجنة والنار؟

مجرد سؤال، لا نعرف جوابه، وإن كنا نعرف أنهم أفضل من الذين دخلوا النار، وأنهم لم يدخلوا الجنة، لكنهم «يطمعون»، لديهم أمل.

سورة الأنفال ٨

محاسبة المنتصر

سورة الأنفال هي سورة «محاسبة المنتصر».

قد نتوقع في مفاهيمنا أن المنتصر يجب أن يتلقى التهنئة بالفوز، بينما يتلقى الخاسر اللوم والتقريع.

القرآن يقوم بشيء مختلف تمامًا، في «آل عمران» جَبَرَ خواطر المكسورين بعد هزيمة أحد.

وهنا في الأنفال بعد نصر يوم بدر، اللهجة شديدة القوة، بدلًا من أكاليل النصر المتوقعة، هناك المحاسبة وقوة.

لكن هذا لا يحدث إلا لحكمة بالغة.

فالمهزوم قد يحتاج إلى أن يُجَبَرَ خاطره كي يتمكن من أن يعبر هزيمته نحو الضفة الأخرى دون أن يسقط في فخ المظلومية والمؤامرة، ودون أن يتحول جبر الخاطر إلى إلهائه عن مسؤوليته عن الهزيمة؛

لذا فجبر الخاطر في وقت الكسر، هو استراتيجية الثأم وشفاء.

فما بال المنتصر؟ لم يحاسب؟

لأن نصره ببساطة يمكن أن يتحول إلى هزيمة أكبر من هزيمة الخاسر، لو سقط في وهم الغرور وتصور أن النصر كان نتيجة حتمية

لجهوده، وكثيراً ما يحدث هذا في الكثير من الانتصارات، حتى على الصعيد الشخصي، بل بالذات على الصعيد الشخصي.

لذا تأتي سورة الأنفال لكي تجعل المنتصر بعيد حساباته ويراجع نفسه كما لو كان قد تلقى هزيمة قاسية توجب عليه المراجعة وإعادة التقييم.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (الأنفال: ١).

﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾ (الأنفال: ٥).

﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (الأنفال: ٢٥).

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَبُضْؤُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ حَمِيدٌ﴾ (الأنفال: ٤٧).

اتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم، كانوا على وشك الاعتقاد أنهم على قمة جبل التقوى والصلاح، لكن تعالجهم السورة في مطلعها وهي تقول لهم: اتقوا الله.

تذكّرهم أن منهم من لم يكونوا يريدون الخروج ليدبر أصلاً، وأنهم جادلوا في ذلك، جادلوا فيما قاد إلى هذا النصر الذي يمكن للشيطان أن يوسوس لهم أنه كان نتيجة حتمية لجهودهم.

السورة تسحب منهم «استحقاق النصر».

﴿قَلِمَ تَقَاسُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَاتَلَهُمْ وَمَا زَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبَيِّنَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَبْعُ عَلِيمٌ﴾ (الأنفال: ١٧).

هل أصابكم الفرور على هذا الذي تحقق؟ حسناً، خذوا هذه الآن. أنتم لم تقاتلوا أصلاً، وهذا الرمي الموفق لم يكن رميكم، الله رمى.

فلنتنبه أن هذا لم يحدث قبل القتال، بل حدث بعده، وبعد تحقق النصر، ولو كان حدث قبل لما قاد إلى النصر، خطاب ما قبل المعركة كان مختلفاً جداً ومنسجماً مع ﴿وَأَعِذُوا لَهُمْ مَا اسْتَظَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْقَبْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ (الأنفال: ٦٠).

لو اعتقد المؤمنون قبل القتال أنهم لن يقاتلوا ولن يرموا بل الله هو الذي سيفعل، فذلك لن يجعلهم حريصين على شيء، بل سيفتر همهم.

لكن خطاب ما بعد النصر هو الذي ينفي عنهم الفعل، هو الذي يزيل وهم انتفاخ الذات، وهم قد قاتلوا ورموا بالتأكيد، لكن هذا لا يعني أن جملة من الظروف المحيطة بهم وداخلهم وداخل الكافرين لم تكن عوامل فاعلة في تحقيق النصر، إيمانهم بعدد الملائكة مثلاً ساهم في رفع معنوياتهم، الكفار فقدوا عزهم بعد نجاة فاطمة قريش ﴿ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾، ﴿وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ﴾، ورؤية عدد المشركين في الغمام قليلاً، كل هذه جملة من الظروف التي لم يكن للمؤمنين دخل في إنشائها، ولكنها ساهمت في تحقيق النصر.

بل حتى «الظروف الصعبة» التي ننصر أحياناً «بالرغم عنها»، حتى هذه تساهم في تحقيق الانتصار على نحو غير مباشر: ذلك أن التحدي

الذي تشكل الصعوبة يساهم في تحقيق استجابة داخلية تزيد من القوة والعزم.

يحدث هذا دائماً على مستوى المواجهات الشخصية الكبرى كما على مستوى الأمم في طريق نهوضها وانتصاراتها.



في كل نصر، هناك طاووس رابض كامن، ينتظر اللحظة.

طاووس مزهو، يتحرك بخيلاء.

طاووس مفترس، يفترس صاحبه ويحيل نصره إلى هزيمة أفسى من هزيمة الخصم.

لكن سورة الأنفال تقترب منك، وتعطيك سكيناً.

يمكنك أن تتخلص من هذا الطاووس.

سورة التوبة ٩

الحرب والسلام

سورة التوبة قد توحى للوهلة الأولى أنها «سورة الحرب».

لكن التدقيق فيها سيجعلنا ندرك أنها «سورة الحرب والسلام».

الآيات المجتزأة من السورة تجعلها «سورة الحرب» بلا منازع، وغالبًا كل الذين يتهمون القرآن بالعنف والإرهاب يقتبسون الآيات من هذه السورة، بالآخرى: يقتطمون الآيات منها، لكي تبرهن لهم على ما يريدون. لكن قراءة للسياق ككل ستجعلنا نرى أنها سورة الحرب فعلًا، ولكنها سورة السلام أيضًا.

بالضبط هي سورة «امنعوا السلام فرصة تلو الأخرى.. قبل أن تحاربوا».

الاجتزاءات مثلًا تركز على ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَخْضِرُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ﴾. (التوبة: ٥)

ولكنها تتجاهل تمامًا ما قبلها وما بعدها.

قبلها هناك، في نفس الآية تمامًا: ﴿فَإِذَا انشَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ﴾ أي إن أمر القتال مرتبط بهدنة تستمر لأشهر، ويمكن لهؤلاء خلال هذه الأشهر أن يعقدوا الصلح، القتال ليس حتميًا هنا.

وما بعدها في نفس الآية أيضًا: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (التوبة: ٥).

أي إن التوبة - وكان هؤلاء قد نقضوا عهدهم مع المسلمين - كسيلة بالفاء سبب القتال.

وبعدها هناك مرة أخرى ما هو أكثر ﴿وَإِنْ أَخَذَ مِنَ الشَّرِكَائِ اسْتِجَارَكَ فَأَجْرُهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (التوبة: ٦).
 إن طلب هؤلاء «الذين سبقاتلونهم» الحماية «الجوار» فقدّموا لهم الحماية!

نعم. هي سورة الحرب، لكنها حرب مشروطة بمحاولة السلام حتى آخر فرصة، فعلاً هي سورة الحرب، لكنها الحرب كخيار أخير، بعد استنفاد كل الخيارات الأخرى.



تأخذنا سورة التوبة بعدها من ساحة الحرب المشروطة هذه إلى ما قد يبدو بعيداً جداً عنها.

﴿اتَّخِذُوا أَحْبَابَهُمْ وَزُهَبَاتَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالنَّسِيعِ ابْنِ مَرْثَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (التوبة: ٣١).

قد تبدو الإشارة غير مرتبطة بما قبلها، لكن الحقيقة أن «الأحبار» - أو رجال الدين عمومًا - كانوا دومًا قادرين على اجتزاء الآيات من سياقها وجعل الحرب المشروطة تبدو حرباً مقدسة غير مشروطة، وقد حدث للأسف.

الكثير من رجال الدين كانوا عرباً بين لحروب غير مقدسة، استخدموا فيها الدين ليكون جزءاً من تسويق هذه الحرب وتبرير قطعاتها.

بعد هذا تأخذنا سورة التوبة إلى مواجهة من نوع مختلف، مواجهة الحرب والسلام فيها لا يقل أهمية - بل قد يزيد - عن ساحات القتال المعتادة.

إنها المواجهة مع النفس.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْتُمْ قُلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْجَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ (التوبة: ٣٨).

﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْقِعَاتِهِمْ فَتَبَطَّلَهُمْ وَرَقِبَ الْمُعِدُّوا مَعَ الْفَاجِعِينَ﴾ (التوبة: ٤٦).

مواجهة النفس والحرب معها، ستحتل من الآيات في سورة التوبة أكثر بكثير من الآيات التي تحدثت عن المواجهة مع المشركين. كما لو أن السورة تقول لنا: إن الحرب الأهم هي الحرب مع الذات، والنصر الحقيقي هو النصر على الذات، والهزيمة الأصعب والأكثر تكبيداً للخسائر هي الخسارة مع الذات، والسلام الذي يتحقق معها هو السلام الحقيقي.

كل مَنْ واجه نفسه يعرف هذا، كل مَنْ حاول التوبة عن معصية ما، إيمان ما، كبيرة ما، يعرف أي حرب فذرة وصعبة هي الحرب مع الذات، ويمكنه أن يقرأ آيات قتال المشركين كما لو كانت تتحدث عن حربه مع

معاصيه وشهواته، وسيجد تشايقها رهيبًا، بل سيجد أن حرب الذات أكثر مخادعة وزئبقية وغدرًا من حرب المشركين.

سورة التوبة عن الحرب فعلاً، لكنها أيضاً عن الحرب والسلام.
الحرب والسلام مع الأعداء.
وأيضاً مع الذات.



وفي سورة التوبة أيضاً تلك الآية التي تنقلنا إلى ذلك الغار.
﴿إِذَا أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ
إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾. (التوبة: ٤٠)

لا يمكن لمسلم إلا أن يرتجف قلبه من المشهد.
لا يمكن لإنسان مرَّ بأزمة - بشدة - واحتاج فيها إلى صديق إلا أن يقول: أعرف هذا، لقد مررت هنا من قبل.
البعض منا وجدوا من يقف معهم في غارهم، آخرون كانوا أقل حظًا،
ربما كنا نحن أحياناً من وقف مع صاحبه، وربما كنا أحياناً من تغلى
وتركه وحيداً في الغار.

رحلة حياتنا ليست عرضاً قريباً، ولا سفرًا قاصداً، وأصدقاء الشدة
قليلون، وإن لم تجد واحداً منهم معك، فهذا أمر محزن، لكن يمكنك أن
تهمسها لنفسك.

لا تحزن، إن الله معنا.

يونس هود يوسف ١٠ - ١١ - ١٢

من البئر إلى العرش

ثلاث سور متتالية في المصحف.

وقد نزلت بنفس هذا الترتيب على الرسول الكريم - عليه الصلاة والسلام - في الفترة المكية.

أمر نادر أن يتوافق ترتيب المصحف مع تسلسل النزول، ولا يمكن أن يكون هذا التوافق اعتباطياً، حاشا لله.

يونس، هود، يوسف، ثلاث سور إذن متتالية، لا بد أن في هذا الترتيب رسالة ما.

مبدئياً. سورة يونس تتحدث عن «الضر» وعن «كشف الضر»، إزالته. الضر عندما يصيب «الأفراد» كما في ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَا خَالِيَهُ أَتَوْا قَاعِدًا أَوْ قَائِلًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّهِ كَذَلِكَ نُرِي الْفَاسِقِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (يونس: ١٢).

أو عندما يصيب المجتمعات: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا بِصُغْبَتِهِمْ مَا تُسْكِرُونَ﴾ (يونس: ٢١).

في السورة نموذجين لضراً أصاب المجتمعات: لأنها كذبت الرسل، قوم نوح وقوم فرعون، والضر الذي أصاب قوم نوح يعرض له بشكل سريع (الآيات ٧١-٧٣).

هذا عن الضر، فماذا عن كشفه بالنسبة للمجتمعات؟

هناك مثال واحد، مثل ومضة أمل مضيئة.

﴿قُلُوبًا كَانَتْ قَرِيَةً آمَنَتْ فَتَنَعَهَا إِسْنَاهَا إِلَّا قَوْمُ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخُرْزِيِّ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَنَمَتْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ (يونس: ٩٨).

إنه الإيمان النافع، الإيمان الذي تنفع القرية، قرية يونس، الإيمان الذي كشف عنها الضر.



سورة هود تأخذ نفس الخط.

ولكن التركيز على الضر فيها أكثر من كشف الضر.

نرى فيها قصص أقوام نالوا العذاب لتكذيبهم رسلهم، نرى مرة أخرى قوم نوح، قوم هود، قوم صالح، قوم لوط، قوم شعيب.

كلها قرى أصابها الدمار.

ليس هذا فقط، لكن السورة تقدم بُعداً شخصياً شديداً الألم لما حدث مع سيدنا نوح: إذ إنها تقدم مشهد غرق ابنه.

﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَاهُ فِي مَوْجٍ جَالِيَالٍ وَنَادَى نُوحُ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَقَرٍّ يَابُتًى اِزْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴿١٠٦﴾ قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَفْعَسُنِي مِنَ الْغَمِّ قَالَ لَا

عَاصِمَ الْيَوْمِ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَجِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٢﴾ (هود: ٤٢)

هنا لم يعد تكذيب «القوم» يخص الآخرين، يخص المجتمع، بل أصبح شخصياً داخل بيت النبي، الأمر دوماً هكذا، لكنه عندما يتجسد في شخص نعبه ونعرفه يكون مؤلماً أكثر.

هنا في هذه السورة خمس إشارات لأقوام قضت بالعذاب، لا إشارة لقوم نجوا كما في سورة يونس، لكن لا ظلم في الأمر.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ (هود: ١١٧)

ليس هذا فقط، بل إن السورة هي السورة الوحيدة التي اشتملت على الدعاء بهلاك القرى الظلمة، ﴿أَلَا بُعْدًا لِعَادِ قَوْمِ هُودٍ﴾ ﴿أَلَا بُعْدًا لِقَوْمِ﴾ ﴿أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِثْتُ نُوحًا﴾، لا يوجد في سور القرآن كلها دعاء يحدد قوماً بعينهم إلا في هذه السورة.

نزلت تلك السورة بعد عشر سنوات تقريباً في مكة، بعد عشر سنوات من الصدود والتكذيب، كل شيء كان يشير إلى أن مكة كانت تسير في درب أمثلة القرى التي سيصيبها الدمار، ولا شيء يشير إلى ما يقربها من قرية يونس.

وكان عليه الصلاة والسلام بالتأكيد لا يريد لمكة أن يصيبها ما أصاب عاد وثمود، لم يكن يريد أن تكون هناك «ألا بعداً لمكة».

ورغم ذلك، كان ذلك وارداً جداً، وقبل نهاية السورة يأتي أمر الانتظار:
﴿وَأَنْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَقِظُونَ﴾.

ينتظرون ماذا؟ العذاب يصيب مكة؟

بدلاً من «ألا بعداً لمكة»، نزلت سورة «يوسف».

سورة مختلفة تماماً، بنسق مختلف، هي السورة الوحيدة التي تُرْوي قصة نبي من بدايتها إلى نهايتها.

وهي سورة بلا عذاب للقوم، بل تنتهي بنجاح «القي» وتحقيقه لغاياته. صحيح أنه يحقق ذلك بعيداً عن قومه أولاً، لكن هذا بعد ذاته قد يشير إلى أهمية «التجربة» في مكان يوفر بيئة حاضنة أفضل.

كما لو أن السورة تقول للنبي: النجاح ممكن، ومكة قد تتغير، لكن ليس بالضرورة يكون التغيير فيها أولاً.

ثمة شيء شخصي في سورة يوسف، شخصي جداً وحميم للغاية. فمن منا لم يتعرض لغدر في حياته من قريب أو ممن توهم قربه؟ من لم يتعرض لظلم؟ لفتنة وغواية؟

ثمة شيء في سورة يوسف يعنينا جميعاً.

صحيح أن الطريق من بئر الغدر لا ينتهي دوماً إلى العرش كما حدث مع سيدنا يوسف.

لكن من المهم ألا نبقى أسرى الشعور بالظلم والتباكي على التجربة.
أول خطوة للخروج من البئر هو أن نخرج من دور الضحية المغنورة.

في البئر ألقوا بك يا يوسف^(١).

كان مظلماً، وكنت وحيداً.

وكانوا إخوتك!

في البئر ألقوا بك يا يوسف.

لعلك توهمها مزحة.

لعلك توقعت أن صمتهم مجرد خدعة.

لعلك قلت: إنهم سيعودون.

وأن حبالهم ستظل بين لحظة وأخرى.

لكن أصواتهم تلاشت يا يوسف.

وحبالهم لم تأت قط.

في الظلمة بقيت وحيداً يا يوسف.

أرادوا أن يكسروك.

أن يجعلوك تضعف.

أن تتوسل.

(١) سبق أن شر هذا الجزء في « لا نأسف على الإزهاج ».

أَنْ تَكْسِرَ وَلَوْ أَمَامَ نَفْسِكَ.

لَوْ يَعْلَمُونَ.

لَوْ يَعْلَمُونَ أَنْ كُلَّ تِلْكَ اللَّيْلَةِ فِي الْبَيْتِ، جَعَلْتُكَ تَكْتَشِفُ قُوَّتَكَ الْحَقِيقِيَّةَ.

مِنْ لَحْظَةِ الْبَيْتِ، أَنْتَ لَمْ تَعُدْ أَنْتَ الَّذِي كُنْتَ.

صِرْتَ شَخْصًا جَدِيدًا، وَكُنْتُ - مَخَاضًا صَعْبًا مَرِيرًا - فِي الْبَيْتِ وَحْدَكَ.

اكتشفت معنى أَنْ يَتَدَفَّقَ النُّورُ مِنْ دَاخِلِكَ، لَا مِنْ فَتْحَةٍ فِي السَّقْفِ.

اكتشفت معنى أَنْ تَجِدَ فِي اللَّهِ أَنْيْسًا وَرَهِيفًا، فَرَادَكَ ذَلِكَ قُوَّةً عَلَى قُوَّةٍ،

وَنُورًا عَلَى نُورٍ.

فِي الْبَيْتِ ااكتشفت قَوَائِكِ الَّتِي لَمْ تَعْرِفْهَا، ااكتشفت أَنَّهُ بِعَيْنِكَ أَنْ تَسْتَفْنِي

عَنْهُمْ، وَأَنَّ الْأَمْرَ لَيْسَ صَعْبًا كَمَا ظَوَّهتْ، ااكتشفت أَنَّ عِلَاقَتَكَ بِهِمْ تَكُونُ

أَغْنِي عِنْدَمَا تَعْرِفُ عَلَى الْاِسْتِغْنَاءِ عَنْهُمْ.

فِي الْبَيْتِ عَرَفْتَ مَعْنَى الْجَمَاعَةِ، أَنْ تَكُونَ عَلَى الْحَقِّ وَلَوْ كُنْتَ وَحْدَكَ.

فِي الْبَيْتِ، عَرَفْتَ مَعْنَى أَنْ تَكْتَشِفَ أَنَّ مَصْدَرَ قُوَّتِكَ يَنْبُعُ مِنَ الدَّخْلِ.

وَأَنْ تَسْتَمِرَّ هَذِهِ الْقُوَّةُ، لَا لِلخُرُوجِ مِنَ الْبَيْتِ فَقَطْ.

بَلْ لِتَغْيِيرِ كُلِّ الْوَاقِعِ الَّذِي جَعَلَ إِخْوَتَكَ يَرْمُونَ بِكَ فِيهِ.

فِي دَاخِلِ كُلِّ مَنْ بَيْتٍ.

وَفِي كُلِّ بَيْتٍ يَوْسُفَ.

وأصوات ثلاثت، وحبال لم تأت.

يمكننا أن نجعل من ذلك مخاضاً، بحيث ستبدو كتوز العالم بأسره
ثمناً بخساً أمامه.

ويمكننا أن نرخص حتى يصير سعرنا الحقيقي دراهم معدودة.

دوماً ثمة يوسف، ثمة يثر.

وثمة إخوة ليوسف.

ولأن هذا اليثر يمكن أن يكون منجماً نستكشف فيه كتوزاً لم نعرف
بوجودها فيها.

فإننا يمكن أن نختار النهاية التي نريد.

سورة الرعد ١٣

التغيير قيد الإجراء

سورة الرعد هي «سورة التغيير».

لكنه التغيير كما يجب أن يكون، وليس كما نتوهمه أن يكون.

لدينا غالباً فكرة ساذجة عن التغيير، فكرة عن كون التغيير يأتي بضرية سحرية تغير الواقع - أو الأشخاص - بلمع البصر، وهذه الفكرة تكون «معوقة» لأي تغيير حقيقي؛ لأنها ببساطة ترفع سقف التوقعات «السريعة» على نحو يجهض آلية التغيير البطيئة لصلائح «عمليات تجعل» سطحية سريعة النتائج كارثية المواقف.

سورة الرعد تزيح هذا الوهم من أذهانتنا. تعلمنا أن نتعامل مع التغيير على حقيقته. بطيء وتراكمي ويستغرق وقتاً طويلاً، لا سحر ولا ضربات عصا ولا معجزات خارقة.

المسورة تنبهنا منذ بدايتها إلى أن هذا الكون مبني على قوانين. السماء مرفوعة بعمد؛ قوانين غير مرئية، وكل تغيير منشود لا بد أن يكون مبنيًا على قوانين من باب أولى.

﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَحَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ بَعْضُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ يَلْقَآءُ

رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿١٠﴾ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا رُزُقَيْنِ أَنْتَنِي يَفِيهِ اللَّيْلُ النَّهَارُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزُرُوعٌ وَخَيْلٌ صُنُوفٌ وَغَيْرُ صُنُوفٍ يُسْعَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفُضْلُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْمِلُونَ ﴿الرعد: ١٠﴾

التغيير هو جوهر السورة، تأخذنا إلى الظواهر الطبيعية في مد الأرض وخصوبة الأرض ونزول الأمطار، وكل ذلك يقود إلى ماذا؟ إلى الثمار. الثمار لا تأتي «بضربة عصا» أو بمعجزة، كذلك التغيير، هو الثمرة المنشودة التي تتطلب كل ما تتطلبه الثمرة من جهد ووقت وتداخل عوامل وظروف.

يضرب الله المثل بالحمل.

﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيصُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِقَدَرٍ﴾ (الرعد: ٨).

وكل حمل يستغرق وقتاً وأطواراً متتالية لهصل إلى نهايته. وكذلك التغيير، لا بد له أن يمر بمراحل تنقله من البذرة إلى الجنين إلى الطفل المكنم، وسيبقى بحاجة إلى الرعاية والحماية حتى بعد ولادته.

﴿لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِنْ بَنِي يَدْيِهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُعَذِّبُوا مَا بِنَفْسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ (الرعد: ١١).

التغيير لا يأتي كهدية من السماء، ولا حتى كلعنة منها، هو يأتي من داخلنا، «ما بأنفسنا»، يمكن أن نفهم ﴿مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ على أنها «الذي بأنفسهم»، أو نفهمها على أنها «يقوموا بالتغيير بأنفسهم»، والأمران متطابقان من عدة جوانب، وحتى «بأنفسهم» يمكن أن تُفهم على أنها «نفوسهم»، «أخلاقهم»، «قيمهم»، ويمكن أيضاً أن تُفهم «وعيهم»، «أفكارهم»، ولا أرى مرة أخرى فارقاً كبيراً بين الأمرين.

المهم أن التغيير لا ينزل بالمظلة من أعلى، بل يشق الأرض كنبته تأخذ وقتها في النمو.

السورة تنبهنا أيضاً إلى أن التغيير لا يشترط أن يكون إيجابياً بالضرورة، ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ﴾، كم من تغيير منشود هللنا له ثم صار يُعدُّ أسوأ ما مر بنا، لكن التغيير حاصل، إن لم نوجهه إلى أن يكون إيجابياً؛ سيكون سلبياً، مجرد البقاء في «نفس الموضع» هو تغيير سلبي؛ لأن الواقع يستمر بالتغير والتحرك، وعدم «تفكيرك» لتواجه هذه التغييرات يعني أنك تتغير سلبياً.

تأخذنا السورة أيضاً إلى صورة شاملة كبيرة للتغيير كما يحدث في الواقع.

﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَهُ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهٗ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ (الرعد: ١٧).

المنشهد يأخذ وقتاً طويلاً، الماء ينزل، الأودية تسيل، الرّيد يطفو، الحق والباطل يتواجهان في المحك الحقيقي: ما ينفع الناس.

وهذا يتطلب وقتاً بالتأكيد: لأن النفع والضرر قد لا يتبين على المدى القصير، الآثار الآجلة هي التي ستحدد ما سيمكث في الأرض وما سيذهب جفاءً.

هل يريدون أن يكون التغيير سريعاً مثل وجبة جاهزة؟

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلُّ نَفْسٍ بِهِ مَأْمُورٌ يُلْهَىٰ إِلَىٰ الْأَمْرِ مَا يَحِيحُ﴾. (الرعد: ٣١)

لكن القرآن لن يفعل ذلك، ليس هذا مطلوباً منه، بل يفعل فعل المطر في الأرض، تغيير حقيقي يأخذ وقته لكي يحدث، وتدخل فيه كل السنن والقوانين والعوامل اللازمة.

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْزِلُ السَّحَابَ الثَّقَالَ ۖ وَسَبِّحْ الرَّعْدَ بِحَمْدِهِ وَاللَّيْلُ لَكُمْ مِنَ الْخَمِيَّةِ وَالرَّيْسُ الضَّوَائِقُ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَلَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْحِسَابِ﴾ (الرعد ١٣: ١٤).

برق ورعد إذن.

البرق يضيء الليلة المظلمة، والرعد صوته مهيب، يهز القلب.

لكن ما يحدث بعدهما هو الذي يحدث التغيير الحقيقي الذي أشارت

له السورة كعثال.

المطر.

الرعد والبرق دون مطر لن يُحدِثا تغييراً في الأرض.

«الصوت والضوء» مجرد إشارة لك لكي تنبهه إلى ما سيحدث لاحقاً

-لو حدث-، المطر، كي تساهم فيه، كي تكون شريكاً.

«ما بأنفسهم».

الرعد والبرق الحقيقي في الداخل.

صوت وضوء في أعماقك.

المهم ألا تكتفي بذلك.

المهم أن تعطر أيضاً.

«ما بأنفسهم».

سورة إبراهيم ١٤

الخروج من الظلمات إلى النور

سورة إبراهيم هي سورة «الخروج من الظلمات إلى النور» أو ربما يمكن تسميتها أيضاً سورة المجتمع المستقر الآمن.

افتتاحية السورة تقول: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ (إبراهيم: ١).

وبعد آيات يأتي ذكر سيدنا موسى.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (إبراهيم: ٥).

إذن قوم موسى كانوا في الظلمات، كيف هي الظلمات تحديدًا؟

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا اللَّهَ عَلَيْهِمْ إِذْ أَخْرَجْتُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُدَّبُّوْنَ أَوْلَادَكُمْ وَيَسْتَخْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكَ لَبَآءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ (إبراهيم: ٦).

إذن الظلمات هي الميش في مجتمع فيه ظلم وقهر واستعباد، مجتمع مستبد بمختلف أنواع الاستبداد وأشكاله، إنها «ظلمات» وليست ظلمة واحدة؛ لأن أشكال الاستبداد والاستعباد تتعدد وتختلف، وقد تكون لها مسميات لطيفة جدًا وواجهات مزينة بشعارات توحى بعكس ذلك.

تلك كانت الظلمات، فأبين النور الذي يفترض أن نخرج إليه عبر الكتاب»

السورة تأخذنا إلى مَنْ سُمِّيت على اسمه، سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام، هناك سنتعرف إلى «المضاد الموضوعي» لمجتمع الظلمات، إلى المجتمع المعاكس، إلى النور.



﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَنَىٰ آمَنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾
(إبراهيم: ٢٥).

﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَمَرِ ذِي رُجْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمَحْرَمِ رَبَّنَا لِتَقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْنِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ (إبراهيم: ٣٧).

هذا الدعاء للبلد «الجديد» أن يكون آمناً، حرّاً بلا قيود (بلا أصنام)، عادلاً مستقراً مزدهراً، هذا هو «النور» في الدنيا، هذا هو «الهدف» الدنيوي الذي يقود بناؤه إلى نور الآخرة.

إبراهيم لم يبين ذلك المجتمع لنفسه، بل كان «مصير ذريته» في نصب عينيه في الدعاء.

﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ﴾، ﴿أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي﴾.

كان يريد لأولاده أن يعيشوا في مجتمع مستقر آمن حر، بكل معاني الاستقرار والأمان والحرية.

بالضبط، كما نريد لأولادنا أن يعيشوا في مجتمع آمن.

وكانت تلك هي اللحظة الأعلى في رحلته عليه السلام، كانت تلك قمته بعد رحلة وعرة.

ربما لذلك أخذت هذه السورة تحديدًا اسمه، توزعت قصته على سور كثيرة في القرآن، وكان له محطات ومواقف مهمة للغاية، لكن هنا وصل للهدف (الديني) على الأقل، هنا تأخذنا السورة إلى نهاية الرحلة؛ لذلك تأخذ اسمه، كما لو أنها تريد أن تربط سيدنا إبراهيم دومًا بنهاية رحلته، بالمجتمع الذي سعى لتحقيقه، المجتمع الذي نريده جميعًا.



أولئك الذين يقررون - في خيار صعب - أن يتركوا أوطانهم نحو بلاد الهجرة واللجوء، كانوا بطريقة ما أيضًا يبحثون عن الخروج من ظلمات مجتمعاتهم إلى نور المجتمعات الأخرى، أو على الأقل إلى مجتمعات أخرى تبدو ظلماتها أقل ظلمة، أو يبدو أن فيها من النور أكثر.

أولئك الذين يتركون كل شيء خلف ظهورهم، كل ما خلفه لهم آبائهم، من أجل مستقبل أفضل لأولادهم.

بعضهم يدفع حياته - حرفيًا - خلال ذلك.

وبعضهم يدفع حياة أولاده، ليس من خلال موتهم المباشر أثناء محاولة الهجرة، بل لاحقًا بموت من نوع آخر، مع استمرار بالتنفس وبقيّة الوظائف الحيوية.

نعم، مجتمعاتنا «ظلمات»، فيها ظلمات كثيرة.

وبعض مَنْ «يدّعي التمسك بالكتاب» يزيد ظُلمة هذه المجتمعات بظلمة
 إضافية منسوبة هذه المرة إلى القرآن الذي يُفترض أن يأخذنا إلى النور.
 كل مَنْ يفكر في الخروج من الظلمات محقّ، لا يمكن لومه ولا قتلًا.
 المهم أن يتحرى النور في المكان الذي يتوجه له.
 أو على الأقل يسعى لتأسيسه.

سورة الحجر ١٥

الصورة الكاملة

سورة الحجر هي سورة «الصورة الكاملة»، هي السورة التي تعلمنا كيف ننظر إلى كل شيء بشمولية وبتكامل، دون أن نجتزئ، دون أن ننظر إلى بعض الأجزاء بعدسة مكبرة ونتجاهل أخرى تمامًا أو نقض عنها النظر. تقول لنا السورة منذ مطلعها شيئًا غير متوقع.

﴿رَبَّنَا يُودُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ (الحجر: ٢).

كيف؟ كيف يودون ذلك وهم على ما هم عليه من كفر وصدود؟

سنعرف الجواب لاحقًا عبر السورة، وسندرك أن جزءًا كبيرًا من الرهض والصدود الذي يمكن أن يحدث للإيمان (أو لأي فكرة) إنما يعود إلى النظر عبر نصف عين، النظر إلى جزء من الصورة، لكن لو أتتحت لهم أن يروا الصورة كاملة، الصورة بكل تفاصيلها وأجزائها، فإن موقفهم هذا قد يتغير، و﴿رَبَّنَا يُودُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ (الحجر: ٢).

﴿وَالْأَرْضُ مَدَدًا نَّهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ ﴿١﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَاشٍ وَمَنْ لَكُمْ لَهُ بَرَازِقِينَ ﴿٢﴾ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴿٣﴾ وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَافِجَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَا كُنُوهَ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ (الحجر: ٢٠-٢٢)

في سبيل ذلك تأخذنا السورة أولاً إلى جولة شاملة في الكون: السماء والأرض وظواهر الطبيعة من رياح وأعطار، فهم التراطيب الموجود بين كل عنصر من عناصر الصورة مهم في تكوين حاسة «الصورة الكاملة».

﴿قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَنْجِدَ بَنِيَّ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴿٣٨﴾ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٤١﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٤٢﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٤٣﴾ قَالَ رَبِّ بِنَا أَعُوذُ بِكَ لَأَرْيَتَّنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَا أَغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٤﴾﴾ (الحجر ٣٣: ٣٩).

بعدها تأخذنا إلى أصل الحكاية، إلى قسم إبليس، إبليس رفض أن يسجد لآدم لأنه نظر إلى جزء من الصورة، إلى خلق آدم من صلصال، ولم ينظر إلى ما أودعه الله فيه من إمكانيات؛ لذا فقد رفض الأمر بالسجود ولم ينظر إلى أن هذا الأمر ما كان يمكن أن يكون من دون حكمة له عز وجل.

﴿تَبٰىءُ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٥﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٤٦﴾﴾ (الحجر ٤٩: ٥٠).

الكثيرون يتعاملون مع الله وصفاته بتجزئة، غالباً كما يريدون أو يتبنون، يركزون على صفة واحدة ويتركون أخرى، هو غفور رحيم بالفعل، لكن أيضاً عذابه هو العذاب الأليم، البعض يركز على العذاب ويستخدمه في الدعوة لله وينسى الغفور الرحيم، كما ينسى بعض آخر صفات المغفرة والرحمة.

﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ﴾ ﴿قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَالِيمٍ﴾ ﴿قَالَ أَنْبَشِّرُنِي عَلَىٰ أَنْ مَسِّيَ الْكَثِيرَ فِيمَ تُبَشِّرُونَ﴾ ﴿قَالُوا بَشِّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمَقَابِطِينَ﴾ ﴿قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُجْرِمِينَ﴾
(الحجر ٥٤: ٥٨).

تتجاور الرحمة والعذاب أيضًا في القصة التي ستأخذنا إليها السورة. قصة ضيف إبراهيم المكرميين، حملوا له المبشرى بالفلام، وأيضًا حملوا له نبأ العذاب النازل بقوم لوط، حتى مع قوم لوط كانت هناك فرصة لتحقيق الرحمة لولا إصرارهم على فحشهم العتبي، وحتى مع امرأة لوط كانت هناك فرصة للرحمة، لكنها خالفت الأمر الإلهي بعدم الالتفات بعد أن تركوا القرية التي سينزل بها العذاب.

﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الشَّيْءُ﴾ ﴿كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُتَعَسِّبِينَ﴾ ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ (الحجر ٨٩: ٩١).

تحذر السورة في أواخرها من التعامل «التجزئي» مع القرآن، ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾، وعضين تعني أنهم جعلوه أعضاء، أجزاء، أمثوا ببعض وكفروا ببعض، إنما هو جملة واحدة لا يمكن تجزئتها عن سياقها وعن تمامها، كلما تمسكت بالصورة الكاملة، بالفهم الكامل، كلما ابتعدت عن أخذ القرآن كعضين، وما أكثر من يفعل ذلك اليوم من كل الاتجاهات بالضبط، مثل «الفقور الرحيم، وعذابي هو العذاب الأليم»، وبالضبط مثل التركيز على الصلصال وتجاهل نفخة الروح.

﴿رَبَّنَا يَوِّدُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ في عصرنا اليوم، من النادر جداً أن يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين، ليس بالضرورة لأنهم عجزوا عن رؤية الصورة الكاملة بل لأننا نحن قدمنا صورة سيئة للإسلام، قدمنا انعكاساً بالغ السوء لأغلب قيم الإسلام، بدلاً من أن نكون مركزاً للجذب يجعلهم يتحرون الصورة الكاملة؛ أصبحنا مركز طرد، يجعلهم يتصورون أن الصورة الكاملة سيئة جداً.

إلا من رحم ربي منا ومنهم.



﴿فَأَسْرِ بِأَعْيُنِكَ بِمِيقَاتِهِ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ (الحجر: ٦٥)
﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾.

كانت تلك هي الوصية لآل لوط، عندما غادروا قريتهم.

كم نحتاج إلى ذلك كأشخاص وأحياناً كمجتمعات، نحتاج ألا نلتفت إلى الوراء أحياناً، أن نقلب الصفحة، أن نبدأ من جديد دون أن نبقى أسرى لما يشدنا إلى الخلف.

نحتاج أن نتعلم ذلك، أن نتخلص من التفاتنا المزمّن لأشخاص أو أماكن أو تجارب تركت جروحاً غائرة فينا.

نحتاج أن نسير إلى الصبح، دون أن نلتفت إلى الليل.

سورة النحل ١٦

عن قواعد متعددة وسقف واحد

سورة النحل هي سورة القواعد والسقف.

والقواعد هنا هي مجموعة من القوانين اللازمة لتماسك البنيان وثباته، عدم الالتزام بها يقود إلى أن يخر السقف كنتيجة حتمية منطقية.

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسَبُّونَ ﴿١﴾ يُنبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ النَّخْلَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّلَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالشُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿٤﴾ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ جَلِيَّةً تَلْبَسُوهَا فَمِنْ قَرَى الْفُلْكِ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِكَبْتُهَا مِنْ قَضِيهِ وَلَعَلَّكُمْ تُشْكُرُونَ﴾ (النحل: ١-١٤).

السورة تأخذنا أولاً في قواعد بنى الله على أساسها بنيان الكون والخلق، كل نعم الله هي نعم موظفة من خلال قوانين أوجدها عز وجل لتيسر للإنسان حياته، تأخذنا السورة إلى الأنعام ومنافعها ومسائل الركوب الأخرى المعروفة آنذاك، وتفتح الباب لما لم يُعرف آنذاك، ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، وتأخذنا السورة إلى الماء النازل من السماء والشجر والنخيل

والأغصاب والثمار والبنور والشمس والقمر والليل والنهار والنجوم والبحر والفلك والنحل، وأيضاً القائمة مفتوحة إلى ما لا نهاية حرفياً، ﴿وَإِنْ تُعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصَوْهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (النحل: ١٨).

كل هذه النعم تسير حسب القواعد التي قام عليها بنيان الكون الذي نعيش فيه، قواعد وضعها الله في خلقه، يمكن أن نسميها أيضاً سنن وقوانين، لكنها قواعد أيضاً تقيم البنين، وما دامت القواعد سليمة وغير منتهكة، فالسقف قائم في موضعه يؤدي وظيفته.

﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَنَّ اللَّهَ بَنِيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوَقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ خِيْتٍ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (النحل: ٢٦).

كيف يمكن أن يكون هناك مكر في هذا؟

المكر هو أن تعيش في كون بُني على هذه القواعد، وتستثمرها لمنفعتك، ثم تعتقد بعدها أنك خارج القوانين، تعتقد أن كل ما حولك قائم على الخضوع لقوانين معينة لم تشارك في صنعها ولا قليلاً (تستثمر فيها لصالحك)، ولكن يصل الأمر إليك فتعتقد أنك خارج اللعبة وقواعدها وقوانينها، هذا مكر حري.

وهو ينتهي دوماً نهايات سيئة: لأن الإنسان - هرذاً ومجتمعاً - يحتاج إلى قوانين تنظم حياته، فإن لم يكن، فالسقف سيختر أجلاً أو عاجلاً، بشكل أو بآخر، القواعد مضرورية، والبنين سيكون آيلاً للسقوط، مسألة وقت.

الأمر بالضبط مثل أن نستخدم نظاماً برمجياً معيناً في مهمة محددة، ثم قبل أن نهيها، تبدل النظام بنظام آخر مختلف تماماً، والنتيجة: بنهار كل شيء.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَقُصُّتْ عَنْ لَهِيّ عَزَلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا﴾ (النحل: ١٢).

بالضبط هكذا.

كل هذا الكون - من الشمس إلى النحلة وكل ما بينهما - قائم على قوانين وقواعد، أي منطق يجعل الإنسان لا يخضع لنفس مصدر القوانين والقواعد؟

أي منطق يجعل الإنسان منفردًا بلا وظيفة كما لكل شيء وظيفة؟
 ﴿صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبِيدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ﴾ (النحل: ٧٥).
 ﴿وَصَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ، هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (النحل: ٧٦).

السورة كلها لم تأت على ذكر اسم نبي إلا إشارة واحدة لم سيدنا إبراهيم عليه السلام، فقط، سيدنا إبراهيم.

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (النحل: ١٢٠).

ليس صدفة، سيدنا إبراهيم هو الذي رفع القواعد، كما في سورة البقرة.

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (النحل: ١٢٧).

وهذه هي سورة القواعد والسقف.

أين نحن من كل هذا من القواعد والسقف؟

أغلينا أضاع فهم القواعد . وفهم آليات البناء ، أغلينا حاول استيراد قواعد أخرى دون نجاح كبير .

نحن في خيمة كهفيم النازحين ، لم نعد في البتيان الذي كان يفترض أن نكون فيه ، ولم نجد من يقبل بنا بعد .

جزء كبير من هذا الذي نحن فيه كان يعود لسوء فهم لدينا ، ولكتاب الذي يفترض أن يساعدنا على البناء .

﴿إِنِّي أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ .

وكل آت قريب .

سورة الإسراء ١٧

مسؤوليتك الشخصية جدًا

سورة الإسراء هي سورة «المسؤولية الشخصية».

قد يبدو ذلك غريباً بالنسبة لعنوانها وما يرتبط به في أذهاننا من تقاصيل رحلته عليه الصلاة والسلام في الإسراء والمعراج.

لكن سورة الإسراء ابتدأت بالإشارة إلى رحلة الإسراء في آيتها الأولى، ثم أُسْرَتْ بنا إلى موضوعات أخرى، أو هكذا قد يبدو الأمر، على الأقل للوهلة الأولى.

لكن نفحصاً أعمق للسورة سيعود بنا - لاحقاً - إلى الإسراء، بحيث يرتبط كل ما فيها بعنوانها من جديد.

سورة الإسراء هي - برأيي - سورة المسؤولية الشخصية كما قلت، الكثير من آياتها تشير إلى ذلك بكتافة. لا أعتقد أن هناك سورة أخرى تضاهيها. بالتأكيد المسؤولية الشخصية أشير لها في سور عديدة، لكن سورة الإسراء تركز على ذلك على نحو يجعلك في مواجهة مباشرة مع الأمر.

فلنر مثلاً:

﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عَقْبِهِ وَنُخْرِجُهُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مِنْشُورًا ﴿١٦﴾ أَفَرَأَى كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٧﴾ مَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٨﴾ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴿١٩﴾﴾ (الإسراء ١٦: ١٩).

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِئِنْ تُرِيدَ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاَهَا مَدْمُومًا مَدْحُورًا ﴿١٧﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَوَّيْنَا لَهَا صَفِيهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴿١٨﴾﴾ (الإسراء ١٨: ١٩).

﴿وَإِذَا أَنْفَعْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَتَأَيَّ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَكُفِّرًا ﴿١٩﴾ قُلْ كُلُّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكْلِهِ فَرُوحَكُمْ أَعْلَمُ بِشَيْءٍ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٢٠﴾﴾ (الإسراء ٨٣: ٨٤).

كل هذا في الإسراء ١٤

إنها رحلة «ليبية» في ظلمة النفس ومجاهلتها ومحاولاتها التهرب من المواجهة. الإسراء تقول لك أن تواجه نفسك وتحمل مسؤوليتك، طائرك في عنقك وكتابك بيدك، أنت وحدك مسؤول عن الذي تفعله، تهزنا الآيات كما قد تفعل مع شخص ضعيف وخائف ومتذمر طيلة الوقت، نقول له: ألم لم نفسك واستر جلي. كذلك نقول لنا الآيات، تحمل مسؤوليتك.

وليس بعيداً عن هذا، بل في العمق منه، وجود النسخة الإسلامية المحدثه من الوصايا العشر التي سبق وأن أنزلها الله على قوم موسى، النسخة الإسلامية في الآيات (من ٢٢ إلى ٢٨) تتجاوز الوصايا التوراتية المعروفة وتضيف عليها المزيد؛ عدم البخل وعدم التبذير بل التوسط في

الأمر، عدم اتباع أمر ما دون علم والتواضع، كما تسقط من هذه النسخة الخاتمة وصية تهديس يوم السبت.

هذه الوصايا هي أولاً توحيد الله وعدم عبادة سواه، بر الوالدين، الصدقات، الإنفاق السليم والتوسط بين البخل والتبذير، التبعد عن الزنا. حماية الأرواح البريئة، المحافظة على أموال اليتامى، الوفاء بالعهود، والعدل في الميزان وعدم النش، التحقق من كل شيء قبل اتباعه، التواضع. وكل هذه الوصايا هي في النهاية «مسؤولية شخصية»، صحيح أن بعضاً منها يخص «أشخاصاً» آخرين بحيث تنظم علاقتك بهم، لكن في النهاية هذه وصايا شخصية، مسؤولية شخصية، السورة تسري بك إلى دورك الذي تحاول أن تبقى في الظلعة، تضعك بمواجهة عواقب هذا اللقاء، وقرارك تجاهه.

تتمس سورة الإسراء في أذنيك بشيء عن القرآن، تقول لك: «إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّذِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُنَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا» (الإسراء: ٩).

القرآن يهديك الطريق إلى الأقوم.

عليك أنت أن تسير في هذا الطريق.

تسمى أيضاً السورة سورة بني إسرائيل، إذ بعد مطلع السورة تأخذنا فوراً إليهم. بالضبط إلى موقع من قصتهم لم يتكرر في أي سورة أخرى، قصة تعرضهم للهلاك والدمار على أيدي أقوام آخرين مرتين.

﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوتًا كَبِيرًا﴾ (الإسراء: ١٠).

نتعامل مع هذه الآيات أحياناً كما لو كانت تحمل نبوءة سرية بزوال دولة إسرائيل، والحقيقة أن كل ما ذُكر من قصص لبني إسرائيل في القرآن كان الهدف منه أن نتعظ نحن وألا نمر بنفس الأخطاء التي وقعوا فيها.

ولقد فعلنا بالضبط، بحيث إن هذه الآيات الآن تكاد تطبق علينا، وتتكرر علينا.

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُذْتُمْ عُنَدَنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ (الإسراء: ٨).

﴿وَإِنْ عُذْتُمْ عُنَدَنَا﴾، سنن لا تجامل أحداً.

ثمة آيات شخصية جداً في سورة الإسراء، شخصية تخاطب الرسول الكريم - عليه الصلاة والسلام -، وتجعلنا حاضرين في هذا الخطاب.

﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُوكَ عَنِ الَّذِي أُوْحِيَٰ إِلَيْكَ لِتُفْتَرِي عَٰلِيْنَا غَيْرُهُ وَإِذَا لَا تُخَذَّلُوكَ خَبِيلًا﴾ ﴿وَلَوْلَا أَنْ تَبَيَّنَّاكَ لَقَدْ كُنْتَ تَرْكَبُ إِنَّهُمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ (الإسراء: ٧٢: ٧٤).

وهذا يأخذنا مرة أخرى إلى الآية الأولى: الإسراء، نعرف أنه عاد عليه الصلاة والسلام مهموماً من أن الناس لن يصدقوا ما سيقوله لهم، ثبت ذلك بالصعاح، وتأتي هذه الآيات كما لو تلقى الضوء على هذه الفترة أو ما يشابهها، نحن هنا نرى ما يدور في نفسه عليه الصلاة والسلام.

ثاني الآيات لتعطيه الحل، وتعطينا أيضاً في كل موقف مشابه نحتاج فيه إلى التثبيت.

﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِكَ الْمُنِيرِ إِلَى عَمَقِ الدَّلِيلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ۝ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْسُودًا﴾ (الإسراء: ٧٨-٧٩).

ونحن نعلم أن الصلاة قُرِضَتْ في رحلة المعراج^(١)، هنا نعرف أي توقيت مناسب جاء هذا الفرض، ليكون العلاج والدواء لهذا الموقف، ولكل المواقف التي يكون فيها صدقك بمواجهة الآخرين.

﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾ (الإسراء: ٨٠).

شخصي جداً، لا أحد يعرف صدقك إلا أنت وربك.

تسري بك سورة الإسراء إلى الطائر الذي في عنقك.

تقول لك: خَلَقَ به، وأنت مَنْ يعدد أين يحط.

سورة الكهف ١٨

أطوار الاستحالة ليست مستحيلة.

سورة الكهف هي سورة «أطوار الاستحالة».

تتفلك من طُورٍ إلى آخر، أربعة أطوار تتمثل في قصص سورة الكهف الرئيسية: هتية الكهف، صاحب الجنتين، موسى والعبد الصالح، وذو القرنين.

كل من هذه الأطوار تمثل مرحلة من مراحل النمو والقوة.

تقريباً كل شيء في العالم يمر بهذه الأطوار.

كل نجاح، بمختلف أنواع النجاح ومعانيه! الفردية والاجتماعية، تمر أولاً بمرحلة كمون، مرحلة يكون الأمر فيه مجرد فكرة. فكرة جديدة خارج سياقات المؤلف والمعتاد، غالباً مستهجنة ومحاربة أو في أحسن الأحوال متجاهلة من الجميع.

﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رِزْقًا وَهَبْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۝ فَحَضَرْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَّةً ۝﴾ (الكهف ١٠: ١٦).

تلك المرحلة هي الكهف، الكهف الذي أوى له الفتية وهم يحملون إيمانهم بالله، والكهف الذي يحتوي أي فكرة في بدايتها، فكرة علمية، أو فكرة لشروع، أي فكرة تحتاج إلى «حاضنة» عندما تكون لا تزال بذرة، تحتاج أن تُحمى من أي تأثير، أن يحتضنها صاحبها بعيداً عن كل شيء، أن يفرد بها لكي يستطيع أن يجعلها مميزة.

الكهف هنا مثل الحاضنة؛ الرحم والفكرة، البذرة هنا مثل الجنين الذي لا بد أن ينمو داخل الرحم بعيداً عن العالم الخارجي.

﴿وَأَضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أُعْتَابٍ وَحَفَّتَا هُمَا بِتِخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زُرْعًا ﴿٣٥﴾ كُنَّا الْجَنَّتَيْنِ آدَتٍ أُكْلَهُمَا وَلَمْ نَفْطَلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا ﴿٣٦﴾ وَكَانَ لَهُ نِسْرٌ قَمَالٌ إِصْرَاجِيهِ وَهُوَ يَجَازِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٧﴾﴾ (الكهف: ٣٥-٣٦).

مرحلة صاحب الجنين هي أولى مراحل الخروج من الكهف، النزول إلى الواقع، في القصة يحاور المؤمن «صاحبه» الكاخر ويحاول تغيير فكرته. الفكرة إذن أصبحت مؤهلة لكي تواجه الفكرة المقابلة وتناقشها، خرجنا من الحاضنة إلى التصادم والتفاعل مع الأفكار الأخرى. تفاعل يمكن أن يكون مثل اللقاح الذي يزود الفكرة الأصلية بمناعتها عبر تكوين مضادات لا بد منها.

كل فكرة تحتاج هذا الجدل، هذا التفاعل، لا يمكن لها أن تنزل إلى التطبيق قبل أن تمر بهذه المرحلة! مرحلة صاحب الجنين.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾﴾ (الكهف: ٦٠).

مرحلة موسى والاعبد الصالح هي مرحلة التطبيق، مرحلة النزول إلى الأمر الواقع، مرحلة المرونة في الفهم والابتعاد عن الألواح الحجرية. كل فكرة عندما تكون مجرد فكرة تحتوي على نوع من المثالية التي ستضطرم حتماً بالواقع ولن نجد لها مكاناً في التطبيق، بدلاً من ترك الفكرة كلها

وبدلاً من تحطمها على صخرة الواقع، لا بد من نوع من المرونة، لا بد من تحديث مناسب للواقع ومعطياته التي كانت غائبة في مرحلة «الكهف».

الأمر هذا يحدث مع كل فكرة وكل مشروع، مهما كانت طبيعته، بل حتى مع العلاقات الشخصية، الفكرة المسبقة قبل الدخول في «مترك الحياة» تكون «نظرية» و«ملئمة بالتوقعات العالية» لكن لاحقاً تحدث «تعديلات» تناسب الواقع. دون أن تلغي الفكرة الأصلية تماماً.

﴿وَنَسِئَلُكَ عَن ذِي الْقُرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ۖ إِنَّمَا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ۚ فَاتَّبِعْ سَبِيلَ﴾ (الكهف: ٨٣: ٨٥).

مرحلة ذي القرنين هي مرحلة النجاح، ذروة المشروع أو الفكرة، المرحلة النهائية، الهدف لكل ما سبق. في القصة يبدو «اتباع الأسباب» واضحاً كركيزة لهذا النجاح، لكن الحقيقة أن هذا النجاح كان النتيجة لكل ما سبق من مراحل.

ليس هذا فقط، ففي كل مرحلة من هذه المراحل، هناك أيضاً في داخلها كهف صغير، كهف تمسحب إليه لتراجع وتعيد النظر وتعيد التقييم، كهف تغتلي فيه مع نفسك ومع فكرتك، وهناك في كل مرحلة ذلك النقاش مع الفكرة المضادة، وفي كل مرحلة أيضاً هناك ذلك التفاعل مع الواقع ومتطلباته.

كل المراحل موجودة في كل طور من الأطوار، المهم أن تكون واعياً بأهمية ووظيفة كل طور.

لو تأملتُ في حياتك لربما وجدت بعض هذه الأطوار، ربما كنت لا تزال تمر بها، ربما كنت في الكهف، وربما كنت لا تعرف أن عليك الخروج منه، ربما وجدت نفسك خارج الكهف قبل الأوان، ودققتُ ثمنًا باهظًا لذلك، ربما علقْتُ في الكهف؛ لأن الخارجَ بِذَا لك مخيفًا جدًا.

ربما تجد في الكهف البراءة والتقاء الأول الذي كان ذات يوم، وربما تجد في صاحب الجنين أول مرة تعرضت فيها على أفكار أخرى مختلفة عما تعتقه، ربما تجد صدمتك الأولى والثانية والثالثة في قصة موسى والعبد الصالح، ربما ستجد فيها كل ما كرهته في حياتك عندما حدث، واعتبرته أسوأ ما حدث لك، ثم تمر الأيام، فإذا بك تكشف أنها كانت أفضل ما حدث لك.

هل ستجد مرحلة ذي القرنين أيضًا في حياتك؟ إن كنت ستجد، فعافظ عليها بكهف بين حين وآخر. تراجع فيه كل ما حدث.



نعتبر «أهل الكهف» مثالاً على النوم الطويل، وفي الحقيقة أنهم كانوا قد سبقوا عصرهم.

يمكنك أن تعد الكهف مكانًا للنوم فعليًا، وتمضي حياتك فيه.

لكن يمكن لهذا الكهف أن يكون منجمًا أيضًا.

يمكن لكهفك أن يُخرجَ منك أفضل ما فيك^(١).

(١) للمزيد عن سورة الكهف: البوصلة القرآنية للمؤلف.

سورة مريم ١٩ عن المرأة الخارقة

مريم، يا مريم...

كيف مررت بكل هذا؟

كيف احتملت؟ كيف تعاسكت؟ كيف صمد صمودك؟

كيف استطعت أن تقعلي ذلك منذ أن عرفت حتى النهاية؟

من أي شيء أنت يا مريم؟ بأي شيء عَجَنَ طينك الأرضي حتى أصبحت
بهذه القوة؟

يا مريم، لا يستطيع رجل أن يفهم هذا، لا يستطيع أن يتصوره.

لكن المرأة تستطيع، المرأة تستطيع أن تفهم ذلك.

وتشعر بك يا مريم.

سورة مريم هي عن «المرأة الخارقة»، لكنها ليست خارقة بالمعنى
الهلويودي للكلمة. إنها عن المرأة الخارقة التي يمكن أن نراها كل يوم.
ويمكن نتعامل معها كل يوم، بل ربما عشنا معها طيلة حياتنا.

لماذا هي خارقة ما دامت منشورة هكذا؟ ببساطة لأن الرجال لا يستطيعون تحمّل ما تتحمّله المرأة، الخارقة؛ لذلك عندما يفكرون ويقيّمون ما تفعله؛ يكتشفون أنها خارقة «بالنسبة لهم»، رغم أن مفاهيم القوة احتكّرت للرجل لفترة طويلة، إلا أن هناك نوعاً من القوة لا يطيقها الرجل، ليست ضمن مجال احتكاره، بل هي محتكرة للمرأة، هذا النوع من القوة التي جعلتها مؤهلة لتحمل آلام الولادة، هذا الجَلْد والصبر الذي يجعلها قادرة على تحمل أعباء العناية بطفلها، وأحياناً بعدة أطفال، بالإضافة إلى أكبرهم وربما أصغبرهم: زوجها.

وهذا كله بالإضافة إلى البيت ومتطلباته، وربما وظيفة لا تقل إرهاقاً عن وظيفة زوجها، تركّض هذه المرأة بين عدة جبهات وتتنصر فيها جميعاً، وقد تكون مريضة أو نَفْسَاء أو مرضع أُنثى ذلك، ولكن كل شيء يسير غالباً حسب المعتاد، دون أن ينتبه أحد أصلاً لها، بينما قد يدخل المنزل في حالة طوارئ إذا أصيب الرجل بالزكام.

لا أقول: إن السيدة مريم كانت خارقة بهذا المعنى، لا، هي أعلى بكثير من هذا الخارق «الموجود»، لكن من هذا الباب دلّقت مريم إلى أمّها، وأيضاً إلى مجدها.

مريم اختزنّت كل آلام نساء العالم، وكل صبرهنّ وجلدهنّ، هي ممثلة عنهنّ جميعاً، تنوب عتهنّ وقد تقطرت كل تجاربهنّ ومعاناتهنّ عبرها. منذ أن ولّدت مريم وهي منذورة لكي تثبت أن المرأة يمكنها أن تقوم مقام الرجل، كما جاء في سورة آل عمران:

﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ (آل عمران: ٣٥).

أمها كانت تريد ذكراً تهبه لله حسب التشريع اليهودي، لكن مريم أنثى، ومن تلك اللحظة كان على مريم أن تثبت ما على ملايين، مئات الملايين من النساء، أن يُثَبِّتَنَّهُ. ليست الأنثى أقل من الذكر، هي ليست كالذكر، لكنها ليست أقل منه، ويمكنها أن تقوم بالكثير مما يمكنه هو أن يقوم به، كما يمكنها أن تقوم هي بما لا يمكنه هو أن يفعله.

هذا التحدي يواجه الكثير من الإناث على نحو يجعل حياتهن بأسرها مبرعمة على أساسه، قصة يبدو أنها لن تنتهي منذ فجر التاريخ. تدخل المرأة في دور المرأة الخارقة التي تحارب وتتصبر على كل الجبهات.

كانت لا تزال جنيناً في بطن أمها يوم بدأ التحدي، لم يكن من المعتاد تقديم الإناث للخدمة الدينية، وكان الفرض في الشريعة عندهم تقديم الطفل الأول إذا كان ذكراً وليس أنثى، ولكن أمها كانت نذرتُها وأَوْفَتْ بالندرة. وكان على مريم أن تقوم مقام الذكر، وأُثَبِّتَ في ذلك بلاءٌ خارقاً، بل أكثر من ذلك، قامت بدورها ما كان يمكن لذكر أن يفعله.

قد يتخيل الرجال ما مرت به السيدة مريم، لكنني أعتقد أن خيالنا يبقى قاصراً مقابل ما يمكن أن تفهمه المرأة من ذلك، أن تكون شريفة لم يمسهما بشر في بيئة شديدة التدين والمحافظة، ثم أن تُبَلِّغَ بالخبر الصاعق: حُبلى.

الخوف، العار، القيل والقال، الفضيحة، التكذيب، العار، العار.

كل هذا وأوجاع الحمل التقليدية أيضًا.

وهي بمفردها.

نستطيع كرجال أن نتخيل، لكني أعتقد أن الصورة في أذهان النساء ستكون أوضح وأدق.

﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ (مريم: ٢٣).

تخيلوا المخاض وهي وحدها، تذكروا كيف تكون الاستعدادات اليوم، ثم تخيلوا الأمر، وحدها، في العراء، وطفل أول، دون تجربة سابقة تسهل عليها أنها بمفردها، نعم، لا بد أن ذلك قد حدث قبل وبعد، نسوة اضطررن أن يلدن في الخفاء وبمفردهن، لكنه يبقى أمرًا صعبًا شديد الصعوبة.

وكان مخاضها مؤلماً، أجاءها من ألمه إلى جذع النخلة، اضطرها إلى أن تلوذ بجذع النخلة، تتمسك به لعل ذلك يخفف ألمها.

وهناك تساقط عليها ﴿رُكْبًا جَنِينًا﴾.

وعندما عادت إلى قومها كانوا يظنون أنها جاءت تحمل عارها.

بينما كانت في الواقع، تحمل مجدها، كلمة الله.

﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ (مريم: ٣٤).

لا يمكن أن أسمع تلك الآيات التي تقص قصة مريم وحملها دون أن يتسلل إلى خيالي صوت جعفر بن أبي طالب وهو يقرأها أمام النجاشي، يوم هاجر المسلمون إلى الحبشة فرارًا من أذى قريش، وأرسلت قريش خلفهم من يطلب من النجاشي تسليمهم.

أتخيل صوته الذي لم أسمعه من قبل وهو يقرأ الآيات.^(١)

تخلوه، تخلوا الكلمات تخرج من جعفر، ويغم الصوت مفسحًا المجال لذلك النور المتدفق حزنًا ورقّة، تخلوها وهي تتجول في القصر والملك وحوله حاشيته.

﴿وَإِذْ كُنَّا فِي الْكِتَابِ مِرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ۖ فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ۖ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ نَقِيًّا ۖ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ۖ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ۖ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّئٌ وَلَنَجْعَلَ لَآيَةً لِلنَّاسِ وَزَخْنَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا ۖ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ۖ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنِيًّا ۖ فَجَاءَهَا مِنْ عُثْيَيْهَا أَلَّا تُحْزِنِي فَذْ جَعَلَ رَبُّكِ نُحْنَكِ سَرِيًّا ۖ﴾ (مريم ١٦-٢٤).

وضعتهم الآيات في قلب أزمة مريم، الأزمة التي جعلتها تتمنى لو أنها ماتت ونُسيت تمامًا، «لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنِيًّا». امرأة في أزمة، وحيدة، على وشك أن تواجه اتهامات العار والفضيحة من قومها.

(١) هفتيس من كتاب السيرة مستمرة.

كم تشبه أولئك الغرباء المهاجرين الذين كان قومهم يريدون أن يرجعهم غصباً وقهراً لينالوا منهم سوء العذاب.

لا بد أنهم سمعوا الآيات كما لو كانت تنزل لتتو. كما لو أنهم يسمعونها أول مرة.

كانوا بضمة وثمانين رجلاً وزوجاتهم.

كلهم أحسوا أنهم مريم.

ونحن أيضاً، البعض منا على الأقل، أجهنا مخاضنا إلى جذوع نخل، لا، لم تكن جذوع نخل بالضبط، كانت قوارب هجرة، أحياناً كانت مجرد قشة، وتعلقنا بها تعلق الفريق.

لكن مخاضنا لم ينته عند النخلة، ولا برطب جنى.

لم ينته بعد.

لا يمكن لقارئ سورة مريم أن يقل عن تكرار ذكر لفظ «الرحمن» فيها، ١١ مرة ذكرت الكلمة في سورة مريم عدا البسملة، لا يوجد أي سورة أخرى في القرآن تقرب من ذلك، وأقرب شيء إلى ذلك هي سور الأنبياء ويس والملك، وكل منها ذكرت الكلمة فيها ٤ مرات.

صدفة؟ حاشا لله.

لعله عز وجل هنا يشير لنا إلى معاني الرحمة التي تشير إليها لفظة الرحمن، فيربطنا بمريم، بالأم. بالمرأة الخارقة. هل هناك أكثر رحمة من الأم بين البشر؟ أليس معنى الرحمة قد جاء من «الرحم» أم العكس؟ لا فرق، لكن رحمة الأمهات أمر لا خلاف عليه، حتى في قسوتهن أحياناً، ثمة رحمة تكون من أجل مصلحة أبنائهن وبناتهن.

كما لو أنه عز وجل قد شاء أن يقرّبنا من معنى «الرحمن» عبر أوسع وأقرب ما نعرفه من معاني الرحمة.

في نفس السورة، على بُعد آيات من قصة مريم، يأتينا مشهد لسيدنا إبراهيم في مواجهة مع أبيه، ﴿قَالَ أَزَاغِبُ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ (مريم: ٦٤).

الأمهات عادة لا يفعلن ذلك، رحمتهن تمنعهن من قول ذلك مهما كان موقفهن، لديهن أساليب «مضادة» أخرى طبعاً، لكن هذا النقط نادر عند النساء.

وفي نهاية السورة تقريباً.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ (مريم: ٩٦).

الود؟

كم هو مناسب هذا لجو السورة ولريم عليها السلام!

تختصر كل النساء وتمثلهن أيضاً.

السيدة العذراء، رمز النقاء والرحمة والأمومة.

مريم.

مريممتنا جميعاً.

سورة طه ٢٠

لن أعيش دور الضحية

﴿طه﴾ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿طه ١﴾.

لكن هذا العالم مليء بالشقاء والتعاسة يا رب.

ماذا عنه؟ كيف نتعامل معه؟

الشقاء موجود في هذا العالم كجزء منه، هو موجود قبل أن ينزل القرآن ويعد أن تنزل، وفي الغالب سيبقى كذلك إلى أن تقوم القيامة.

الشقاء والسعادة والمرض والصحة والجهل والمعرفة والكفر والإيمان والحب والبغض، كل شيء وضده موجود، كل شيء موجود في هذا العالم، كلها تشكل هذا العالم كما نعرفه، ربما النسب ليست متساوية، ربما الشقاء أوضح في الكثير من الأحيان، هذه هي الحياة للأسف.

لكن ماذا عن القرآن؟ لماذا تبدأ السورة هكذا، بنفي ارتباط القرآن بالشقاء، هل هناك شك في هذا؟ هل هناك ما أوجي إلى الرسول - عليه الصلاة والسلام - أو إلى المسلمين من حوله بذلك؟

غالبًا نعم.

السورة نزلت في الفترة المكية كما هو معلوم، وكان المسلمون قد تعرضوا في هذه الفترة إلى الكثير من الشدة والتضييق وصولاً إلى التهذيب المباشر.

ولعل الأمر بدأ من كفار قريش وهم يقولون للمسلمين: لقد أشفاكم هذا القرآن.

ولعل البعض من المسلمين كان ينظر إلى الأمور، وَيُخَيِّلُ له أن هذا الشفاء أمر ملازم للإيمان.

السورة تقول في مطلعها ألا تنمادی في ذلك، الشفاء قد يحدث، لكنه ليس هدفاً بحد ذاته ولا مقصداً، هو محض نتيجة عارضة وعابرة.

يسهل على البعض أن يعيش الدور، دور الشقي المظلوم، يبرر لنفسه البقاء فيه بهذه الحججة أو تلك، كي يبقى في الدور، في عدم المواجهة، هناك مَنْ ظلمه، هناك من يتوجه له باللوم.

السورة تقول لنا، لكل من يستسهل العيش في دور المظلوم والضعيف: كُفَّ عن هذا، اخرج عن هذا الدور، واجهه.

السورة - بالمناسبة - لا تقول لنا: إن القرآن قد تنزل لكي يجعلنا نشعر بالسعادة.

السعادة يمكن أن تحدث، بل هي تحدث لكثيرين بالفعل، يقدم القرآن لهم مصدراً من مصادر الطمأنينة والسعادة.

لكن هذا مرة أخرى، ليس الهدف منه، بل هو مجرد نتيجة.

القرآن نزل ﴿تَذَكُّرَةً لِّئِنْ بَخَشْتُمْ﴾.

وسيكون هناك - في خاتمة السورة تقريباً - شيء آخر عن هذا.

﴿وَعَلَّ أَتَاهُ حَدِيثُ مُوسَى ﴿١٠﴾ إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا
لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ أُجِذُّ عَلَى النَّارِ هُنْدَى ﴿١١﴾﴾ (طه: ٩-١٠).

أول مواجهة تعقدها السورة هي مع سيدنا موسى.

موسى كان طريداً بسبب قتل سابق، وكان يمكن أن يبقى داخل هذا الدور، دور القاتل الذي لم يعتمد القتل، المظلوم به «حظ سيئ» أو بسرعة غضب، المذنب «بالخطأ» الذي سيبقى طريداً منفياً طيلة عمره.

لكن الوحي يأتيه أن ﴿فَاخْلَعْ ثَمَلِيكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْأَمْنِ قُدْرَى ﴿١٢﴾﴾ (طه: ١٢). يخرج به الوحي من دوره القديم، دور القاتل المظلوم، ويقدم له دوراً مختلفاً تماماً، دور النبي صاحب الرسالة، ويطلب من هذا المظلوم سابقاً أن يواجه فرعون نفسه.

﴿إِذْ هَبَّ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿٢٤﴾﴾ (طه: ٢٤).

أعطاه الوحي دوره الجديد، وأعطى لمصاه دوراً جديداً أيضاً.

لا بد أن صدر موسى قد كان فيه ما فيه وهو يخرج من دور المذنب المظلوم إلى مهجة النبي الرسول.

لا بد أن صدره ضاق الأمر.

وكان الدعاء، دعاء المواجهة، أي مواجهة.

﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَاخْلُقْ لِي مِثْلَ يَسَارِي ﴿٢٧﴾﴾ (طه: ٢٥-٢٨).

أن يتقبل صدره الأمر الذي يطالب به، وأن يكون واضحاً في بيان حجته.
وأن يطلب التيسير من الله.

﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى ﴿٣٦﴾ إِذْ أَرْحَيْنَا إِلَى أَمْكِكَ مَا يُوعَى ﴿٣٧﴾ أَنْ أَفْذِيهِ
فِي الثَّابُوتِ فَأَفْذِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْنَا
عَلَيْكَ تَحِيَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ (طه: ٣٧-٣٩).

لم يكن هذا أول خروج من «مظلومية» في حياة سيدنا موسى.
فقد وُلِدَ في مرحلة قتل أطفال بني إسرائيل، ألقته أمه في اليم، ومن ثم
سارت الأمور بحيث صار في قصر فرعون.
﴿ثُمَّ جِئْتُ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى﴾ (طه: ٤٠).
دوماً هناك قدر يمكن أن يُخْرِجَنَا من مظلوميتنا.
علينا أن نقبل به ونتحمله.

حتى سحرة فرعون، عندما آمنوا برب موسى، وهددهم فرعون
بالتعذيب والصلب،
قالوا له: ﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِنُغَيِّرَ لَكَ حَقْلَايَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السَّحْرِ وَاللَّهُ
خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ (طه: ٧٣).

كانوا مُجْتَبِرِينَ عَلَى السَّحَرِ، خَرَجُوا مِنْ ظُلْمِهِمْ وَوَاجَهُوا هَرَعُونَ، دَعُوا
الْثَمَنَ حَتْفًا، لَكِنْ لِكُلِّ شَيْءٍ مَهْمٌ فِي الْحَيَاةِ ثَمَنٌ، وَثَمَنٌ بَاهِظٌ أَحْيَانًا.

لكنهم لم يبقوا أسرى في دور مظلومي هَرَعُونَ.

﴿فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا
حَسَنًا أَفَتُكَاَلُ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرْدْتُمْ أَنْ يَمْلَأَ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ
مَوْعِدِي ۖ﴾ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلَكِنَا وَلَكِنَّا مُخْلِئُونَ وَمِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ
فَقَدَفْنَاهَا فكَذَلِكَ نَقُي السَّامِرِيُّ ﴿ (طه ٨٦: ٨٧).

وعندما عاد موسى إلى قومه ووجدهم يعبدون المجل الذي صنعه
السامري.

هم اتهموا السامري بأنه السبب، وهارون قال: إنه لم يفعل شيئاً كي لا
يُضْرَقَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ.

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ ۖ﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً
مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿ (طه ٩٠: ٩٦).

حتى السامري، ادعى أنه رأى ما يشبه الملاك، وبعدها سَوَّلَتْ لَهُ نَفْسُهُ.
لم يتحمل أحد المسؤولية.

الكل ضحية.

هنا أن وسوس إبليس لأدم وزوجه، وهناك من يجد أن الحل هو أن يكون ضحية مظلوماً كي يتغلى عن مسؤوليته.

لكن عندما أُخْرِجَا مِنَ الْجَنَّةِ.

﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ (طه: ١٢٣).

لا يضلُّ ولا يشقى.

﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ (طه: ٢).

على العكس.

من اتبعه لا يضلُّ ولا يشقى.

يمر بالشدائد والصعاب، لكن نظراته لها لن تكون كشقاء.

بل كضريبة، كامتحان.

من اتبعه، لن يضلُّ في دوره، ويبقى في دور الشقي.

بل سيبحث عن الدور كما جاء في هذا الهدى.

سورة الأنبياء ٢١

هدم من أجل البناء

حمل فأمه معه، وتَحَيَّنَ الفرصة المناسبة.

تسلَّل إلى المعبد.

لم يكن هناك أحد.

ونفذ خطته.

انهال ضربًا على التماثيل التي كان يعبدها قومه.

حطمها جميعًا إلا كبيرهم، تركه عامدًا حسب الخطه.

﴿وَقَالَ لِلَّذِينَ أَحْنَأْتُمُ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُذِيرِينَ ﴿٦٠﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا سَبَقْنَا فَقِيَ يَدُ كُرْهُمُ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٣﴾ قَالُوا قَاتِلُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦٤﴾ قَالُوا آأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْظِفُونَ ﴿٦٦﴾﴾ (الأنبياء ٦٥: ٦٣).

ذلك هو المشهد المركزي - الذي لا يُنسى - في سورة الأنبياء.

سيدنا إبراهيم - أبو الأنبياء - هو الذي فعل ذلك.

ومن تفاصيل ما تذكره السورة، نفهم إن إبراهيم كان صغير السن وقتها. ﴿سَبِّحْنَا قُلِّي يَذْكُرُهُمْ يَقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾.

ونتعرف على مواجهته لقومه عندما استجدواوه وحول الاستجواب هو إلى كبير الأصنام، عامداً أن يواجههم بلا منطقية ما يؤمنون به.

وانتهى الأمر بقرارهم عقوبته بالحرق، ثم كانت النار برذاً وسلاماً عليه.



هذا المشهد هو المشهد المركزي في سورة الأنبياء.

لكنه مشهد «هدم»، وهو لا يختصر مسيرة الأنبياء على الإطلاق.

نعم، سنبدأ بالهدم، فهو مهم بالتأكيد.

لكنه هدم من أجل البناء، ليس هدماً من أجل الهدم، الهدم ليس هدفاً، ليس الهدم إلا وسيلة للوصول إلى مكان مناسب للبناء.

سنرى هناك في قصص الأنبياء الذين سيذكرون في السورة مواقف هدم ودمار للأقوام التي كذبت بدعوة الرسل؛ مثل: لوط ونوح -عليهما السلام-.

وسيكون هناك ذكر لأنبياء لم نعرف في قصصهم دماراً لأقوامهم؛ مثل: إسماعيل وإدريس وذا الكفل وأيوب وذكريا -عليهم السلام أجمعين-.

وسيكون هناك من نعرف أنهم نجحوا في نجاة قومهم؛ مثل: سيدنا يونس - عليه السلام -.

وسيكون هناك تركيز على داود وسليمان - عليهما السلام - وقد حققا أعلى معاني البناء.

العدل كما في مثال حكمهما على صاحب الفنم والحرث، والسنن: المعرفة بالصنائع والتحكم بالموارد الطبيعية.



إذن مقابل مشهد الهدم المركزي في السورة، نقطة الانطلاق، هناك أيضًا التمتع الضرورية، مشاهد البناء التي تكمل الصورة.

ولو قمنا بحساباتنا، فإن نماذج البناء ستكون أكثر من نماذج الهدم.

لماذا؟

لهدم جاذبيته، خاصة عندما تكون شأياً ومتمرداً وتريد أن تثبت نفسك مقابل تراث الأجداد، هذه الجاذبية قد تفتح هدماً لا ينوي البناء، هدماً من أجل الهدم فحسب.

الهدم سهل (اسألوني أنا عنه)، التحدي الحقيقي هو في أن تقدم بدلاً عما تهدمه، أن تهدم فكرة سلبية وتنتقدها وتكشف مغالطاتها أمر ليس بالصعب، لكن الصعب حقاً هو أن تقدم الفكرة البديلة التي تزرعها بدلاً من تلك التي هدمتها، الشيء ذاته مع كل ما يستهدف بالهدم، أي منظومة قيم أو أي مؤسسة، إن كنت تريد أن تهدم وليس في ذهنك أي خطة للبناء، فغالباً طريقك قصير، والهدم سيكون على رأسك أنت، والنتيجة بالمجمل ستكون لصالح ما حاولت هدمه، حيث إن فشلك سيقدم أدلة للبعض على صلاحيته.

ثم انتهت رحلة إبراهيم في المعبد تلك الليلة، بل قاده إلى طريق رأيناه فيه وهو يرفع القواعد من البيت، ويؤسس البلد الآمن.

كان المشهد مشهد هدم فعلاً، لكنه هدم من أجل البناء، ولو في مكان آخر.

فلننتبه هنا إلى أن مشهد الهدم هذا لم يؤد إلى أن يؤمن قومه، رغم أنه ضرب معتقداتهم في الصميم.

كما لو أن الرسالة هنا هي أنه لكي تجعل الناس يؤمنون بك، عليك ألا تكتفي بهدم إيمانهم،

بل أن تقدم البديل بوضوح.

وهذا ما فعله الأنبياء.

هذا ما قدمته السورة.



تقول لنا السورة أيضاً: إن مواجهة الهدم والبناء فيها مخاطر، مخاطر تطلبت أحياناً أن ينجيهم عز وجل من كيد الكافرين أو من الدمار الذي لحق بأقوامهم.

﴿لَمَّ صَدَقَاتُهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَّشَاءُ وَاهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾ (الأنبياء: ٩).

واستُخدمت الكلمة «نجيناه» مع كل من إبراهيم ولوط ونوح ويونس في هذه السورة.

مع إبراهيم كانت النجاة من النار.

مع لوط، كانت النجاة من الحجارة التي دُمّرت قريتهم.

مع نوح من الفرق، ومع يونس كانت من الغم.

مع أيوب كانت يكشف الضر عنه.

مع زكريا كانت بالاستجابة لدعائه بالذرية.

فلنتنبه هنا إلى أن الأمر تغير مع تقدم الخط النبوي تاريخيًا.

بعبارة أخرى، الأنبياء والرسل الأبرار تاريخيًا: «نوح، إبراهيم، لوط» كانت نجاتهم من دمار حتمي بالظروف الاعتيادية: النار، الفرق، الحجارة.

مع الأنبياء اللاحقين الذين تذكرهم السورة تغير الأمر.

لم يعد هناك «عقوبة جماعية» تتطلب التدخل، كما لا تذكر السورة «شيتًا مباشرًا» كالذي حدث مع إبراهيم.

كلما اقتربنا من ختم النبوة أكثر - عنه عليه الصلاة والسلام - يقل الأمر، مع استثناء ما حدث لسيدنا عيسى - عليه السلام - ولكن رفعه لم يُذكر في هذه السورة.

كما لو كان الأمر لتدريتنا على أن نعتمد على أنفسنا أكثر هنا أكثر، ألا نتوقع المعجزات، فهي خاصة بالرسل والأنبياء.

كما لو أنها لتدريتنا على ألا نتوقع أن تتحول النار بردًا وسلامًا لمجرد أننا دعونا الله أن يفعل ذلك كما فعل مع إبراهيم، تجنب أن تقودك طرفك إلى النار، أو حاول محاربتها وتخفيف آثارها بالطرق التقليدية.

لكن النار لن تتحول بردًا وسلامًا عليك كما تحولت مع أبي الأنبياء،
لن يحدث.

الأنبياء قدوتك، لكنك لن تحصل على ما حصلوه من استثناءات
معجزة.

بل هم قدوتك مع التركيز على ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ اللَّعَآمَ
وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ (الأنبياء: ٨).

سورة الأنبياء هي واحدة من ثلاث سور في القرآن تذكرنا بحقيقة
نادرة من حقائق الحياة التي لا يجادل فيها أحد: الموت.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبَلَّوْكُمْ بِالْأَشْرِّ وَالْأَفْئِرِ فِتْنَةً وَأَلْبَنَّا آثَرَكُمْ﴾ (الأنبياء: ٢٥).

وما دام الأمر كذلك، وبحسب، ما دام الموت ينتظرنا عند منعطف ما.
فلنكن لحياتنا معنى.

وسورة الأنبياء هي السورة التي تذكرنا بحقيقة أخرى.

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾
(الأنبياء: ١٠٥).

العباد الصالحون....

لعلهم أولئك الذين وازنوا بين حسابات الهدم والبناء.

لعلهم أولئك الذين لم يكونوا عن هذه الحسابات غافلين.

سورة الحج ٢٢

تأشيرة حج

ما كان يمكن لسورة نزلت آياتها متفرقة في مكة والمدينة، والحضر والسفر، والليل والنهار، إلا أن تكون «سورة الحج».

الحج الذي هو رحلة تبدأ من بيتك - أينما كنت - منذ أن تقوي الحج، وتنتهي إلى البيت العتيق.

وسورة تصف رحلة كهذه، ما كان يمكن إلا أن تنزل على هذا النحو، حضراً وسفراً ليلاً ونهاراً، بين مكة والمدينة.

إنها رحلة، تأخذك السورة لها، حتى لو كنت لم تذهب للحج سابقاً. أو حتى لو كنت قد ذهبت مراراً.

السورة تأخذك مجدداً أو لأول مرة إلى عمق الحج، لكن دون حاجة إلى تأشيرة أو بطاقة سفر.



بينما تعد نفسك لهذه الرحلة، تذكرك السورة بأن حياتك كلها رحلة سفر بمحطات متعددة.

وَيَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن نُّرَابٍ ثُمَّ مِّنْ نَّظْمَةٍ ثُمَّ مِّنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّئَبْرَنَ لَكُمْ وَنُبَيِّرَ فِي الْأَرْحَامِ

مَا تَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَقَّ
وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمَرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَفَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً
فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَتَتْهُنَّ مِنْ كُلِّ فَوَجٍ يَهِيمٌ ﴿٥﴾ (الحج: ٥).

العمر كله رحلة في النهاية.

كما هو الحج رحلة.



سورة الحج هي السورة الوحيدة في القرآن التي تسمى الكعبة بالبيت
العتيق.

لم يذكر هذا عن الكعبة أو البيت الحرام إلا هنا في هذه السورة ومرتين.

﴿ثُمَّ لِيَقْضُوا تَتَمَتُّهُمْ وَلِيُوقُوا تَذَوُّرَهُمْ وَلِيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ (الحج: ٢٩).

﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نَحْمِلُهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ (الحج: ٣٣).

البيت العتيق إذن.

وأنت ترحل له.

لعلك ترحل لبيتك، بيتك الأصلي، لعلك عشيت حيلة حياتك في بيت
ليس بيتك ولو كنت تعلمك سند ملكيته.

لعلك قضيت حياتك مفتربا، مشتاقا لبيت لا تعرفه.

وها أنت تكتشفه، بيتك الأول هذا الذي لم ترزقه من قبل.

في سورة الأنبياء - السورة السابقة لسورة الحج - رأينا سيدنا إبراهيم في بداية الطريق.

مشهد الهدم. بعد أن هدم أوثان قومه.

هنا - في سورة الحج - نراه بعد أن أكمل بناء البيت، وها هو يوجه نداءه إلى الكل، أن تعالوا إلى البيت.

﴿وَإِذْ يَوَدُّ أَنَّ لِبِرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُفْرِكَ بِي شَيْئًا وَظَهَرَ بَيْنِي لِلْقَافِلَيْنِ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ٢٦ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَبِيبٍ﴾ (الحج ٢٦: ٢٧).

نحن في مرحلة ما بعد البناء. وهذا النداء بالحج - الموجه لكل الناس - يعكس تجاوز الرسالة مرحلة «محليتها». كونها محصورة في الناس حول إبراهيم وبنيه، إلى ما هو أبعد وأوسع من ذلك، يمكننا أن نقول: إنها مرحلة «عالمية»، على الأقل بالنسبة للعالم القديم.

مرحلة اكتمال البناء هذه على يد سيدنا إبراهيم، يمكن أن تقصر شيئاً آخر ورد في السورة.

(١) للفرزدق عن الحج: طوفان محمد عليه الصلاة والسلام للمؤلف.

سورة الحج احتوت على الآية التي أُذِنَ فيها لله للمسلمين بالقتال.

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَعَدِيدٌ﴾ (٣٩) الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ﴿ (الحج: ٣٩-٤٠).

للهذه الأولى، ما العلاقة بين الحج والإذن بالقتال؟

العلاقة هي في المرحلة.

الحج الأول الذي نادى فيه إبراهيم كان بعد اكتمال البناء.

وهذا الإذن بالقتال حدث بعد أن أصبح للمسلمين تجربتهم الوليدة التي يجب حمايتها والقتال دفاعاً عنها.

صار عندهم في هذه المرحلة - ما بعد الهجرة تحديداً - بناء يستحق الدفاع عنه لحمايته.

ويستحق أيضاً أن يكبر، أن يتوسع.

القتال أمر ليس باللطيف، وهو ﴿كُرْهُ لَكُمْ﴾ كما قيل في سورة سابقة.

لكن هناك أشياء كثيرة في الحياة ليست لطيفة بالمطلق.

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفُتَّتْ صَوَامِعُ وَيَبْعُ وَصَلَوَاتُ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَزِيزٌ﴾ (الحج: ٤٠).

إنه الدفع الضروري للبناء.

لولا هذا الدفع لهُدَّتْ صَوَامِعُ وَيَبْعُ وَمَسَاجِدُ.

ومعه يمكن حمايتها، ويمكن حماية أي تجربة «بناء».

وتأتي الإشارة بعدها مباشرة إلى مرحلة ما بعد البناء: التمكن.
﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ
وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ الْأُمُورِ﴾ (الحج: ٤١).
لقد بنوا، ودافعوا عن البناء، ومن ثم انتصروا في الدفاع والدفع.
فكان أن جاء التمكن الذي لم يستغلوه للإضمار، بل ساعدوا الناس
وأصلحو بينهم.

في كل القرآن الكريم لم يأت الفعل (يعظم) غير مرتين اثنتين.
في سورة الحج تحديداً.
والفعل «يعظم» واضح المعنى، يكبر، يفخم.
وقد جاء في استخدامين، تعظيم الحرمات.
﴿وَذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأَجَلْتَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ إِلَّا
مَا يُتَنَّى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ (الحج: ٣٠).
وتعظيم الشعائر.
﴿وَذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ (الحج: ٣٢).
والاستخدامان متضادان متقاربان.
ويمكن التعبير عنها بأخذ الأمر بجدية بالغة، لا مزاح ولا تهاون، لا في
الحرمات التي لا يجب على الحاج أن يلتزم بعدم تخطيها، ولا في الشعائر
التي يجب أن تؤدى بجدية بالغة.

وكل من اعتمر أو حج، يعرف أن طول مدة أداء المناسك يجعل البعض يتصرف كما لو أن الأمر عادي، بضحك، يتحدث في أي شيء عادي. تقنياً، أداء المناسك هنا صحيح، لا يوجد ما يدل على غير ذلك. لكن التعظيم لها، أخذها بجدية بالغة بحيث تنعزل عن صفار الأمور، هو أبقى بالتأكيد.

ولا يمكن أن نتجاهل أن الفعل «يعظم» هنا، قد يرتبط بالآية الأولى من السورة.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زُلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ (الحج: ١).

كما أن هذه الآية الأولى أيضاً، تذكرنا بفعل آخر تكرر في السورة.

﴿اتَّقُوا﴾ تذكرنا بالتقوى التي يبدو أنها مرتبطة بالحج على نحو شوي.

نفي سورة البقرة - في آيات الحج منها - ذُكِرَت التقوى بصفتها خير الزاد.

﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفْتَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (الحج: ١٩٧).

وهنا في سورة الحج، التقوى مجدداً.

﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾.

﴿لَنْ يَنَالِ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكْتَبِرُوا عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَتَقَرُّوا بِهِ فِي الْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ (الحج: ٣٧).

التقوى إذن، تقوى القلوب تحدد الآية الكريمة.

كم تبدو فريضة الحج من خارجها «عبادة جوارح»

وكم هي في عمقها «عبادة قلوب»

أمر لا يمكن أن يحدده إلا المطلع على ما في القلوب.

كل شيء عدا ذلك محض مظاهر.

وسورة الحج هي السورة التي حدثت لنا أن سيدنا إبراهيم هو الذي سمعنا مسلمين.

﴿وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ (الحج: ٧٨).

يشبه الأمر - بلا تشبيه - أن يقال لك: إن جدك فلان - الذي لم تره ولكن سمعت عنه كثيراً - قد اختار لك اسمك عندما وُكِّدَتْ.

يربطك ذلك عاطفياً به على نحو مختلف، يصنع بينكما رابطة أعمق من رابطة الدم التي تربطك به.

إبراهيم سمعنا مسلمين.

اختار لنا هذا الاسم.

شيء يزيدنا ارتباطاً به وانتماء لرسالته.

﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾
(الحج: ٢٧).

ثمة فج عميق في داخل كل منا.

فج عميق في مجاهل تضاريسنا، بين مرتفعاتنا الوعرة.

ثمة شيء فينا يريد أن يخرج من هذا الفج العميق.

لكي يليق الفداء.

لكي نذهب أخيراً إلى بيتنا الأول.

البيت العتيق.

كلنا لاجئون مشردون بطريقة ما.

وحده البيت العتيق هو البيت حقاً.

سورة المؤمنون ٢٣

أهمية الشخص «العادي»

الكل يتحدث عن أهمية أن تكون مبدعاً متميزاً شغوفاً بمجال ما، الكل يتحدث عن مارد ما وعلاق ما في داخلك.

وهذا يُحدث أثراً عند البعض فعلاً ... وهؤلاء البعض من المبدعين والمتميزين عادةً ما يكونون قلة. هذه طبيعة الأشياء.

لكننا في غمرة الحديث عن «المبدع» و«الخارق» نكاد ننسى الحديث عن أهمية الشخص العادي، الشخص الذي أهميته في أنه شخص عادي، الكلمة ليست مسببة ولا انتقاصاً منه، وكل المتميزين ما كان يمكن لتمييزهم أن يكون منتجاً ومؤثراً لولا «الشخص العادي».

الشخص العادي هدف كل الرسائل وكل الفلسفات وكل الشعارات.

سورة المؤمنون تقابلنا بعد سورة الحج - السورة التي تحدثت عن «انتهاء البناء» - لتحدثنا عن الشخص الذي ما كان يمكن للبناء أن ينتهي من دونه: الشخص العادي.

تأخذنا السورة في بدايتها إلى صفات المؤمنين الذين سيحققون الفلاح، الفوز، الذين سيرثون الضرود من.

قد نتوقع من قائمة الصفات أن تكون صعبة، خارقة الصعوبة، قد نتوقع على سبيل المثال ما نسمعه عن أعمال بعض السلف في العبادات، الصلاة ألف ركعة في اليوم والليلة، أو قيام الليل كله طيلة أيام السنة، أو قراءة القرآن في ركعة واحدة.

لكن لا شيء من كل هذا.

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِقُرُوبِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنْ ابْتَغَىٰ زِينَةَ ذَلِكَ فَاُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾﴾ (المؤمنون: ١-١٠).

خشوع في الصلاة ومحافظة عليها، إعراض عن اللغو والتفاهات، زكاة، عفة، أمانة للعهد ورعاية له.

لن أدعي أنها سهلة أبداً، ولن أدعي وجودها في شخص بعينه.

ولكنها صفات ممكنة التحقيق، ليست خارقة ولا مستحيلة، يمكن أن تعد في حياتك عدة أشخاص عرفتهم وأنت تظن بينك وبين نفسك أنهم قد حققوا هذه الصفات أو أغلبها، أو هذا ما بدأ لك منهم، إلا الخشوع في الصلاة الذي لا يمكن أن يُقاس أو يُعرف. والذي لا بد من الاعتراف أنه قد يكون أصعب ما في القائمة.

هي صفات يمكن إنجازها، ليست صفات الواحد في المليون بالتأكيد، ولا نسبة محتملة عندي لمن يمكن أن يحققها، لكن يمكن لجارك أو عمك

أو رقيق فك أن يكون قد حققها، دون أن يبدو عليه ذلك التميز أو الإبداع، ودون أن يكون له منجزات كبيرة تحدث عنها وسائل الإعلام.

إنها صفات يمكن للشخص العادي أن يحققها ويحورها.

لو أننا نظرنا إلى هذه الصفات من منظور معاصر: لرأينا في هذا الشخص شخصاً ملتزماً بالقوانين والتعليمات، سواء تلك التي تنظم علاقته بربه؛ الصلاة، الخشوع فيها والمحافظة عليها، أو العبادات عموماً، أو التي تنظم علاقته بالمجتمع: الزكاة، العفة، أمانة العهد.

هو شخص عادي، ملتزم بالقانون (بالمعنى الواسع للكلمة، علماً أن أمانة العهد تشمل القانون فعلاً).

ليس هذا فقط.

بل إن سورة المؤمنون تأخذنا إلى قصص الأنبياء، وتبين لنا أن الكفار كانوا يرون أن الأنبياء كانوا أشخاصاً عاديين، وكان هذا سبباً لرفض دعوتهم.

كل الأنبياء الذين سترد قصصهم في هذه السورة ستشير إلى ذلك.

مع نوح: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سِعْتَا يَهْدَا فِي آيَاتِنَا الْأُولَى﴾ (المؤمنون: ٢٤).

مع صالح: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَتَأْتُنَّكُمُ الْبَاقِعَةُ لَآتِيكُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ وَمَا تَأْتِيكُمْ بِهِمْ إِلَّا تُفَرَسَاتٍ يَسْعَىٰ فِي ظَنَابِرُهُمْ أُمَّاتٌ وَأَنْفُسٌ وَأَنْفُسٌ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (المؤمنون: ٢٣).

مع موسى وهارون: ﴿قَالُوا أَنْزِلْ لَنَا مَائِدَةً مِمَّا نَزَّلْتَ لَنَا نَارًا﴾ (المؤمنون: ٤٧).

كل هؤلاء يَدَوُّوا أشخاصًا عاديين.

ويعتابة خواتم ما حدث في هذه القصص، نصل إلى نتيجة مهمة، لا تقلل أبدًا من قيمة الشخص العادي.

ماذا عن الأشخاص الآخرين الذين لم يحققوا الفوز والفلاح، وانتهوا إلى جهنم.

هم أيضًا في الغالب كانوا أشخاصًا عاديين. فالشخص العادي يمكن أن يأخذ أيًا من الطريقين.

المؤمنون اختاروا طريق الانضباط والتعليمات، الآخرون للأسف لم يفعلوا. سيقولون هم لاحقًا مفسرين ما حدث: ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا مِثْمَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ (المؤمنون: ١٠٦).

لقد انشعقوا عن الانضباط والالتزام، هضلوا الطريق.

﴿وَلَا تَكُلِّفْ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (المؤمنون: ٦٢).

وردت هذه الآية أو ما يشابهها في المبنى والمعنى خمس مرات في القرآن الكريم.

هنا - في سورة المؤمنون - هي المرة الأخيرة التي سنقرأها أثناء قراءة الصحف.

كما لو أنها ذكرت هنا بالضبط لتؤكد فكرة أن هذه الصفات ممكنة التحقيق لأي شخص دون مواصفات خارقة.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبُعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن قُرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّظْمَةٍ ثُمَّ مِّن عِلْقَةٍ ثُمَّ مِّن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنَبَيِّنَ لَكُمْ وَلِنَقْرِئَ بِالْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّن يَتَّقَى وَيُغْنِيهِمْ مِّن يَّرَدِّ إِلَى أَزْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِئَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْزَلَّتْ وَرَبَتْ وَأَلْبَتَتْ مِّن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ (الحج: ٥).

هذه هي مراحل نشوء الإنسان العادي. أي كلنا.

وعندما يولد طفلاً، سيكون جميلاً، فقط لأنه إنسان، رغم أنه عادي.

الكل جميل ما دام خلق الله.

العادي أيضاً جميل، وأيضاً مهم، ولولا العادي لما تعبّر أحد ولا نجح مشروع ولا تحققت رسالة.

فتبارك الله أحسن الخالقين.

سورة النور ٢٤

«نور، أنى أراه؟!»

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيُّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مَبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (النور: ٣٥).

ربما تكون آية ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ من أكثر الآيات جمالاً وإلهاماً في القرآن الكريم. جميلة وروحانية، وتبحث على الطمأنينة.

المثل الذي استُخدم لتقريب ﴿نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ شديد الجمال والحميمية.

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾

والمشكاة هي الكؤود في الحائط، مغلقة ليست نافذة، كانت موجودة في طرز العمارة التقليدية، ويوضع فيها المصباح لحماية من تيار هواء قد يؤثر عليه.

﴿الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ﴾.

حماية أخرى لنور المصباح، الزجاج ستمنع - مجدداً - أي تيار هوائي يمكن أن يؤثر على نور المصباح.

﴿الرَّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾.

الرجاجة نفسها مضيئة تلمع، الكوكب الدري هو غالباً كوكب الزهرة، الكوكب الأكثر لماعاً بالنسبة للأرض بعد الشمس والقمر.

﴿يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾.

الوقود الذي يُستخدم في المصباح الذي في الرجاجة التي في المشكاة هو زيت مستخرج من شجرة الزيتون، واحدة من أكثر الأشجار المعمرة في العالم، والتي تبقى منتجة رغم تقدمها في السن، كما تبقى خضراء طيلة أيام السنة، هذا الزيت هو الأصفى والأنقى بمعايير الوقود في المصابيح.

ولأن هذه الشجرة ﴿لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾، فكل ثمارها تتعرض لنفس المستوى الوسطي من أشعة الشمس، وهذا يجعل زيتها متجانساً تماماً.

﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يَضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُوِّرَ عَلَى نُورٍ﴾.

من شدة نقاء هذا الزيت، يكاد يضيء دون أن يوقد.

﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾.

نعم، نحن في دوائر متداخلة من النور، نور المصباح، نور الزيت، ونور الرجاجة أيضاً؛ لأنها تعكس نور المصباح كما يعكس الكوكب نور الشمس. هذا النور يغمر السماوات والأرض.

وهو يغمرك أيضاً، يغمرك وروحك، يغمرك بكل ما فيهك.

أنت أمام الجدار، والنور منبعث من الكوة في الحائط، هادئ ثابت لا يهتز، وهو بثلاث درجات من النور؛ نور على نور.

النور يغمّر المكان، وأنت أمام الجدار، هل يمكن إلا أن تجذب إلى هذا النور، يحيط بك ويغترقك؟ نور لا يشبه الأضواء الساطعة الزاخرة التي نعرفها اليوم، ولا أضواء النيون المبهتة الكثيرة، بل نور حقيقي يصعب وصفه، كل ما عرفت في حياتك من أضواء كان نسخة مزوّرة وباهتة من النور، محاولة فاشلة لتقليد هذا النور.

من تلك الكوّة يتدفق النور، ويغطي على عالمك كله، يفرقك من أقصاك إلى أقصاك بطمأنينة أسيرة لا فكاك عنها، يغمرك النور حتى تنفسه، فيصير لهائك كالنشوة.

ثم نقول: نعم، نور السماوات والأرض.

للوهلة الأولى، قد نجد أن هذه الآية، بأذخة الجمال بهيّة الروحانية، تنتمي لسور بسياق مختلف عن سورة النور، آية روحانية كهذه، يمكن أن نتوقع أنها تكون في السور المكية. السور التي ركزت على جلال الله وصفاته وقدرته، أكثر مما فعلت السور المدنية.

لكن هذا التوقع خاطئ تماماً.

ليس هذا فقط، بل إن السورة المدنية التي جاءت فيها هذه الآية قد بدأت بداية مختلفة تماماً عن هذا الجو الروحاني، بل إن النسق العام لها، كان بعيداً عن هذا الجو.

بدأت السورة هذه البداية.

﴿سُورَةُ النُّورِ أُنزِلَتْهَا وَقُرْآنُهَا وَأُنزِلَتْ فِيهَا آيَاتٌ يَبَيِّنَاتٌ لِّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (الزَّائِيَةُ وَالزَّائِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَيَشْهَدُ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ) (النور: ٢٠).

السورة تبدأ بعقوبة الزناة مائة جلدة.

وستمر في هذا الاتجاه: عقوبة قذف المحصنات ثمانون جلدة، لمن تحدثت على عرض امرأة دون أربعة شهود، اتهام الأزواج لبعضهم البعض، حادثة الإفك.

ثم هناك بعض التعليمات أو القواعد السلوكية التي تقوم مقام غلق الأبواب المفتوحة التي يمكن أن تعود للفاحشة، مثل عدم دخول البيوت دون استئذان، الغض من البصر (الغض من البصر وليس غض البصر كما ينتشر وهناك فارق بين الاثنين)، والآيات التي تحدد شكل تغطية المرأة لرأسها وصدرها.

في خضم هذا الاتجاه المنهك في تعديل «التجاوزات» التي تحدث في العلاقات بين الجنسين، ووضع ضوابط لها، في خضم هذا الأمر بالغ الدنيوية وكل ما يرتبط به من غيبة وبهتان وقيل وقال، تأتي آية ﴿تُورِ السَّائِرَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

بضربك النور فجأة دون مقدمات، كنت في شيء آخر تمامًا، شهوات وعلاجها وعقوباتها، وفجأة، ﴿اللَّهُ نُورُ السَّائِرَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِثْقَاةٍ﴾.

قد تستغرب الأمر قليلاً في البداية.

ما العلاقة في السياق؟

لكن لو فكرت قليلاً لَعَلِمْتَ.

لم تأت تلك الآية ﴿نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ بالرغم من ذلك السياق.

بل بسببه.

نعم، ليس بالرغم من أن السياق كان في اتجاه العلاقات بين الجنسين وضوابطها.

بل بسبب ذلك.

القرآن كان يتنزل على مجتمع حي، وليس على مدينة فاضلة.

والمجتمع الحي مكوّن من بشر خطّائين بطبيعتهم، ليس مجتمع ملائكة تعشي على الأرض، بل بشر لديهم نوازعهم المختلفة وتجاريهم وزللهم وسقوتهم وسموهم.

وهؤلاء البشر يمكن جداً أن يتعرضوا لأخطاء في الاتجاه الذي تحدث عنه السورة.

ولأنهم كذلك، فهم بحاجة إلى جرعة معادلة ومكثفة من النورانية والروحانية.

مثلنا جميعاً، كلنا نحتاج إلى هذه الجرعة من النور في عروشنا وبصائرنا، وهم مثلنا، المجتمع كله بحاجة إلى هذا لكي يوازن طبيعته

البشرية الخطأمة، حتى أولئك الذين تحدّثت عنهم السورة في مطلعها، حتى الزناة والزانيات وأولئك الذين يرمون المحصنات، حتى أولئك بحاجة إلى ذلك النور المتدفق من المشكاة، كلنا بحاجة بالتأكيد، لكنهم أيضاً قادرون على التفاعل مع النور، على رؤيته في أعماقهم، على رؤية أنفسهم من خلاله.

ليس هذا فقط.

الكثير من هذه القضايا تُعدُّ حساسة، تُعدُّ من المحرمات التي لا داعي لذكرها أصلاً، تكفيها المواعظ العامة دون تفاصيل، وكل شيء على ما يرام في المجتمع وقطع المجتمعات الأخرى هي التي تُعجُّ بالمعاصي والعلاقات الحرة، نحن على ما يرام والحمد لله.

تسلط السورة النور على عيوب المجتمع ومحرماته دون تخوف، واجبة حقيقة بشرية المجتمع ولا تحوُّله إلى مقدس ملائكي؛ لأنه سيتحول إلى مجتمع يفعل في الخفاء ما يلعبه في العلن.

السورة تعلمنا أن نوجه النور إلى تجاوزات الطبيعة البشرية وإخفاقاتها؛ لأن هذا هو الطريق لمعالجة الأمر.

وستتعرف على نفسك أكثر وبصورة أدق مع هذا النور الذي غمرتك.

وكما تظهر الشمس الجروح وتقتل جراثيمها.

فإن هذا النور المتدفق من الكوة يمكنه أن يطهرك، ويقتل جراثيم وأدران روحك.

أمر مهم بخصوص العقوبات الواردة في السورة، وهي عقوبات تخص الزنا، وعقوبات أخرى تخص الذين يَرْمُونَ «النساء» ويتهمونهن في أعراضهن.

عقوبة الزنا ١٠٠ جلدة للشريكين.

وعقوبة الاتهام دون شهود ٨٠ جلدة.

أي إن عقوبة «الحديث عن الأمر واتهام شخصين بزنا» تعادل ٨٠٪ من عقوبة فعل الزنا نفسه.

لكن هذا ليس كل شيء.

لأن عقوبة «الزنا» لن تتحقق إلا بوجود أربعة شهود شاهدوا الواقعة فعلياً، شاهدوها تفصيلاً وليس مثلاً أن شاهدًا رجلًا وامرأة يفتليان في مكان ما، لا، إن قال هذا شيئاً عن زنا وهو لم يشاهد سوى أنهما دخلا إلى مكان مغلق، فهذا يُجلد.

عملياً، هذا يجعل تحقق العقوبة صعباً جداً؛ إذ هذا يعني أن الواقعة حدثت بتفاصيلها الكاملة على نحو علني فاحش، وهو أمر غير منتشر، أو أن الطرفين اعترفا لأي سبب كان.

وهذا كله يجعل هذه العقوبات رادعة من طرفين.

رادعة للشريكين، ورادعة أكثر لمن يخوض في الأمر ويتحدث عنه، لماذا أكثر؟ لأن الواقعة تحتاج إلى شهود شاهدوا الأمر بالتفصيل وهو صعب، أما عقوبة الخائضين في الأعراض فهي لا تحتاج إلى هذا التعقيد، انهمت

فلان وفلانة، هات أربعة شهود على ما تقول؛ شاهدوا كل شيء، أو تعاقب
٨٠ بالمائة من عقوبة الفعل نفسه، ولا تقبل شهادتك بعدها.

الأمر باختصار هو تعامل واقمي مع الطبيعة البشرية. الأخطاء تحدث،
لكن التستر أولى. إن لم يكن هناك شهود واعتراف، فالأمر سيبقى أخروياً.
وربما هناك توبة ومغفرة وعفو قبلها.

والأخطاء تحدث، لكن الحديث عنها يزيدنا ويشيع الفاحشة؛ لذا
فمقوبة من يتحدث عن الأمر مشددة جداً وتقارب - من ناحية الشدة
- عقوبة الفعل نفسه.



﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجِبُونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا
وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (النور: ١٩).

هؤلاء لا يشترط أن يكونوا مروجي الدعارة أو فاعلي الفاحشة.
هناك بعض النفسيات التي تنوح وتبكي على الفضيلة طيلة الوقت،
لكنها في الوقت نفسه تتحدث عن أن «الكل الآن ساقط»، «الكل يفعلها»،
«العالم يمشي هكذا».

هؤلاء يريدون ضعفاً أن يقولوا: لم يبق هناك شرفاء إلا نحن.

هؤلاء أيضاً يحبون أن تشيع الفاحشة.



وهناك أيضاً: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾.

وهذا أيضاً من النور على نور على نور.



ومقابل النور، هناك في الجهة الأخرى سراب وظلمات.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَغْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ سَيْمًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوْقَآءَ حِسَابِهِ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَفْشَاءُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَصْغَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ (النور: ٣٩-٤٠).

سورة النور.

الآن، أنت ترى أفضل.

الفرقان ٢٥

أهمية ألا تكثر كثيرًا لما يقال

كل منا يملك لحظات صعبة مرت عليه في حياته.

لحظات كانت تبدو فيها الأمور أصعب من الاحتمال، ليس بسبب صعوبة المهمة الملقاة على عاتقنا ولا بسبب طبيعة الظروف المحيطة بها فحسب.

بل ببساطة لأن كلام الناس قد يزيد كل الأمور صعوبة، تجد نفسك فجأة فريسة لاتهاماتهم وسخريتهم وسوء ظنونهم وأحيانًا كثيرة افتراءاتهم وكذبهم، ويكون ما في داخلك مختلفًا جدًا عما يقولون وعما يفترضون، وتصبح هذه الجبهة فجأة أصعب وأكثر مشقة من جبهة العمل الأصلي الذي كنت قد بدأت به.

يمكنك أن تقول: ولماذا كلام الناس مهم؟ دعهم وكلامهم، المهم أن تفعل ما أنت مؤمن به.

صحيح، لكنك لا تولد مع هذه القدرة، لا تولد «بجلد النمساح» للأسف، بل نتطور بهذا الاتجاه مع الوقت، عبر التجارب والمواجهات الصعبة، تجد نفسك شيئًا فشيئًا أقل اكتراثًا بما يقال، وتتنبه لنفسك فجأة ذات يوم وإذا بجلدك قد فُتق حساسيته.

يختلف الأمر من شخص لآخر بحسب درجة حساسيته، البعض لا يستغرق معهم التحول مدة طويلة، والبعض الآخر لا يصلون إلى ذلك أبداً، لكن أغلب الناس يصلون إلى التحول في نقطة ما من تجاربهم ومواجهاتهم.

قد يكون الأمر بسبب رأي خاص مختلف تتبناه، أو بسبب مشروع بدأت به وهو مضاد لكل ما عرفوا من مشاريع، قد يكون بسبب خيار شخصي في حياتك، ربما يكون لشيء لا دخل لك به، حجم أنفك أو لون بشرتك، ربما بسبب وزنك أو طريقةك في الكلام.

ربما بلا سبب على الإطلاق غير حساسيتك نفسها.

البعض من الناس يحاول دومًا أن يجد فريسة يتسلى بها، يختارها الأضعف والأكثر حساسية لكي يقضي بها وقتًا، أو يمؤض غيرها إحباطاته وتعرضه نفسه لأن يكون صيدًا وفريسة في وقت سابق، دورة لا تنتهي أبدًا، قد نكون نحن أحيانًا قد قمنا بهذا الشيء؛ تمويضًا لإحباط ما، أو مسaire لمن حولنا، أو استعراضًا لمعضلات مخبرتنا.

أمر شائع جدًا.

لكن شيوعه لا يقلل من صعوبته.

سورة الفرقان تقبض عليك في لحظاتك الصعبة تلك وتقول لك: حقًا، من تظن نفسك يا صاح؟ لقد تعرضَ مَنْ هو أفضل منك بكثير إلى ما هو أسوأ من هذا بكثير. فلمَ تعتقد أنك استثناء؟

تأخذنا السورة إلى داخل نفسه الكريمة - عليه الصلاة والسلام - ، إلى مواضع تلك الطغنائات التي حاول كفار مكة أن يجرحوه من خلالها ، تأخذنا السورة إلى حزنه النبيل - عليه الصلاة والسلام - ، ثم تقول لنا بين السطور: تماسك وتجلد إذن، هذا هو الرجل الذي بلغ الكمال الإنساني، ورغم ذلك فقد تعرض لأسوأ مما تعرضت له.

كُفَّ عن التذمر والبكاء. نَحَطُّ الأمر، وحاول ألا تكثر لما يقولون.



سورة الفرقان فيها شيء من الحزن النبيل الراقى الذي كان يشعر به - عليه الصلاة والسلام - في المرحلة التي نزلت فيها السورة، نحن في منتصف المرحلة المكية تقريباً، بعد هجرة الحبشة وقبل الإسراء.

وكفار مكة لا يزالون على عنادهم، لا يزالون يتهمونه يشتمون الاتهامات ويتعرضون له بالسخرية والانتقاص.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ۝ وَقَالُوا أَطِيرَ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝﴾
(الفرقان ٤: ٥).

كل الصديق الذي يحمله في قلبه، كل الثقل الكبير الذي كان ينوء به منذ أن تنزل عليه الوحي، كان هؤلاء يقاتلون به مجرد كذبة، تمثيلية. ساهم فيها هو مع آخرين من أتباعه أو ممن لم يظهروا بوضوح.

مقابل كل الجدية التي كان عليه الصلاة والسلام يتعامل بها مع الأمر، كان هؤلاء يرفقون أكتافهم ساخرين متسائلين عن أهمية ما جاء به محمد،

كل شيء مما يقوله موجود في أخبار الأولين، لم يأت بجديد، محمد يجمع ما كُتب من قبل، ويساعده في ذلك مَنْ له علم بما في أخبار الآخرين.

ولأن وجود التفاصيل في أي كذبة يجعلها أكثر إقناعاً، فقد حددوا الوقت الذي تحدث فيه عملية إملأ الأساطير هذه: ﴿بُخْرَةٌ وَأَصِيلًا﴾.

﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ (الفرقان: ٧).

كانوا يعميرون عليه بشريته، يعميرون عليه أنه يتصرف كما يفعل الناس، ويأكل كما يأكلون، ويمشي في أسواقهم، أي ظلم أن تشعر أن من يرفضك بتحجج يكونك إنساناً ليرفضك، ماذا أقول مثلاً؟ ماذا تقترحون؟ يقترحون أن يكون معه ملاك، أو يدلّه ربه على كنز يغنيه عن العمل تماماً، أو أن يجعل له جنة بحيث يأكل منها متى ما أراد، بدلاً من السعي لِرزقه.

لكنهم ليسوا جادين في شيء مما يقولون، مَنْ يعلّق إيمانه على طلبات كهذه سيبقى يجد ما يطلبه، لن تنتهي طلباتهم واحتجاجاتهم، ﴿وَقَالَ الطَّاغُوتُونَ إِنَّنِ نَحْنُ الْمُسْلِمُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ ﴿نَظَرَ كَيْفَ هَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ (الفرقان: ٨).

سريعاً يجدون تفسيراً آخر: «السحر»، لقد سحركم محمد فاتبعتموه. ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ مَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ (الفرقان: ٢١).

ولو أنزل عليهم ملائكة: سيقولون: هذا سحرٌ سحرٌ أبصارنا، ولو أنهم رأوه - جدلاً - لقالوا: أربُّ يرى؟

لن ينتهي الأمر، لقد استكبروا في أنفسهم، الآن في دواخلهم تضخمت على نحو لا يرجى شفاؤه، كل من تتضخم أناه يجد صعوبة في تقبل وجود مَنْ هو أفضل منه، واتباع الرسول يتضمن ذلك حتمًا، أناهم استكبرت وتضخمت لدرجة أنها وصلت لتكون إلها شخصيًا لكل منهم.

﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ (الفرقان: ٤٣).

وصل الأمر لهذا الحد، إلهه هوام.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ (الفرقان: ٣٢).

ولو أن القرآن أنزل عليه جملة واحدة لقالوا: لم أنزل جملة واحدة؟ أما كان من الأفضل أن ينزل مفردًا؟ سيجادلون في أي شيء وعكسه، إلهه هوام.

لكن تحقيق طلباتهم ليس هدفًا بأي حال من الأحوال، وهذا القرآن ينزل عليك في أطوارك المتعددة؛ ليثبتك في كل طور ويقودك إلى ما بعده.

﴿إِنَّا رَأَوْكَ إِذْ تُتَخَدُّونَكَ إِلَّا هُوَ أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ (الفرقان: ٤١).

يقولونها منتقصين، أهذا الذي بعث الله رسولاً؟ ألم يجد مَنْ هو أفضل منه؟ ما باله هذا بالضبط؟ ما هي المواصفات التي كنتم ستقبلون بها؟ لا شيء بالتأكيد، مهما كانت المواصفات سيتعاملون بنفس الطريقة: أهذا الذي بعث الله رسولاً؟ الآن في دواخلهم تجعلهم غير قادرين على تقبل أي كان في موضع أعلى منهم.

القرآن يجعل عليه الصلاة والسلام يرى نهاية هؤلاء، النهاية الأخيرة جداً: الذنم، العض على الأصابع من القدم، والاتهامات بينهم.

﴿وَيَوْمَ يَعْصِي الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ۖ﴾ يَا وَبَلَقَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ۖ ﴿لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا﴾ (الفرقان: ٢٧-٢٩).

ولكن القرآن أيضًا يُتَّبِع هذا المشهد بمشهد الرسول وهو يبث حزنه إلى ربه.

﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ (الفرقان: ٣٠).

شكواه لم تكن عن تلك الطعنات أو الكلمات الجارحة، بل عن عدم سماعهم للقرآن، لم تكن شكواه شخصية، رغم كل «شخصنتهم»، لكنه كان يشكو من أجل رسالته، من أجل قضيته.

﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ (الفرقان: ٤٤).

هذا هو الحل الذي يجعلك تتجاوز كل ما يقال، هم حائلاً - ويعد كل ما بذلته من جهد معهم - كالأنعام، بل هم أضل سبيلاً، لا يسمعون ما تقول ولا يعقلونه؛ لذا تجاوزهم، لا تكثر أضلاً لما يقولون.



لا يعني هذا أن كل انتقاد يوجّه لنا يدل على أننا على صواب، وليس صحيحاً بالمطلق أن «الأشجار المثمرة وحدها هي التي تُزْمَى بالحجارة» كما يروج البعض، بعض ما يوجّه من انتقادات تكون صحيحة تماماً.

ويكون ما نفعه هو الخطأ، ليس الانتقاد دليلاً للخطأ ولا للصواب، ولا التصفية دليلاً على أي منهما أيضاً، هذا أمر مختلف تماماً.

لكنك ربما كنت تعلم جيداً في قرارة نفسك، إن كنت على صواب أو خطأ.

وتعلم أيضاً أنني الانتقادات كانت في جوهر الموضوع، وأياً منها كان لدوافع أخرى، مثل تلك التي مرت في السورة.

واحدة من أجمل وأرق الآيات في وصف المؤمنين جاءت في سورة الفرقان.

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَتُشَوَّرُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ (الفرقان: ٦٣).

نعامل الآية على أنها تصف المؤمن الهين اللين.

لكنها ربما تصفه أيضاً بعد أن وصل لهذه المرحلة التي لا يكثر فيها لما يقال وما يُظن به، ﴿قَالُوا سَلَامًا﴾، تصالحوا تماماً مع حقيقة أن ليس كل مَنْ في الأرض سيئ، وأن إرضاء الجميع أو إقناع الجميع مهمة مستحيلة، وتصالحوا مع أن بعض البشر مصر على عدم الفهم، تصالحوا مع كل ذلك، فقالوا سلاماً.

في درب مواجهاتنا وصراعاتنا وحملنا لقضايانا، نكون أمام عدة مراحل في التعامل مع الطعنات.

واحدة من هذه المراحل لها جاذبية شديدة. وهي مرحلة «القنفذ»، أن تحمي جلدك بأشواك القنفذ، ليس من السهل أن يطلعك أحد، فهو قد يصاب أيضاً بأشواكك، وهذا يوفر الحماية لك ولحساسيتك، ولكنه أيضاً يجعلك «مكورا» على نفسك على نحو مغلوق وغير متفاعل مع ما حولك.

مرحلة «جلد التمساح» أفضل وأجدي وأوعي بكثير.

محظوظون هم أولئك الذين يملكون الوعي الكافي والإرادة اللازمة للوصول لها.

سورة الشعراء ٢٦

لا تأثم نفسك كثيرًا

الأشخاص مرفقو الحس الصادقون، يميلون أحيانًا إلى لوم أنفسهم، عندما لا تسير الأمور معهم كما ينبغي لها أن تسير.

يفكرون: لعل الخطأ كان منهم، لعل أسلوبيهم هو السبب ... لعلها النية! يميلون بطبيعتهم الحساس إلى تحمُّل المسؤولية عن عدم الوصول إلى النتيجة المرجوة، حتى لو كانوا قد بذلوا كل ما يستطيعون. لكنهم في غمرة صدقهم مع أنفسهم، لا يجدون تفسيرًا آخر، لا بد أننا مسؤولون عن هذا.



مر عليه الصلاة والسلام بشيء مقارب في المرحلة الحكيمة. كان غالبية قومه لا يزالون على موقفهم الراض للإيمان. وكان عدد المؤمنين قد وقف عند حد معين، كل من يريد أن يؤمن آمن بعد إسلام عمر، ووصلت الأمور بعدها إلى حالة ساكنة، لا جديد. وكان عليه الصلاة والسلام يؤلمه ذلك جدًا، يؤلمه أن يرى أقاربه وأقرانه وعشيرته وأهل مدينته وهم يصرون على الذهاب إلى النار.

كلمة «يؤله» لا تعبر بالضبط عما كان يمثل في صدره الشريف - عليه الصلاة والسلام - .

كان الأمر أكبر وأشد بكثير.

كان الأمر يكاد «يهلكه» حرفياً، هكذا خاطبه القرآن. ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (الشعراء: ٣).

وباخع تعني مهلك نفسه، أوقاتلها من الغم.

كان الرسول - عليه الصلاة والسلام - في هذه المرحلة قد وصل إلى هذه الدرجة.

صدق الصادقين مؤذناً جداً، فكيف بالصادق الأمين؟

لكن الوحي الكريم تنزل على قلبه! ليخفف عنه.

سورة الشعراء.

فلنتنبه هنا إلى أن مخاطبة الوحي للرسول - عليه الصلاة والسلام - بكونه «باخع نفسه» قد جاءت مرتين: مرة في سورة الكهف، والأخرى هنا في الشعراء.

لكن ترتيب نزول سورة الشعراء كان سابقاً لنزول سورة الكهف، حتى وإن كان الترتيب في المصحف اليوم مختلفاً، وهذا يعني أن سورة الشعراء هي تعاملت أولاً مع وضعه - عليه الصلاة والسلام - في هذا الأليم من عدم إيمان قومه.

فماذا فعلت سورة الشعراء؟

أخذته أولاً إلى قصة سيدنا موسى - عليه السلام - .

﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ اثْبُتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمٌ فِرْعَوْنُ لَا يَثْبُتُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْظِلُّ بَيِّنَاتِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَيْهِ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ (الشعراء: ١٠: ١٤).

موسى كان معه رسول آخر؛ هو هارون، وكان مؤيداً بالمعجزة في يده، وتحقق انتصاره بمعجزته على رؤوس الأشهاد.

لكن كل هذا لم يغير من موقف من كان مصراً على الكفر.

لا شيء أكثر يمكن أن يُفعلَ معهم، لقد فعل موسى كل شيء، ومع ذلك لم يؤمن فرعون وأله.

إذن الأمر لا يتعلق بما يفعله رسول ما وما لا يفعله، كلهم فعلوا الأقصى حتماً، لكن قضية الإيمان أعقد بكثير.

فلا تحمل نفسك أكثر مما تحمله بالأساس.

ثم تنقله السورة إلى سيدنا إبراهيم - عليه السلام - .

﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظُنُّكَ لَهَا تَاكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْتَعْبُدُكُمْ إِذْ تَدْعُونَهُ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنْفَعُوكُمْ أَوْ يُضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا بَلَىٰ وَجَدْنَا آيَاتَهُ تَاكِفِينَ ﴿٧٤﴾ فَتَقُولُونَ﴾ (الشعراء: ٦٩: ٧٤).

هذه المرة المواجهة ليست مع الاستبداد الصارخ كما حدث في قصة سيدنا موسى، بل مع مؤسسة استبداد من نوع آخر، استبداد ناعم؛ العائلة.

والأبوة، نجد حوار إبراهيم مع أبيه وقومه حوارًا هادئًا في مفتهى الرقي والرفقة.

لكن لم يؤمنوا أيضًا.

تعددت أساليب الرسل مع أقوامهم.

لكن الإيمان والكفر أعقد بكثير من ذلك.

تلك الكلمات التي قالها إبراهيم تبدو كما لو كانت تربت على قلب محمد، وعلى قلب كل مكلم من بعده.

كان يتحدث عن رب العالمين، ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطَيِّبُنِي وَيُزَكِّيُنِي﴾ ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ ﴿وَالَّذِي يُبَيِّتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ ﴿وَالَّذِي أَظْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خِطِيئَتِي يَوْمَ الْمَآئِنِ﴾ (الشعراء: ٧٨-٨٢).

تأخذنا السورة لاحقًا إلى قصص أنبياء آخرين: نوح، هود، صالح، لوط، شعيب - عليهم السلام أجمعين -.

نمر عليهم واحدًا واحدًا، كل منهم في عصر ومكان مختلف، لكن السورة تأخذنا إليهم وتجعلنا نرى التشابه في قصصهم، كما لو أنها تقول لنا: إنها كلها قصة واحدة تكررت عدة مرات بفسخ متعددة عبر الأزمنة والأماكن، تنبهنا إلى وجود نمطه متكرر.

تنبهنا السورة إلى المشتركات في هذه القصص، دعوة الأنبياء كانت واحدة في الدعوة إلى الله ونبهت سوام، لكن هناك كلمات مفتاحية تكرر في السورة مع كل نبي منهم.

في أربعة أنبياء من الخمسة، يستخدم القرآن «أخوهم» في وصف علاقته بقومه ويستخدم نفس الحوار.

﴿إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ (الشعراء ١٠٦: ١٠٩).

تكرر الأمر مع هود، صالح، لوط، نفس الحوار بالضبط، ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٦﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿١٠٧﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ (الشعراء ١٠٧: ١٠٩).

وتكرر مع شعيب أيضاً لكن دون كلمة «أخوهم»، ﴿إِذْ قَالَ لَهُمُ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ (الشعراء ١٧٧: ١٨٠).

نفس أساسات الحوار عند كل هؤلاء، ثم يتفرق عند كل منهم حسب جريمة قومه أو مشكلتهم الأساسية.

نحلّق سورة الشعراء إلى حيث يمكننا أن نرى هذه القصص من أعلى كما يراها الطائر، ومن إطلالة الطائر تلك، نرى المحكم والمشارك في تلك القصص، نفهم مسارات القصة واتجاهاتها، نرى أن ثمة نمط متكرر.

هذا النمط لا يخص وجود نبي يدعو قومه وتنتهي القصة بالعذاب للظالم الكافرين فحسب.

لكن زاوية نظر الطائر من أعلى ستبينها إلى ما هو أشمل من هذا التفصيل، سيبقى هناك كفر وإيمان في هذا العالم، سيُمدُّ هذا ويُجَزَّرُ ذلك، سيتبدلان الأدوار أحياناً، لكن سيبقيان في هذا الوجود، مهما بذل الأنبياء، مهما كانت هناك براهين، سيبقى هناك مَنْ لن يؤمن، ربما أحياناً نكون مسؤولين عن ذلك فعلاً بتقصيرنا أو إهمالنا أو حتى أخطائنا.

لكن ذلك ليس بعد أن نفعل كل ما بوسعنا.



السورة أخذته عليه الصلاة والسلام من شهور الألم الشديد على عدم إيمان قومه إلى ما هو أبعد، إلى القضية الأساسية في الإيمان.

ثمة أمور أساسية في الحياة، لا تنتهي ولا تزول، قد تخفُّ، قد تُجَزَّرُ، قد يبدو أن بعض الأمور الأخرى قد غلبتها، لكنها ما تلبث أن تعود من جديد، وتختفي تلك التي جاءت محلها، كما لو أنها لم تكن.

الإيمان بالله من هذه الأمور التي ستبقى موجودة، قد تتخفى أن الإلحاد على وشك الانتصار ونحن نرى زيادة نسبته، لكننا نرى جزءاً صغيراً فقط من المشهد الذي طالما تكرر، سيبقى هناك إيمان دوماً، وسيبقى هناك كفر، يمدُّ هذا ويُجَزَّرُ ذلك، ثم يتبدلان الأدوار، ويكون عليك أن تختار.



للعديد زهوته وجاذبيته، والنامس تحب أن تجربيه، لكنها تستهلكه أيضاً بسرعة، وتبحث عن شيء آخر.

الناس قد تحب ما هو صرعة، موضة، وقد يتخيل المشاهد أن هذه الصرعة شيء سيبقى، وستغلب وتظهر، لكن بعد فترة، لا أحد يذكرها أبداً.

هذه الصرعات تشبه ما كان يفعله الشعراء آنذاك، يقدمون شيئاً برافاً مبهرًا، لكنهم لا يمتنون شيئاً مما يقولون، يهيمون هنا وهناك دون هدف أو بوصلة، ينكسبون من مدح هذا أو قدح ذلك، يبالغون الفجاء والرواج لبعض الوقت، ثم ينسى أثرهم، كما لو أنهم لم يكونوا.

﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٥٦﴾﴾ (الشعراء: ٥٤-٥٦).



فرق كبير بين ألم صاحب القضية، الذي يعرف أين قضيبته. وبين الذي يهيم في كل وادٍ ويقول ما لا يفعل.

مثل الفرق بين ما يبقى، ما سيبقى موجوداً وبين ما سيزول بعد أن يأخذ وهته كصرعة. ومثل الفرق بين تكلّي تبكي من حَمَلَتَهُ وهنا على وهن، وبين نائحة مستأجرة تتخذ من البكاء مهنة.

يمكنكم تحميل المزيد من الكتب الرائعة والحصريّة
بحجم خفيف جداً على مكتبة جديد بدف

<https://jadidpdf.com>

سورة النمل ٢٧

أقصر الطرق أطولها أحيانًا

كثيرًا ما نستعجل النتائج على نحو يجعلنا لا نصل لها أبدًا، نحاول الوصول بأقصر الطرق وأقلها تكلفة، وتكون النتيجة باهظة الثمن على كل الفواحي.

يكاد هذا النزق يكون طبيعة بشرية، يكاد يكون هو الأصل في السلوك البشري.

لكن البشر يتعلمون من تجاربهم. أو هذا ما يُفترض أن يحدث على الأقل؛ لذا فقد تم ترويض هذه الطبيعة البشرية وتقليل مخاطرها عند البعض.

ولا يزال كثيرون يتركون هذه الطبيعة البشرية تحتجزهم في متاهة من التجارب والأخطاء المكررة، يكررون دومًا نفس تجربة الاستعجال بحذائيرها، على أمل أن تضبط معهم هذه المرة. ولا تضبط أبدًا.



سورة النمل تقول لنا شيئًا ساحلًا عن هذا كله.

تقدم لنا أولاً نبي الله موسى - عليه السلام - وهو يستلم الوحي أول مرة.

﴿وَقُلْ أَتَاكَ خَبِيرٌ مُوسَى﴾ إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ أُجِذُّ عَلَى النَّارِ هَذِي ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى﴾ (النمل ٩: ١٢).

كان مع أهله في الصحراء، مجرد رجل فقير ومطلوب للعدالة مع أهله، يسرون في الصحراء على هامش الهامش، لو أن قُطَاعَ الطرق هاجمهم وقتلهم لربما لم ينتبه لفقدانهم أحد، وربما ما تغير شيء من حياة أحد. لكن ما حدث بعدها أحدث تغييرات في العالم كله.

رأى موسى نارا، فذهب يطلب من أصحابها خبراً عن الطريق أو ربما قليلاً من النار يستخدمها لأهله.

عاد بخبر عن الطريق بالفعل، لكن ليس أي طريق، عاد بالوحي الذي يشق الطريق الصواب للجميع.

وما حدث بعد ذلك، أصبح تاريخاً يعرفه الجميع.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وَوَرِّثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأَوْقِنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْعَظِيمُ ﴿(النمل ١٥: ١٦).

تنتقل بنا السورة بعدها من موسى إلى سليمان وداود -عليهما السلام-.

سليمان لديه معارف كثيرة من ضمنها منطلق الطير وحتى النمل،
وبسبب ذلك فمملكته مزدهرة وقوية.

﴿اذْعَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ ﴿٣٠﴾
يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنَّي أَخْبَرْتُ إِيَّكِ كِتَابَ كَرِيمٍ ﴿٣١﴾ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ
الرَّحِيمِ ﴿٣٢﴾ (النمل ٢٨: ٣٠).

سنراه وهو يخاطب ملكة سبأ ويعرض عليها الدخول في دينه.
وسنرى ما يحدث في كواليس القصر عندها ونقاشها مع حاشيتها.
ثم ما استخدمه سليمان من «العلم» لكي يبهزها بقوة وتقدم مملكته.
ثم إسلامها.



ما العلاقة بين المشهدين: الأول والثاني؟
يمكن أن نلاحظ، مثلاً كيف تغير موقف «الملك» من نفس الدعوة إلى
الله.

موسى وفرعون، سليمان وملكة سبأ.
فرعون لم يقتنع رغم كل ما قدمه موسى من براهين.
مع ملكة سبأ كان الأمر أكثر يسراً بفارق كبير.
هل يتعلق الأمر ببصيرة ملكة سبأ مثلاً بما يبدو أنه بعد عن الانفراد
بالرأي بكل ما يمثل ذلك من صفات؟

أم أنه يتعلق أيضًا بالفارق الكبير بين أن يأتي موسى كضرد مهما كان مؤيدًا بمعجزات، وبين أن يأتي رسول سليمان ممثلًا لدولة قوية مزدهرة ومتقدمة بعقائيس عصرها؟

يمكن أن تدلنا آيات سورة النمل نفسها على بعض الفروق والروابط مع فرعون.

﴿وَجَدُوا بِهَا وَاسْتَبَقَّتْهَا أَنْفُسُهُمْ فُلْنَا وَعُلُوا قَانُظَرُ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ (النمل: ١٤)

﴿فُلْنَا وَعُلُوا﴾ كانوا عالين، واستعلوا أكثر.

أما في رسالة سليمان ملكة سبأ.

﴿أَلَا تَعْلَمُوا عَلَيَّ وَأُتَوِيَ مُسْلِمِينَ﴾ (النمل: ٣١).

الآن الطرف المؤمن صار أعلى، وهو يطلب من الطرف الآخر ألا يكون أعلى منه.

هل لعلو الطرف المؤمن أثر في تجاوب ملكة سبأ معه؟

يلا شك.



لكن العلاقة الأهم بين المشهدين برأبي تتعلق بشيء آخر.

العلاقة بين موسى تقريياً لوحده ومطلوب للمدالة وهو يستلم الوحي.

وبين سليمان وهو يوجه رسالة إلى ملكة سبأ هو عامل الوقت.

أجيال كثيرة فصلت بين بني إسرائيل في عهد موسى، وبينهم في عهد سليمان، أجيال خاضت الكثير من التجارب وحصلت على الكثير من الخبرات إلى أن وصلت إلى المرحلة العليا في عهد سليمان. أخذت الثمرة وقتها، الكثير من الصراع مع النفس وسنوات في التيه وتجارب دفعت فيها تضحيات كبيرة.

لكن الثمرة في النهاية أثبتت أنها تستحق.
عدا الثمرة الأخروية التي تستحق أكثر في النهاية جداً.



ومقابل هذا النجاح الذي نطلب وقتاً كبيراً، تأخذنا سورة النمل إلى الدمار العاجل الذي أصاب قريش: صالح ولوط.

﴿قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (النمل: ٤٦).

وكانت النتيجة سريعة بعد تكذيبهم.

﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (النمل: ٥٤).

وكذلك كان الأمر مع قوم لوط، تكذيب ودمار سريع.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا قَسَاءً مَقْطَرًا الْمُنذَرِينَ﴾ (النمل: ٥٨).



بينما تمرض سورة النمل أنعم الله على عباده، تأتي آية قد تستوقفنا.

﴿أَمْرٌ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْثِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُم خُلَفَاءَ الْأَرْضِ إِلَهًا مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ (النمل: ٦٢).

هذه الآية هي ضمن سياق الحديث عن أنعم الله؛ خلق السماوات والأرض، نزول الماء وإنبات الشجر، استقرار الأرض والأنهار إلخ.

وضجاء تأتي هذه الآية: ﴿أَمْرٌ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْثِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُم خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾.

في آية واحدة انتقلنا من وضع «المضطرب» إلى «خلفاء الأرض».

لكن السياق يخبرنا أن الأمر يستغرق وقتاً طويلاً، وأن العلاقة بين الاثنين كالعلاقة بين قطرة المطر وعلو الشجر في الآيات العابقة.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٧١) قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾ (النمل: ٧١، ٧٢).

﴿إِنَّا أَمَرْنَا أَنْ أُعْبَدَ رَبِّي هَذِهِ التِّلْدَةُ الَّتِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ النَّاسِلِينَ﴾ وَأَنْ أَتْلُو الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ (النمل: ٩١، ٩٢).

كأفراد، ليس أمامنا سوى أن نفعل ما يتبني فعله، نحن جزء صغير جداً، بحجم نملة من مشهد كبير جداً لن نتمكن من رؤيته كاملاً.

علينا أن نفعل ما يجب أن نفعله، من اهتدى فلنفسه.

نعم، نحن صفار في النهاية بحجم النملة.

لكن دأب النملة هو الذي يحقق ذلك التراكم الكبير في النهاية.

دأب نملة وتحليق هدهد.

وقلب وعقل مؤمنين.

سورة القصص ٢٨

قصص تنتهي، وأخرى لا تنتهي أبدًا

بعض القصص لا تنتهي أبدًا، حتي بعد أن تنتهي.

تستمر، تناسل، تتكاثر، تجد طريقة ما لكي توجد لها صيغ جديدة مختلفة.

وبعض القصص تنتهي فقط لتبدأ قصة جديدة في داخلك، تدخل فيك القصة وتُحدث أثرًا يبقى معك، ومن هذا الأثر تبدأ قصة جديدة، قصتك لا تبقى كما هي بعد أن دخلت فيها قصة أخرى، كل شيء يتغير.

كل القصص في النهاية متشابهة بعد أن تجردها من التفاصيل والأسماء والأماكن والتواريخ.

حتى قصتك التي تعتقد أن أحدًا لم يمر بها من قبل.



سورة القصص تأخذنا إلى القصص. ونجمعها في قصة واحدة.

هذا بالضبط ما تفعله.

قصة سيدنا موسى كانت متفرقة على أكثر من عشر سور، رأينا أجزاء منها في البقرة، الأعراف، طه، في النمل، وسور أخرى.

هنا نراها وقد تجمعت، على الأقل هذا «أشمله» ما سنراه من قصته عليه السلام.

سورة القصص نأخذنا من اليم إلى اليم، من إلقاء أم موسى لطفلها في اليم، إلى لحظة غرق فرعون وجنده في اليم، كل ما حدث بينهما من أحداث عرفتاه في سورة أخرى سابقة متفرقة. لكن هنا تجميع كل ما حدث، ما عدا جزء السعرة لا يُشار له في السورة هنا.

ما الفرق بين أن تقرأ قصة موسى متفرقة - كما في أغلب السور - وبين أن تقرأها متسلسلة من ولادته إلى نجاته وقومه من فرعون؟

مع القصص المتفرقة، أنت تطلع على موقف أو جزء من القصة وتربطه الصورة لك بمواقف أخرى من قصص أنبياء آخرين، سواء بالمشابهة أو الاختلاف، أي إنك تقرأ القصة من خلال منظور يتجاوز سياق القصة المباشر إلى سياقات عامة تربطها بقصص أخرى، ربما يُقسم إبليس في الإخراج من الجنة، أو يعذاب قوم نوح، أو يتكذب الكفار.

مع القصص وهي متفرقة، أنت ترى من منظور أعلى بكثير، الطائر يحلق أعلى ويطل على منظر أكبر، ثم تؤمّر لك السورة على نقاط هنا وهناك بحيث تربط بينها.

مع القصة وهي متسلسلة، إطلالة الطائر تأتي من ارتفاع أقل من السابق. ولكن بتركيز أكبر على مساحة واحدة، كما لو أنك كنت ترى في القصص المفردة خارطة العالم أجمع، ثم صرت في القصة المتسلسلة ترى خارطة لبلد واحد أو قارة واحدة.

الأغلب في قصص القرآن هو الأول؛ أن تكون القصص متفرقة بحيث تراها وهي مترابطة مع قصص أخرى.

ولكن هذا لا يمنع من وجود القصص متجمعة كما في سورة يوسف؛ حيث عرضت قصة يوسف كاملة، وكما في سورة القصص، حيث عرضت قصة موسى إلى خروجه وقومه من مصر.

القصة وهي متسلسلة تروي علاقة أجزاء القصة ببعضها، التطور الطبيعي للأحداث في سياقها، وهو أمر مهم حتمًا، لكن لأنه الطبيعي والمعتمد في القصص، فالقرآن لا يقدمه كثيرًا، لكن عندما يقدمه، فهو يقدمه لسبب.

مع سورة يوسف كان الأمر لإيصال فكرة أن النجاح ممكن في أماكن أخرى، ليس بالضرورة أن تنجح في بلدك الأم، يمكن أن تحقق أعلى نجاح في مكان مختلف، ولكن ذلك ما كان يمكن أن يصل بوضوح إلا بربط كل الأحداث وما تعرض له يوسف من البشر إلى القصر مرورًا بالسجن.

مع سورة القصص الأمر مختلف.



علينا هنا أن نذكر أن سيدنا موسى هو النبي الأكثر ذكرًا في القرآن الكريم، فقد ذُكر ١٣٦ مرة، وهذا يعني أن قصته هي الأكثر حضورًا في القرآن الكريم.

لماذا أسباب كثيرة، لعل أهمها هو أنه واجه عدة جبهات في دعوته إلى الله، واجه فرعون ومؤسسة الاستبداد، وواجه الطبيعة البشرية في قومه

وعنصريتهم ومشاكل كثيرة لا أول لها ولا آخر، وواجه أيضًا نفسه، كان يعاني من عدم سيطرته على غضبه، وهو أمر أدى إلى ارتكابه قتل خطأ قبل الوحي.

وكان موسى أيضًا زعيمًا قائدًا، خرج بقومه من مصر بعد أن كانوا يتعرضون للاضطهاد من قِبَلِ فرعون وقومه.

موسى إذن كان مدرسة كبيرة جدًا لكل من يريد أن يتعلم. لا يوجد مواجهة لنبي لم يختصها موسى ويذهب إلى طرفها الأقصى.

وكان هذا بالتأكيد أمر يعني الكثير له عليه الصلاة والسلام. كل هذه المواجهات كان يخوضها هو أيضًا بطريقة أو بأخرى.



هذه الليلة الأولى لأول وحي نزل عليه الصلاة والسلام، وهناك مَنْ ربط بينه وبين موسى عليه السلام، قال له ورقة بن نوفل وهو يشرح له ما الذي حدث له عندما جاءه الوحي:

«هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَى مُوسَى».

كان ورقة دقيقًا في التشبيه، لن يكون عليه الصلاة والسلام مثل موسى أو لوط أو صالح، بل سيكون مثل موسى، نبي وصاحب رسالة وتشريع وقائد أيضًا.

ولعله ومنذ تلك الليلة، أخذ عليه الصلاة والسلام يقرأ قصص موسى عليه السلام - بينما هي تنزل عليه - بعين المرقب لما سيحدث معه.

ليس في قصة موسى فقط بالتاكيد.

لكن النبي الأكثر ذكرًا في القرآن كان لا بد أن يكون له أثر فيه عليه الصلاة والسلام.



في قصة موسى كما جُمِعَتْ في سورة القصص جانبًا وتفصيلًا مهمًا لم يرد في أي مكان آخر، جانبًا إنسانيًا مهمًا. قد لا يبدو مهمًا في الدعوة بشكل مباشر، لكن كان له أثر كبير في تأهيله لها.

أتحدث هنا عن واقعة مساعدته للفتاتين، ومن ثم زواجه من واحدة منهما بعد أن اقترحت علي أبيها أن يستأجره؛ لأنه القوي الأمين.

تلك السنوات التي قضاها سيدنا موسى في مَدْيَن وهو يعمل كأجير؛ أَهْلَهُ لِيُنْزَلَ عليه الوحي ويحمل الرسالة إلى فرعون وقومه، قبلها كان موسى ربيب القصور، قوي وأمين نعم، لكنه كان مترفعًا، سريع الغضب، سنوات العمل كأجير جعلته يصبح شخصًا مسؤولًا مهينًا لما سيأتي من مهام، لا يمكن لقائد إلا أن يمر بذلك لكي يكون قائدًا فعلاً.

وهذا الجزء - على أهميته - ما كان يمكن أن يُفْهَم إلا في سياق القصة كاملة، خروجه من مصر وهو خائف من العقوبة، ومن ثم ذهابه إلى مدين وعمله فيها عشر سنوات، ومن ثم نزول الوحي عليه.

قال له شعيب: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَحَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (القصص: ٢٥).

وكان ذلك هو ما حدث فعلاً، نجا من ظلمهم، ونجا من أن تبقى شخصيته مظلومة في أسر القصور والترف.

﴿تَجْنُوتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ هي عنوان سورة القصص، لقد نجا منهم كذا مرة، مرة في اليم في البداية المبكرة، ومرة عندما خرج إلى مدين، ومرة أخيرة عندما خرج بقومه عبر اليم، بينما غرق فرعون

قصة داخل قصة داخل قصة، وكلها هذه المرة قصة واحدة، تشير إلى النجاة من الظالمين، نهاية مرحلة وبداية مرحلة جديدة.

موسى ينتهي من مواجهة فرعون ويخرج بقومه. وهناك سيبدأ بمواجهتهم هم، المواجهة التي ستثبت أنها أصعب.

هل كان ثمة ما يدور في مكة في تلك المرحلة مما يمكن أن يشابه كل هذا؟ هل كانت مرحلة جديدة على وشك البدء؟

نعم، سورة القصص نزلت قبل سورة الإسراء.

والإسراء كانت بداية مرحلة جديدة.

القصص إذن كانت تؤذنُ بنهاية مرحلة.

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَئِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾
(القصص: ٥٦).

نعم، قصته مع عمه تنتهي هنا أيضاً.

أبو طالب يموت دون أن يقول كلمة الإيمان، قلب محمد يتقطر بينما هو يطلب منه أن يقول ولو كلمة على فراش الموت، لكن كفار قريش على الطرف الآخر: أترك دين عبد المطلب؟

ولا يقولها، يموت دون أن يقولها.

القصة تنتهي كما تنتهي كل القصص، ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ مهما أحببت، لا شيء يمكن أن يغير ذلك.

ذهب العم السند الذي وقف معه منذ طفولته.

كانت هذه نهاية مؤسفة للقصة^(١).

لكن هذا لم يكن كل شيء.

فبعد شهر تمريناً، توفى خديجة - رضي الله عنها -.

يفقد المرأة السند التي وقفت معه منذ البداية، نعم، إنها نهاية مرحلة بالفعل، عمه وزوجته يرحلان.

لكن الفراق كان مختلفاً هنا، سيكون ثمة لقاء مؤكد مع خديجة.

﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَى مَعَادِ قُلِّ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (القصص: ٨٥).

لقاء في الجنة بلا شك ولا ريب.

(١) للمزيد: السيرة مشرفة للمؤلف

وتنتهي السورة بمواساة لمن فقد سنيين في شهر واحد، تخفف وطأة قانون الحياة القاسي.

﴿وَلَا تُدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (القصاص: ٨٨)

﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾.

كل القصص تنتهي، الكل يرحلون، ولا يبقى إلا هو عز وجل.

قال عليه الصلاة والسلام:

«أتاني جبريل، فقال: يا محمد، عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب من شئت، فإنك مفارقه»^(١).

هل جاءه تلك الليلة يوم توفت خديجة - رضي الله عنها؟

ودرس الحياة هذا، (أحبب من شئت فإنك مفارقه)، هل جاءه ليلة الفراق الصعبة تلك.

ربما.

هل كل القصص تنتهي؟

ربما بعضها لا ينتهي أبداً.

بعض القصص تعيش فينا، حتى بعد أن يرحل كل أبطالها.

سورة العنكبوت ٢٩

هجرة..

حياتنا في النهاية سلسلة امتحانات متتالية.

في كل مفترق طرق، هناك خيار، هناك اختبار، هناك امتحان.

لكن كما في الحياة الدراسية هناك امتحانات حاسمة مصيرية، تغير المسار ويعتمد عليها ما بعده، هناك أيضًا امتحانات كهذه في حياتنا الواقعية، امتحانات تحدد مصيرنا، ربما حتى مصيرنا الأخرى.

امتحانات كبيرة كهذه تتعلق عادةً بقدرتنا على الثبات على مبادئنا، أن نكون على قدر ما مؤمن به، أن نثبت أهليتنا لما نعتقد من أفكار.

عندما تكون الأمور بسيرة لطيفة، لن تكون هناك مشكلة في أن تعتنق أفكارك ومبادئك وأن تتحدث عن ذلك، بل وأن تحكم على الناس بها.

لكن الامتحان هو أن تتمسك بها عندما تأتي ساعة الجهد والاختبار. أن تبقى عليها بينما الإغصار يضربك من الداخل ومن الخارج ومن كل الجهات.

امتحان كهذا لا يحدث في كل خطوة، لا يحدث دومًا، لكن عندما يحدث، فقد تكون نتائجه دائمة.



﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِّن دُونِ اللَّهِ فَلَهُم مَّجْدٌ كَبِيرٌ﴾ (العنكبوت ٢٥: ٢٦)
 الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِّن دُونِ اللَّهِ

سورة العنكبوت تتحدث عن هذا النوع من الامتحانات. الامتحانات الكبرى، الأهم حتى من امتحانات الثانوية العامة.

تتحدث عن الامتحان، الفتن.



ما الذي يمكن أن يكون هذا الامتحان الذي تعرض له الذين آمنوا في تلك الفترة؟

الامتحانات كثيرة ومتداخلة ومتعددة. لكن لا بد أن يكون هناك امتحان كبير، جديد من نوعه، تعرض له المؤمنون، بحيث كان فتن.

ما الذي يمكن أن يكون، وقد تعرضوا فعلاً للكثير من الامتحانات والفتن منذ أن آمنوا، بل إن خيار الإيمان واظهاره كان أيضاً فتن؟

ما هي هذه الفتن الجديدة؟

سنعرف بمجرد أن نعلم متى نزلت هذه السورة.



سورة العنكبوت من أواخر ما نزل في مكة، قبل هجرته عليه الصلاة والسلام.

في الحقيقة وفي تسلسل الترتيب الأكثر انتشاراً، السورة كانت قبل الأخيرة بالنسبة للفترة المكية، وبعض الأقوال تجعل آياتها نزلت بين مكة والمدينة.

ونحن نعرف طبعاً أن المسلمين كانوا قد سبقوا الرسول - عليه الصلاة والسلام - في الهجرة إلى المدينة.

أي إن سورة العنكبوت نزلت في الوقت الذي كان فيه بعض المسلمين مهاجرين، سرّاً أو جهراً إلى المدينة.

الامتحان الكبير هو هذا، هو قرار مفادرة مكة، الأمر ليس سهلاً على الجميع، مهما كان الأذى الذي تعرّضوا له، لكن في النهاية كانوا قد صمدوا لسنوات طويلة، ما الذي يمكن أن يحدث أسوأ؟

لقد مروا بالكثير فعلاً، ولكنهم بعد ١٢ سنة بالنسبة للبعض منهم، كانوا قد تعافشوا مع الواقع الصعب.

لكن هذا القرار الجديد؛ أن يتركوا مكة، الأهل والأقارب ممن بقوا مشركين ولكن أيضاً لا يزالون أقرباء، المشيرة، العمل والمال، البيوت.

وأن يذهبوا إلى وضع جديد لا يزال مجهولاً. ومن المؤكد أن العودة عنه لن تكون سهلة.

لم يكن القرار سهلاً.

كثيراً ما تنبئنا أوطاننا، في الحقيقة كثيراً ما تفعل بنا أكثر بكثير من مجرد التعب، لكن قرار مفادرتها ليس سهلاً بالمرة، على الأقل بالنسبة لكثيرين، قد يستغرق منهم سنوات من التفكير والأرق والقلق، وقد لا يصلون له أبداً، وقد يكون أسهل لآخرين، لكنه في العموم قرار مصيري؛
فتنة.

هكذا هو الأمر اليوم. وقد كان كذلك وأكثر وقتها. الهجرة اليوم مأثومة. والناس يتبادلون التهانى عندما يحصلون عليها، لكنها لم تكن كذلك آنذاك، وهذا المتقل لم يكن مقبولا بالنسبة للعربي الحضري، من يولد في مدينة يموت فيها غالبا.

لكن.

﴿أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ (العنكبوت: ٢).

لو قرأنا السورة من هذا المنظور؛ لوجدنا لكل شيء معنى مختلفا.

﴿وَمَنْ جَاهَدْ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ (العنكبوت: ٦).

الجهاد، السورة مكية قبل أي معركة، لكن المشكلة هي في فكرتنا التي تقصر الجهاد على الحرب والقتال، وتنسى أنه بذل للجهاد وأن بعض المواجهات الشخصية الاجتماعية تكون أكثر ضراوة من أي مواجهة عسكرية.

هذا القرار جهاد أيضا.

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (العنكبوت: ٨).

نعم، مفهوم جدا الآن، كان هناك من الآباء والأمهات من يحاول أن يستخدم العاطفة كوسيلة لابتزاز أولادهم على البقاء وعدم الهجرة.

فَدَنَّتْهُ أَيضًا إِلَى ﴿جَاهِدَال﴾، هذا جهاد أيضًا، ولكن من الطرف المقابل، يبذل فيه جهده وعواطفه من أجل هدف معين.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (العنكبوت: ١٢).

ابقوا معنا ونحمل عنكم ذلك، يا للامغراء! فليبقى الوضع الساكن كما هو بأي ثمن.

ثم نَعْرِضُ السورة لقصص أنبياء في لحظات خروجهم من مدنهم، كل قصة من هذه القصص عُرِضَتْ سابقًا في سور مختلفة، لكننا الآن نراها على نحو مختلف، هذه المرة نراهم وهم يهاجرون، كما يجب أن يفعل مَنْ نَزَلَتْ السورة بينهم.

نذرى نوحًا وهو يركب السفينة.

وإبراهيم وهو ينجو من النار ويخرج من قريته.

بل إننا سنرى لوطًا وهو يعلنها، ﴿فَأَمَّنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (العنكبوت: ٢٦).

لم يُسْتَعْدَم لفظ «مهاجرة» في وصف أي نبي في القرآن، هذه هي المرة الوحيدة، وقد جاءت في سورة العنكبوت، السورة التي أُنزِلَتْ بينما المسلمون يعدُّون العُدَّة للهجرة من مكة بالتدريج.

صدفة!؟ حاشا لله.

حتى المثل الذي أخذت السورة اسمها منه، نقرأه الآن على نحو مختلف.
﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَرَ
الْبَيْتِ لَبَيْتُكَ الْعَنْكَبُوتُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (العنكبوت: ٤١).

هذه البيوت التي تلمسكون بها، المجتمعات التي لا تريدون الهجرة عنها،
مهما كنتم تحبونها ومتعلقين بها، مهما بدت جميلة مزخرفة أو مريحة.
في حقيقتها ليست أقوى من بيوت عنكبوت قد تنهار في أي وقت.
لو أن بعضنا نظر بصدق وتجرد إلى الكثير من مجتمعاتنا، أوطاننا
لقلنا دون موارد.

نعم، نعيش في مجتمعات عنكب.



وفي نفس السورة جاءت أيضًا هذه الآية.
﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةً فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾ (العنكبوت: ٥٦).
إنها تأشيرة هجرة من نوع مختلف عن الذي نعرفه.



وتنتهي السورة مرة أخرى بالجهاد.
﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (العنكبوت: ٦٩).
الجهاد مرة أخرى، في سورة مكية، في خضم الصراع الداخلي لقرار
الهجرة.

لأنه أكبر بكثير من أن يُخْتَزَلَ بمعركة سيوف أو قتال.

سبلنا؟

نعلها تلك الطرق التي ستتمسك لاحقاً بعد تنفيذ القرار.

سورة الروم ٣٩

أثر الفراشة

بعض الأحداث التي تبدو بعيدة نسبيًا عنا في البداية، تؤثر لاحقًا على حياتنا الخاصة وحياة الملايين من الناس حولنا.

حرب بين بلدين وأنت تعيش في بلد ثالث ربما لا يكون حتى مجاوزًا لأي من البلدين، لكن النتائج تملأك بالتدريج، وتغير من حياتك إلى درجة لم تتخيل حدوثها يوم سمعت بخبر نشوب الحرب أول مرة.

التأثيرات المتداخلة في العالم مثل الكرات على طاولة البلياردو، تطال الطاولة كلها حتى لو كان اتجاه الكرة الأولى معدداً في حيز معين.

وما يبدو في البداية خيراً رئيسياً يخص السياسة العامة في مكان بعيد. قد ينتهي ليُحدث تغييرات شخصية في بيتك ومع أفراد أسرته.

هل يمكنك أن تُحدث تغييراً كُفرد في كل هذا؟

ربما لا، لا يمكن فعل الكثير.

لكن وعيك فيما يدور سيُحدث فرقاً حتماً في تعاملك مع ما يدور.

﴿الْم ﴿ غَلَبَتِ الرُّومُ ﴿ فِي أَذَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿ ﴿ فِي
بُضْعِ بَيْنَيْنِ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿ (الروم ١: ٤).

سورة الروم تنقل لنا هذا الوعي.

حرب بين أقوى إمبراطوريتين في العالم آنذاك: إمبراطوريتي الروم
والفرس. كانت تجري آنذاك في الأناضول أو مناطق قرب الساحل الشرقي
للبحر المتوسط^(١). لماذا يكون الأمر مهمًا جدًا في مكة في وسط جزيرة
العرب؟ لماذا يفرح المؤمنون أو يحزنون أو أي شيء؟ الأمر بعيد تمامًا.

لو أن هذا حدث في عصرنا الحالي؛ لرأينا من يقول: اللهم أهلك
الظالمين بالظالمين، وأخْرِجْنَا مِنْ بَيْنِهِمْ سَالِمِينَ، بالنسبة لوعي الكثيرين
منا اليوم، الروم والفرس في سلة واحدة، ولن يختلف من ينتصر على من
في الصراع الدائر.

لكن بالنسبة للقرآن، لا سواء.

ربما ليس فقط لأن الروم كانوا أقرب - كأهل كتاب - إلى المسلمين من
الفرس.

ولا لأن تأثيرات النفوذ الفارسي في الجزيرة كانت أخطر وأعتد على
المسلمين من الروم عبر دولة المناذرة في شمال شرق الجزيرة، وتأثيراتهم
في شرق الجزيرة وجنوبها.

(١) للمزيد: السيرة مشرفة للمؤلف.

ولكن ربما أيضًا لأن هذه الحرب المتواصلة بين أقوى إمبراطوريتين في العالم وتداول النصر والخسارة بينهما كان يؤدي إلى إنهالك واستنزاف القوتين معًا، وربما يمهّد لظهور قوة ثالثة جديدة.

نحن الآن في أواخر المرحلة المكية. سورة الروم كانت من أواخر ما نزل في مكة، تفصلها عن المرحلة إلى المدينة سورتان فقط.

وعملياً كانت هجرة المسلمين التدريجية قد بدأت غالباً في تلك الفترة. الحرب في الشمال بين أقوى دولتين في العالم القديم.

لكن في الجنوب، كانت هناك نقطة جديدة بدأت في التكوّن، وعلى نحو لم يكن ربما قد لفتَ أيًا من القوتين آنذاك.

﴿وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الروم: ٦).

وسورة الروم تذكر بدورة حياة الدول والمجتمعات، وتشبّهها بدورة حياة الإنسان.

نمو، قوة، ضعف، انهيار.

﴿وَأَوَّلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِلَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ أُسَاءُوا السُّوْأَى أَنْ حَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١١﴾ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (الروم: ٩، ١١).

﴿يُخْرِجُ النَّحْيَ مِنَ التَّبِتِ وَيُخْرِجُ التَّبِتَ مِنَ النَّحْيِ وَيُخْرِجُ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ نُخْرِجُوكَ (١٩) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ (الروم: ١٩-٢٠).

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُعِينُكُمْ ثُمَّ يُخَيِّصُكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (الروم: ٦٠).

من المؤكد أن ما يشابه هذه الآيات قد وردت في سور أخرى، لكن السياق هنا - المرتبط بصراع الروم وقارس - يجعل لهذه الآيات معاني مختلفة تتعلق بدورة حياة الدول والسنن التي تتحكم بها كما تتحكم بدورة حياة الإنسان.

فلننتبه هنا أيضًا إلى أن لفظ ﴿عَمَرُوهَا﴾ عن الأرض لم يرد في أي مكان آخر في القرآن غير هنا في سورة الروم، ورد لفظ ﴿اسْتَغَمَرَكُمْ﴾ في سورة هود ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَغَمَرَكُمْ فِيهَا﴾. ولكن نسبة فعل الإعمار للإنسان لم يرد إلا في سورة الروم.

وقد ورد في صيغة التنافس: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِلَهُمْ وَلَحِينُ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (الروم: ٩).

ليس صدفة، حاشا لله، بل تذكير بمعايير المنافسة والقوة بين الدول، ليست الحرب والقوة العسكرية فقط، بل أيضًا الإعمار.

وليس صدفة أيضًا أن تأتي الإشارة إلى اختلاف الأعراق والثقافات في هذه السورة.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِعُلَمَاءٍ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (الروم: ٢١).

هذا الوصي الجديد يفتح على الاختلاف الثقافي والأعراق باعتباره آية من آيات الله في خلقه وليس أمرًا يجب الععل على إغائه.

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (الروم: ٤١).

هل كان الظلم؟ الاستعباد؟ البذخ والإسراف مقابل الفقر والجوع؟

هل هو هذه الرؤية المادية التي لا ترى إلا جانبًا واحدًا من الحياة؟

﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ (الروم: ٧).

ربما هذا كله وأكثر.

لكن ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، يرجعون إلى ماذا؟

﴿فَأَنقَضَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ

اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَسِعَ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الروم: ٣٠).

سورة لقمان ٣١

بيان وراثته

كل سور القرآن التي حملت أسماء لأشخاص في عناوينها كانت لأنبياء
ورسل: نوح، هود، يونس، يوسف، إبراهيم، عليهم السلام أجمعين.

وهناك استثناءان اثنين:

الأول هو استثناء معروف لاسم السيدة التي مثلت كل تضحيات ومعاناة
النساء عبر المصهور! مريم.

والثاني هو لقمان.

وجود اسم مريم مفهوم تمامًا لكل السياقات الإعجازية التي عاشتها
وقربها من النبوة.

لكن لقمان شيء آخر، شيء مختلف تمامًا، يجبرنا على التوقف طويلاً.

إذ ليس من السهل أبداً أن تكون في هذه المقارنة، أن يوضع اسمك في
موضع لم يكن إلا للأنبياء.

لم يكن لقمان فاتحاً عظيماً أو قائداً عادلاً مصلحاً.

لم يحصل على مكانته التي حصل عليها لأنه عابد أو زاهد، أو يسبب فعل الخير.

ربما كان كل هذه الأشياء بالمناسبة، لكننا لا نعرف ذلك! لأن القرآن لم يذكرها عنه، بل ذكر شيئاً مختلفاً.

ماذا كان لقمان؟ ما الذي نقله القرآن الكريم عنه؟
كان مربيًا.

أو على الأقل هذا ما أظهره القرآن منه، هذا هو الجزء الذي جمعه يستحق مكانته.

مُربّي؟

هذا فقط؟

نعم. كان مربيًا، قد تنظر إلى الأمر على أنه مجرد عمل تكميلي أو تحصيل حاصل.

لكن هذا العمل كان مهمًا لدرجة جعلت من لقمان في مكانته تلك.

قد ينظر البعض أيضًا إلى هذا العمل على أنه مجرد تظهير، وهي الكلمة التي صارت تعامَل كما لو كانت سببة أو منقصة حاليًا، رغم أنها عالية المقام في حقيقتها؛ لأنها تعبر عن أرقى ما يمكن أن للإنسان أن يمارسه: التفكير.

بكل الأحوال، سواء كانت التربة تنظيراً أو تفكيراً، فقد كانت أساسية لدرجة جعلت من لقمان في الموضوع الذي هو فيه.

لكنه لم يكن أي مربٍ بالتأكيد.

كان حكيماً.

وهو الحكمة، أمر ظاهر في هذه السورة.

﴿وَالَّذِي يَذُكُّ آيَاتِ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ (لقمان: ٢).

﴿عَالِمِينَ فِيهَا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (لقمان: ٩).

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّا نَبْذُرْ لَهُ شَيْئًا مِمَّا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ (لقمان: ١٢).

﴿وَلَوْ أَنَّا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ آبْحَارٍ مَا نَفِذَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (لقمان: ٢٧).

الحكمة إذن مرة وصف للكتاب، ومرة وصف لله عز وجل.

ومرة وصف لما أتى الله لقمان.

وهذا حضور مكثف للحكمة في سورة عدد آياتها ٣٤ فقط.

الحكمة إذن مصدرها الله، صفة منه، وهي صفة لكتابه، وهو يعينها لمن شاء.

الإحسان أيضاً له حضور مكثف في سورة لقمان.

﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴾ (لقمان: ٢).

﴿وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ (لقمان: ٢٢).

الآية الأخيرة في السورة ربما تشير أيضاً إلى أمر يرتبط بالحكمة.

﴿وَمَا تَذَرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (لقمان: ٢٤).

قاله وصف نفسه وكتابه بالحكمة. ثم انتهت السورة بوصفه بالعلم والخبرة.

وهل الحكمة - عندما تؤتي للبشر - ليست إلا هذا الناتج من العلم والخبرة والإحسان؟

وهل يمكن أن يكون هناك حكمة بعلم فقط، أو بخبرة فقط، أو بإحسان فقط.

بل هو المزيج من هذه الصفات الثلاثة الذي يؤتي ثماره في الحكمة؟

علم دون خبرة محض معرفة بلا جذور تطبيق عملي.

العلم مع الخبرة! قدرة وتمكُّن.

لكن بدون بوصلة لاستخدام هذه القدرة وتوجيهها في الاتجاه الصواب.

إنما الإحسان هو هذا العنصر الثالث الذي يجعل من المزيج ينتج الحكمة.

أمر آخر يجب أن نتنبه له هنا هو حضور الأبوة، أو العلاقة بين الأبناء ووالديهم في سورة لقمان.

هناك وصية لقمان بالوالدين، وهناك أيضاً الإشارة إلى ﴿يَا أَبْنَاهُ اتَّقِ اللَّهَ وَابْتَغِ دِينَكَ أَجْرًا وَمَا يَنْبَغِي لِلدِّينِ أَنْ يَسْأَلَ دَيْنًا وَلَا مَوْلًى وَلَا تَبًا﴾ (لقمان: ١٧) ﴿وَلَا تَقْرَبُوا أَمْوَالَهُمْ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِمْ سَهْوًا وَأَقْرَبُوا بِأَمْوَالِهِمْ الْيَوْمَ الَّذِي تَصَدَّقُونَ فِيهَا وَلَهَا عَلَيْكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (لقمان: ٢٣) وأيضاً ﴿وَنَعَلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾، هذا بالإضافة إلى أن حوار لقمان كان مع ابنه.

هل يشير هذا إلى أن عمق الحكمة وجوهرها هو هذا التواصل الذي يمرر عصارتها وخلاصتها إلى الجيل التالي؟ وهذا هو الاستمرار الحقيقي، مهما أنجزت وحققَت من مآثر، فإن عدم محافظتك على الجيل التالي يعني ضياع كل ما حققته.

والسورة تشير أيضاً إلى أن ليس كل الآباء يفتني اتباعهم بالضرورة ﴿قَالُوا بَلْ تَنَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْنِهِ آباءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ (لقمان: ٢١).

لكن ليس كل الآباء يفتني بجاهل ما يقولون أيضاً.



أهم ما يمكن أن تمنحه لأولادك ليس ما ستورثه لهم ولا اسمك ولا المكانة الاجتماعية.

بل هو أشياء تقولها لهم. وتبقى فيهم ما عاشوا، يلجؤون إليها في شدائدهم وامتحاناتهم ومفترقات الطرق في حياتهم. أو حتى في حياتهم اليومية.

ربما تكون نصائح صغيرة عن كلمة مهذبة لطيفة يقولونها هيمنعون
الود لمن حولهم.

أو قد تكون كلمة ضمن موقف صلب، يتقوون به ويقوون من حولهم.
هذا أهم ما يمكن أن يرثوه منه.

بينما نقرأ وصايا لقمان وحكمته ستوقفنا هذه الآية:

﴿وَلَوْ أَنَّنَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا
نَفِذْتُ كَلِمَاتِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (لقمان: ٢٧).

هذه الأبحر السبعة التي يمكن أن تنفذ لو أصبحت مداً لكلمات الله،
هل تشمل كلمات الحكمة التي تعكس قدرة الله وتقرب له عز وجل؟
هذه الكلمات التي على ألسنة البشر ولكنها تقرب كلمة الله لهم، هل
هي ضمن هذا المداد؟
ربما.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا
هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ (لقمان: ٦).

عادةً يتبادر إلى أذهانتنا أن لهو الحديث هو الحديث القافه العادي.
لكن لو دققنا في الآية؛ لوجدناها تحدد ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

ونحن نعرف أن الآيات القرآنية تُستخدم أحياناً لهذا، ليس الحديث القاهه وحده، بل أحياناً حديث مليء بالآيات وبالأحاديث، ولكنها توظف بعيداً عن مسارها تماماً - بقصد أو بغير قصد - فتضل عن سبيل الله ومقاصده.

كم من سنن في الهيئة أو اللباس استخدمت للتعطية والإلهاء عن سبيل الله، عن مقاصده.

المحك دوماً في ذلك الناتج الذي ينبثق من تفاعل العلم والخبرة والإحسان.

بعبارة أخرى: في الحكمة.

سورة السجدة ٣٢

رعشة القلب الأولى

يحدث كثيرًا أن تقطعي الألفة والرتابة على مشاعرنا حتى نفقد حرارتها الأولى، ويَصْغَى الأمر مجرد تعود رقيب لا أثر للهبب أو شفق فيه.

يحدث هذا كثيرًا في العلاقات الإنسانية، وأيضًا في علاقاتنا مع الأماكن والأشياء. وربما حتى مع المهنة التي شغفنا بها يومًا، أو الهواية التي كانت تشغل وقتنا في مرحلة ما.

يدخل الملل، الرتابة، والتشاوب.

يحدث هذا كثيرًا.

ويحدث أحيانًا - وأحيانًا كثيرة جدًا - في علاقاتنا مع الإيمان بالله عز وجل، تعالى سبحانه عن كل تشبيه.

القارئ الذي كان يبكينا قبل سنوات، صرنا نمر على صوته مرور الكرام.

الداعية الذي كانت كلماته تهزنا قبل عقد من الزمان، صار لا يحرك فينا أي شيء، الآيات التي كانت تجعل أنفاسنا تضطرب، لم تعد كذلك.

يحدث هذا كثيرًا، وكثيرًا جدًا.

وقد نجد الكثير من الأسباب التي تفسر هذا، أسباب تمزج بين السياسة وعلم الاجتماع، فمثل تيار الإسلام السياسي وكوارثه، الفضائعات التي ارتكبت باسم الدين. التصرفات الشخصية لهذا الرمز أو ذاك. وكل هذا مسحيح ومؤثر ولا بد.

ولكن هذا الفتور كان سيحدث حتى لو لم يتغير العالم من حولنا، وحتى لو بنورط، فلان أو فلان فيما تورط به، الفتور هو جزء من طبيعة الأشياء. من الطبيعي جداً أن يحدث، على الأقل مع أغلب الناس، أن يتحول الإيمان بالتدريج ومع مرور الوقت إلى مجرد تصديق.



سورة السجدة تسلط الضوء على جزء من الفرق بين الإيمان وبين التصديق.

تجعلنا نراجع ما نعتقد أنه إيماننا.

تضعنا أمام مشهد لهذا الإيمان الحقيقي، ثم تضعنا أمام إيماننا نحن.

هل هذا يشبه ذلك؟



لكي تصل بنا السورة إلى هذا المشهد، تمر بنا أولاً بالجهة المعاكسة.

تأخذنا إلى المكذابين. بينما هم يكذبون بأهم وأدق شئئين في الإيمان:

الكتاب.

والقيامة.

هذان هما الشيطان اللذان يقف عندهما الكثير من الرافضين للإيمان. ويتخذونهما سبباً في الابتعاد عنه إلى الجبهة المماكسة.

الكتاب أو الوحي، ويوم القيامة، البعث.

أغلب غير المؤمنين يمكنهم أن يقرروا بوجود الله، ويقدرته على خلق كل ما في الكون.

لكنهم يقفون عند هذا دون خطوة إضافية.

أن يتحدث هذا الإله العظيم الخالق مع أحد البشر بوسيلة ما، أو أن يعيد إحياء كل من مات على الأرض، هذا يبدو بالنسبة لهم غير ممكن.

الخلق موجود ومشاهد؛ لذا فالإيمان بوجود خالق ما أمر غير صعب.

لكن الوحي والحساب؛ هاتان هما القضيتان اللتان يقف عندهما البعض، ويفلون راجعين.

﴿الْم ﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ (السجدة: ١٠٢).

﴿وَقَالُوا إِنَّا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَاذِبُونَ ﴾ (السجدة: ١٠٠).

ما العمل؟

لا شيء مباشر. هؤلاء سيُعرفون لاحقاً.

﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مِّلْكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ ﴿١٢﴾
تَرَىٰ إِذِ الْمُبْعِرُونَ تَاكُؤُ رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْغِزْنَا وَسَيِّغْنَا فَارْجِعْنَا لِنَعْمَلَ
صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٣﴾ (السجدة: ١٢، ١٣).

لكن لماذا؟ لماذا لاحقاً؟

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هَدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ
الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ (السجدة: ١٣).

هذا هو الامتحان، يمكن بسهولة أن يجعل الله الكل مؤمنين، لكن أين
الاختبار في الأمر لو كان هكذا؟

مَنْ هُوَ الْمُؤْمِن حَقًّا فِي كُلِّ هَذَا؟ هل هُوَ الَّذِي صَدَّقَ بِالْوَحْيِ وَيُؤْمِنُ
بِالْقِيَامَةِ؟

لا، بل هُوَ فِي مَرَحَلَةٍ مَا بَعْدَ التَّصَدِيقِ، الْإِيمَانِ.

﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ
لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ ﴿١٤﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا
رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٥﴾ (السجدة: ١٤، ١٥).

هذا هو مشهد الإيمان الأعلى، أو على الأقل هذا المشهد يعبر عن جزء
كبير من هذا الإيمان.

أَنْ يَخْرُ الْمَرْءُ سَاجِدًا، أَيْ أَنْ يَخْضَعُ دُونَ وَعْيٍ مُسَبِّقٍ مِنْهُ أَوْ إِرَادَةٍ،
إِيمَانُهُ يَتَصَرَّفُ عَنْهُ دُونَ أَنْ يَسْتَكْبِرَ، دُونَ أَنْ تَمْنَعَهُ عَنْ ذَلِكَ أَيْ «أَنَّهُ»
مُتَسَلِّطَةٌ تَرَىٰ فِي خُضُوعِهِ أَوْ فِي خُضُوعِ عَقْلِهِ إِهَانَةً لَهَا.

﴿تَتَجَافَى﴾

هذا اللفظ الذي عبّر به القرآن عن علاقة هؤلاء مع أسرتهم هو لفظ يمتلك سحرًا خاصًا، لم يرد سوى مرة واحدة في القرآن في هذا الموضع، وهو يعبر عن علاقة تباعد بين الشخص وسريره، لكنه تباعد متقطع، يترك الشخص سريره - على حاجته الطبيعية له - لشوقه إلى موعد آخر، يدعوه فيه ربه ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾.

هذا المشهد يعبر عن «الذين آمنوا».

فهل هو يعبر عنا؟



كيف السبيل للوصول إلى هذا؟ الخروج من التصديق إلى الإيمان؟
عموم السورة منمورة باليقين.

واقين هو مرحلة عليا من الإيمان. درجة من درجاته.

لكن عندما تضع «اليقين» هدفًا لك، فإنك قد تصل إلى ما دونه، إلى الإيمان.

كيف السورة منمورة بهذا؟

﴿قَدْ نَزَّلَ الْكِتَابَ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾.

﴿فَارْجِعْنَا تَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ﴾.

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾.

كلها إشارات إلى يقين لا لبس فيه، وجوده هو المنجى، وغيابه إشارة هلاك.

وهو محرك إيمان المؤمن، الذي «يتجافى جنبه عن مضجعه».

كيف السبيل إلى هذا اليقين؟

ليس سهلاً ولا وصفة تسهل الوصول له.

لكن أي صاحب يقين عليه أن يحدد أمرين لكي تكون هدفاً ليقينه:
الوحي والبعث.

هذا إن الأمران يجب أن يكونا حاضرين في ذهنه. مستحضراً مشاهدتهما
في ذاكرته المستمدة من القرآن.

لو تحقق جزء من اليقين فبهما تحديداً، هالباقي تفاصيل.

تشير لنا السورة أيضاً بطريقة في ذلك قد جعلنا نرجع إلى الله.

﴿وَلَنَذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾

(السجدة: ٤٦).

استثمر مشاكلك الدنيوية استثماراً أمثل في جملك فتقرب إلى الله،
وربما يقودك هذا إلى ما بعد وما بعد، مصلحة؟ بالتأكيد مصلحة، لا تنس
أنك عبد، اخلع أنك كما خلع موسى نعليه، نعم، أنك مثل نعليه.
نعم، هي مصلحة، وهو يقولها لك صراحة، لعلك ترجع.

ثمة حوار أخير ينهي السورة يعبر أيضاً عن اليقين.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ
كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظَرُونَ﴾
(السجدة: ٣٠).

﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ﴾.

بالضبط كما تنتظر أذان المغرب في نهاية يوم رمضان ونحن نعرف أنه
سيأتي.

كذلك انتظر يوم الفتح، يوم البعث، يوم يتأكلون من أنهم كانوا في
الجهة الخطأ.

سورة الأحزاب ٣٣

كورس تعليم حفر الخنادق

البيوت لا تحتاج فقط إلى قواعد وسقوف وجدران.

بل هي تحتاج أيضًا إلى خندق حولها.

قد يبدو ذلك أمرًا عتريًا في البداية، ولا يُدرج في خريطة البناء.

لكن كل من مرَّ بتجربة بناء أُسرة يعرف تمامًا عما أتحدث، يعرف كم هو مهم وأساسي أن يكون هناك خندق ما.

ليس الأسرة أو البيت وحده يحتاج إلى خندق.

بل كل منا يحتاج إلى هذا الخندق. إلى خندق ما بمعزل عن وجوده ضمن أسرة أو لا.

نحتاج إلى هذا الخندق. بل إلى عدة خنادق.

بعضها تحميّننا من الخارج.

والبعض الآخر تحميّننا من الداخل.

من أنفسنا، من التماذي.

كلنا نعرف هذا بطريقة ما. لكن ربما دون أن نفعل شيئًا تجاهه.

سورة الأحزاب التي نزلت أثناء معركة الخندق تضع معمولاً في يد كل منا، وتقول: احضر خندقك بنفسك.

درس الحياة الأول في حضر الخندق.

كلنا يحتاج إلى هذا الخندق.

حتى الرسول - عليه الصلاة والسلام - نفسه.

حتى هو.

الخندق الأول الذي يحتاجه الجميع:

«التقوى».

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُطِيعُوا الْكَاذِبِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (الأحزاب: ١)

اليوم يمكن لعبارة «اتق الله» أن تثير غضب من تقال له، كما لو كانت انتقاصاً منه ومن تقواه، أو كما لو كان هو فوق مستوى التذكير بالتقوى.

لكن ها هي السورة تفتح بهذا الأمر، وبهذه الصيغة المباشرة للنبي - عليه الصلاة والسلام -، لا أحد فوق هذا الأمر، لا أحد فوق أن يحتاج هذه النصيحة، هذا الخندق.

هذا هو الخندق الأول: التقوى.

وبالفعل، ما الذي يمكن أن يعبر عن التقوى أكثر من الخندق الذي يقيك من المخاطر؟

هذا الخندق لا مفر من حفره، إن لم تغل. فأنت تحفر ما سيقودك إلى الهلوة.

﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جُوفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمْ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكَُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ (الأحزاب: ٤).

يحميك هذا الخندق من أن يدخلك قلب آخر يشوش على قلبك، من أن يتسلل قلب إلى قلبك، فيجعل لك قلبين. وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه؛ لأن هذا ببساطة سيخرب عمل القلب الأصل.

يحميك الخندق أيضًا من تداخل الحقيقة مع الوهم. علاقات القرابة والدم لن تتغير فقط بكلمة تقولها لهذا السبب أو ذلك، زوجتك لن تصبح كأهلك فقط لأنك تريد عقوبتها دون أن تطلقها، وهذا الغريب لم يصبح ابنك فقط؛ لأنك تريد زيادة عدد الذكور في قبيلتك كي تزيد قوتها.

معايير القوة والارتباط ستتغير من الآن فصاعدًا، ويجب أن توضح دومًا يحضر هذا الخندق الذي يعيها عما سواها.

سابقًا، كانت السلطة الأبوية هي السلطة الأعلى التي يمكن تخيلها في المجتمع القبلي، السلطة الأبوية التي لا تُمتل في الأب فقط، بل في الجد وفي زعيم القبيلة.

لكن اليوم الأمر مختلف.

هناك نوع مختلف من السلطة قادم الآن، سلطة مصدرها الإيمان، وقوامها الإيمان، وقوتها التنفيذية بالإيمان.

إنها السلطة التي تهتم بك أكثر من اهتمامك بنفسك: لأنها ببساطة تعرفك أكثر مما تعرف نفسك.

﴿وَالَّذِي أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ مِنْهُمْ أُولَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ (الأحزاب: ٦).

كيف تكون أزواج أمهات المؤمنين دون أن يكون هو عليه الصلاة والسلام أباً للمؤمنين؟

ليس هذا هو المعتاد؟ إن كانت فلانة أمك، فزوجها أبوك.

نعم، لكن هذا ليس ضمن المعتاد. هنا نخرج من السلطة الأبوية التقليدية إلى شيء جديد مختلف، تتمثل السلطة الجديدة في شكل من أشكالها بهذه الأمومة، الأمومة احتواء وعطف وحنان واحتضان، وأنت من خلال علاقة الأمومة هذه بزوجات النبي، تنتمي لبית النبوة، تكون ربيبا فيه دون أن تختلط علاقتك فيه عليه الصلاة والسلام لتضيق علاقة أبوة بدلا من علاقة رسول بمتبعيه.

أمهاتنا هنّ اللاتي قمن بنربيتنا.

وهنّ كذلك فعلاً عبر القرون، ودور أمهات المؤمنين هو هذا.

كل واحدة منهن: السيدة خديجة، السيدة عائشة، السيدة حفصة، لكل منهن دور في غرض شيء ما هنا.

أو هذا ما يجب أن يحدث على الأقل.

﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا ۝ هَٰذَا الَّذِي اُنْبِئَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ (الأحزاب ١٠: ١١).

ثم تأخذنا السورة إلى عمق المواجهة التي تطلبت حفر الخندق. إلى غزوة الأحزاب.

لقد جاءوا من كل مكان، من الداخل والخارج، زاغت الأبصار: إذ لم يعد هناك مكان واحد يمكن التركيز عليه، القلوب عند الحناجر، تكاد تخرج من هول ما تشعربه، يكاد يخرج ما بها من إيمان في خضم محاولتنا الإمساك بالقلب، ﴿وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا﴾.

الحصار من الخارج، والزلازل من الداخل.

كثيراً ما حدث ذلك. كثيراً ما انتظرنا أن تأتي العاصفة لتحميننا، لكن لم يحدث، ثم أتت العاصفة، أوريا أقت لكن لم نحسن استثمارها، بل إننا انتظرنا العاصفة المنقذة ونحن لم نحفر الخندق أصلاً.

﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ۝ وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ (الأحزاب ١٢: ١٣).

في كل مرة لم تأت العاصفة، أو لم يأت النصر، أو جاءت الهزيمة، كان يخرج البعض منا، أحياناً يخرج جزء منا ليقول: أين وعد الله؟

والله لم يعدنا أصلاً بهذا المعنى الذي نحاول أن نتشبث به، بل قدم لنا مجموعة أسباب تقود إلى نتائج، لم تنجز الأسباب، ولكن انتظرنا النتائج، ولما لم تحدث، قلنا: أين وعد الله؟ وذهب البعض بعيداً في ذلك إلى حد ترك الإيمان كله، بناءً على مجموعة افتراضات خاطئة.

﴿يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِذْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ (الأحزاب: ١٣)
الكثيرون منا تركوا بيوتهم عورة فعلاً، بلا خنادق، تركوها عرضة لكل ما يأتي من سموم، البعض منا كان فخوراً بذلك أصلاً، وطلق يقدم الأسباب الموجبة لذلك.

وكانت النتيجة واحدة: ﴿إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾.



﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (الأحزاب: ١٨).

﴿الْمُعَوِّقِينَ﴾ يكسر الواو، الذين يعيقون الناس، ربما أحياناً تحدث الإعاقة بنشر البأس، وأحياناً بنشر أمل خيالي بسقف توقعات مرتفع، يقود إلى اليأس بعد أن يثبت فشله، ليست الإعاقة فقط في دعوات التحبيط والتشجيع، بل أيضاً في استخدام الأمل كمخدر، في الترويج أن النصر «صبر ساعة» بمعزل عن صبر سنوات من العمل، في النظر إلى

السماء باعتبارها ستندخل في اللحظة الحاسمة لتقلب كل النتائج، كثيرون هم من يروجون لكل هذا، وهم «مموّقون» على نحو أسوأ بكثير من أصحاب الأفكار السلبية: لأن نتائج هؤلاء تكون أشدّ وقفاً على المدى البعيد.



﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (الأحزاب: ٢١).

هذا هو اتخندق الأهم في حياة كل منا، أن نتبع خطاه، أن نحاول فهم ما كان يفعله وكيف كان يفكر، وكيف كان ينصرف.

لماذا تأخذنا سورة الأحزاب وغيرها من السور إلى داخل بيته. إلى مشاكل قد يتعرض لها كل بيت؟ لأنه من المهم جداً أن نفهم واقعته وبشريته، لم يصل لما وصله دون المرور بالمشاكل اليومية لكل الناس، لم يكن لديه قدرات خارقة تجعل كل مَنْ حوله يطيعونه، بل كان يجاهد من أجل ذلك، ومعرفة ذلك بالنسبة لنا أمر أساسي في الاقتداء به، لا يوجد حل سحري لأي مشكلة، بل مواجهتها أولاً كما هي، وعرض الحلول الممكنة، حتى مع أصعب هذه الحلول.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ تَسُبُّكَ أَهْلُ مِنَ النِّسَاءِ إِنْ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَحْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ (الأحزاب: ٣٢).

علينا أن ننشبه هنا إلى أن كل شخصية عامة - في أي مجال كانت شهرتها - تتعرض للنظر إليها من خلال عدسة مكبرة، يحدث هذا حتى مع مشاهير الفن والرياضة، إذ تتم مراقبة زوجاتهم أو أولادهم على نحو

يجعل من أي هفوة طبيعية حدثاً جليلاً وأمرًا كبيراً، الناس تتعامل مع المشاهير عمومًا بمعايير مختلفة عن تلك التي تعامل نفسها بها، وهذا أمر يكاد يكون جزءاً من الطبيعة البشرية في كل زمان ومكان، مهما كان هذا المشهور بسيطاً أو متواضعاً أو مُصِراً على أن يعيش حياته كما الآخرين، الناس لن يتركه يفعل ذلك تماماً، وستتعامل مع عاداته باعتبارها حدثاً خارقاً، ونفس الشيء سيحدث مع أبنائه أو أهل بيته.

إذا كان يحدث مع المشاهير العاديين، فهو يحدث من باب أولى مع مشاهير الدعاة والمصلحين، ومن باب أولى وأولى مع الرسل والأنبياء.

السورة تحفر خنادق لحماية أهل بيت النبي - عليه الصلاة والسلام - من هذه الطبيعة البشرية، لحمايتنا من التمادي في ذلك، من النظر لهم بعين تجعلهم ليسوا من البشر؛ لأن هذه النظرة بالذات هي التي تسيء لهم عندما تتعامل مع بشريتهم باعتبارها أخطاءً لا تُنْقَر.

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾
(الأحزاب: ٣٣).

لا يمكن لدور البيت التربوي - دور الاقتداء والتعليم - أن يكون فاعلاً ومقتاعاً عبر المصور إن لم يكن رجس هذه النظرة التضخيمية قد زال، لا يمكنك أصلاً أن تقتدي بشخص أو تتعلم منه إن كنت تعامله على أسس غير بشرية.

وأهل البيت - بالتعريف - هم مَنْ حملوا بيت النبوة لنا، بأخلاقه وسلوكياته، والتعامل معهم على أسس تضخمهم وتحاسبهم على طبيعتهم البشرية يعطل عملية التربية نفسها.

الخنفاق التي وُضِعَتْ هنا في السورة، والتي حققت نوعاً من الحماية لأهل بيته عليه الصلاة والسلام، كانت ضرورية لجعل دور أهل البيت التربوي أكثر نجاعة وتركيزاً.

وسورة الأحزاب هي التي وصفته - عليه الصلاة والسلام - بالسراج المنير.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَذَاجِبًا إِلَى اللَّهِ يَأْذِيهِ وَيَسْرَاجًا مُنِيرًا﴾ (الأحزاب: ٤٥، ٤٦).

﴿وَيَسْرَاجًا مُنِيرًا﴾.

سراجاً منيراً نحتاجه أثناء حفر الخندق، في الظلمة، بينما نتلمس طريقنا للخروج.

نعم، سراجاً منيراً، رغم أننا لم نتعامل معه على هذا الأساس في أكثر الأحيان.

وهي السورة التي نزل فيها الأمر بالصلاة على النبي - عليه الصلاة والسلام -.

﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَمْЛИحًا﴾ (الأحزاب: ٥٦).

وهذا خندق آخر نحفره حول علاقتنا به عليه الصلاة والسلام. علاقتنا التي يمكن أن تكون أهم علاقة إنسانية في حياة كل منا، خندق يجمعنا من الإفراط والتضيق في هذه العلاقة، إذ تمثل الطبيعة البشرية إلى الانحياز إلى جهة من الطرفين؛ إما الإفراط - الغلو - الذي يحول الأنبياء والرسل - وحتى الأولياء - إلى أشياء آلهة، وأحياناً إلى آلهة. أو التضيق المعاكس، الذي يسقط فيه آخرون، حيث يتم نزع كل ما هو مقدس عن الأنبياء.

«الصلاة على النبي» هي الخندق الذي يمنعنا من السقوط هنا أو هناك.

فهي تمنحه مكانة مقدسة بلا شك.

لكنها في الوقت نفسه، تضع مكانته بمعزل عن الغلو.

كيف؟

لأن الصلاة على النبي هي دعاء له، أي إنك تدعو الله له عليه الصلاة والسلام.

لا يمكنك أن تصلي على النبي وأن تصلي له.

مجرد كون أعظم عبادة ترتبط به عليه الصلاة والسلام هي الدعاء له: فهذا أمر يحمي مكانته من الغلو. على الأقل من ناحية التقيد.

وهذا الخندق الذي يحوط مكانته عليه الصلاة والسلام، يرتبط بخندق آخر يحيط بك، كما لو أن ثمة قناة موصلة بين الخندقين.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۖ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۖ هُوَ الَّذِي يُصَلِّيْ عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ (الأحزاب: ٤١: ٤٣).

الله يصلي علينا: بمعنى الرحمة، وملائكته: بمعنى استغفارهم لنا.

وخروجنا من الظلمات إلى النور.

حدث ذلك عبر السراج المنير، الذي نظم طريق الخروج معه عليه الصلاة والسلام.

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ (الأحزاب: ٧٢).

تحتاج الأمانة إلى خنادق حولها لحمايتها.

وهذه السورة تقدم لنا علامات مهمة في حضر الخنادق.

سورة سبا ٣٤

أوهام القوة وأوهام الضعف

كثيرون منا يمتلكون عن أنفسهم أوهامًا عديدة، بعضها أوهام تجعلهم أكبر أو أقوى أو أفضل أو أعلم أو أجمل، وبعضها أوهام تجعلهم أصغر أو أضعف أو أكثر جهلاً أو أقيح.

في الحالتين، هذه الأوهام يمكن أن تأخذ صاحبها إلى هاويته، ليس مباشرة بالتأكيد، لكن في الطريق إلى الهاوية ثمة إشارات إلى ما هو قادم. نرى ذلك كثيرًا مع أشخاص حولنا نعرفهم ويعرفوننا، ربما نراه أحيانًا مع أنفسنا، أحيانًا نتتبعه إلى الإشارات المعذرة قنمस्क اللجام، وأحيانًا لا نتتبعه؛ فنذهب إلى النهايات.

أوهام القوة والضعف تلك تمتاش على بعضها البعض، مثل طرفي معادلة لا وجود لأحدهما دون الآخر.

أولئك الذين يتوهمون القوة يمارسونها على أولئك الذين يتوهمون الضعف، والذين يتوهمون أنهم الأفضل يؤثرون على أولئك الذين يتوهمون العكس، كل وهم يقابل ضده في معادلة تحتاج إلى الأوهام كي تتوازن.

ما علاقة كل هذا بسورة سبا؟

الأمر يتوضع في مركز السورة، الحدث الذي أخذَ اسمها: سبا.

ملخص ما أشارت إليه الآيات أن سبا كانت تشهد ازدهاراً اقتصادياً كبيراً، قائماً بشكل كبير على تنوع منتجاتها الزراعية. ومن ثمَّ الإتجار بهذه المنتجات، وكانت المرحلة التجارية التي تباع منتجات سبا تمر بطريق فيه قرى ظاهرة^(١)، وهذا يعني وجود مراكز مدنية طيلة الطريق على نحو يجعل الطريق آمناً؛ إذ إن قُطَاعَ الطرق لا يمكنهم غزو قوافل التجارة إلا عندما تمر في طريق مقفر بعيد.

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ﴾ (سبا: ١٨)

ورغم ميزة هذا الأمر، إلا أنه يمكن أن يكون عيباً في حسابات من يرغب بالمزيد من الربح. فالطريق الآمن يمنع التجار من فرصة الاحتكار ورفع السعر، يمكن لأي كان أن يجلب نفس البضاعة من مصدرها الأصلي عندما يكون الطريق آمناً^(٢).

لذلك فقد فضل الملأ في سبا التضحية بأمان الطرق في سبيل المزيد من الأرباح.

﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مَضْرَقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (سبا: ١٩).

أوهام القوة جعلتهم يتصورون أنهم سيكونون قادرين على تحقيق الحفاظ على أمن قوافلهم واحتكار تجارتهم وتحقيق المزيد من الأرباح.

(١) مفصل لتاريخ العرب قبل الإسلام الجزء ١٣ صفحة ٣٤١.

(٢) "قالوا ربنا باعد بين أسفارنا. رؤية تدبر اقتصادية" يحيى البوليني موقع المسلم نت.

لكن الضرية جاءتهم في مصدر تجارتهم الأصلي: في المنتجات الزراعية.

وقد أدى انهيار سد مأرب إلى أكبر هجرة من اليمن إلى الجزيرة العربية.



لكن السورة تضم أيضاً قصة أخرى يمكن أن نرى فيها هذا الوهم من جديد.

﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبَ وَتَسْلِيمٍ وَجَعَلْنَاهُمْ جُلَّاتٍ وَأَعْدُوهُمْ رَاسِبَاتٍ اْعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ سُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَ الْجِنَّ أَنَّ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾ (سبا ١٣: ١٤).

الجن هنا كانوا يعملون ما لا يستطيع البشر فعله، كانوا متقدمين بطريقة ما على بقية البشر، وذقهم هذا إلى توهم أنهم الأعلم، بل دفعهم هذا إلى تصور أن علمهم لا حدود له، إلى أن اصطدموا بعدم معرفتهم بوفاء سليمان رغم مرور بعض الوقت على ذلك.

يحدث هذا كثيراً اليوم، تحول الإيمان بأن العلم لا حدود لقدراته وأنه قادر على الرد على كل الأسئلة وإيجاد كل الحلول، هذا الوهم شائع جداً اليوم، وهو من أسباب الإلحاد الجديد، شمة هاوية تنتظر هؤلاء. مع أسئلة يتجاهلوها أولاً لأنهم يعرفون أن العلم - بطبيعته - لا يمكنه أن يجيب عليها، ثم يعضون إلى ما أبعد من ذلك، يقررون أن اللا جواب هو جواب بحد ذاته.

إنه وهم آخر من تلك الأوهام التي يعتاش عليها البعض، ريثما تؤدي بهم إلى هاوية ما.

على بُعد آيات من كل هذا سنرى ذلك الحوار:

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَظْعِمُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنَّنَا لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣٠﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَظْعِمُوا أَفَحُنَّ صَدَقَاتُكُمْ عَنِ الْهَدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَظْعِمُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللهِ وَنَفْعَلُ لَهُ آثَدًا وَأَسْرُوا الثَّمَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَتَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُخْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾ (سبا ٣٠: ٣٢).

ودور طاحونة التلاوم وتبادل الاتهامات، أصحاب أوهام الاستضعاف والصفار يلومون أصحاب أوهام القوة والاستكبار، وهؤلاء بدورهم يلومونهم ويبرثون أنفسهم، قصة كل يوم، ومكر الليل والنهار يحيق بالجميع، والأغلال في النهاية تسحب الجميع، لا فرق كبير بين متوهم بالقوة ومتوهم بالضعف، الكل مجرم بالجريمة ذاتها لكن بأدوات مختلفة. وتنتهي السورة بغائمة موحية جداً، تجعلنا جميعاً في مواجهة هذه السبأ التي قد نسكنها دون أن نعلم، تجعلنا نراجع أوهامنا التي تؤمننا التعامل معها على أنها حقائق لا تقبل الشك.

الحق في مواجهة الباطل، في مواجهة الوهم الذي لا يبدئ ولا يعيد.

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْتَغِيكَ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبَدِّلُ الْبَاطِلَ وَمَا يُعِيدُ﴾ (سبا: ٤٨: ٤٩).

﴿قُلْ إِنْ سَأَلْتُ فَإِنَّمَا أَجِبُ عَلَى نَفْسِي وَإِنْ اسْتَشَيْتُ فِيمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ وَلَوْ تَرَى إِذْ قَرَعُوا قُلُوبَ قَوْمٍ فَأَخَذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾ (سبا: ٥٠: ٥١).

الوهم مكان قريب جداً، تلك الأوهام التي تعودنا إلى الهاوية قريبة جداً منا، أقرب مما نتخيل، هي في داخلنا، في أعماقنا.

﴿وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاقُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ (سبا: ٥٢).

الوهم بدأ قريباً، ثم قادنا إلى بعيد، إلى هاوية سحيقة لا رد يأتي منها ولا جواب.

﴿وَقَدْ حَكَمُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَذْفُونَ بِالْقَبْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَجِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ﴾ (سبا: ٥٣: ٥٤).

ذلك الشك المريب، قد يكون هو هذا الوهم الذي ينزلق البعض إليه.

في حياة كل منا سبأ ما، وهم قوة أو ضعف ما، أو أي وهم مزخرف آخر يعبد طريقنا إلى الهاوية.

في حياة كل منا خطوط طول وخطوط عرض تحاول أن تعودنا إلى سبأ ما.

المهم أن نكون واعين بما هو، وما هو حق.

سورة فاطر ٣٥

عن تحديد المواقف والفرص الثانية..

منذ أن تبدأ رحلة حياتنا وهناك خيارات تحتّم علينا أن نحدد موقفًا تجاهها.

منذ البداية المبكرة لها إلى نهاية الرحلة

﴿وَاللّٰهُ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ اَحَدٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ اَزْوَاجًا وَمَا تَحِيلُ مِنْ اُنْثٰى وَلَا نَضَعُ اِلَّا بِعِلْمِهٖ وَمَا يُعْمَرُ مِنْ مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهٖ اِلَّا فِي كِتَابٍ اِنَّ ذٰلِكَ عَلَى اللّٰهِ يَسِيرٌ﴾ (فاطر: ١١).

في هذه الرحلة، لو نظرنا لها من بعيد دون تفاصيل، سنرى أن الأمر يمكن أن يُختزل - على الأقل في أجزاء كبيرة منه - إلى أن تكون هنا أو هناك، أن تكون مع الحق أو الباطل، أن نحدد موقفك إن كنت معه عز وجل، أي مع نفسك.

أو أن تكون قد تحالفت ضد نفسك، واتخذت نفسك عدوًا.

﴿اِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوْهُ عَدُوًّا اِنَّمَا يَدْعُوْهُ لِئَسَا يَدْخُلَ فِيْكُمْ يَكُوْنُ مِنَ الْاَصْحَابِ السَّعِيْرِ﴾ (فاطر: ٦).

من أجل القدرة على تحديد المواقف يجب أن تميز بين ما هو مختلف، وما هو ضد.

كثيرون لا يميزون بين الأمرين. يتوهمون أن كل اختلاف هو أمر يجب أن تكون ضده. وينسون أن الأمر يتدرج أحياناً مثل الطيف، مثل أفضة متدرجة لتفسي الملاك.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولَى أَجْنَحَةٍ مِّنْهُنَّ ثَلَاثٌ وَرُبَاعٌ يَرْزُقُنَا فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (فاطر: ١).

بعض الأمور المختلفة لا تكون مخالفة فعلاً لما سبق. لكننا عندما لا نميز بين الأمرين، نستقط في فح محاربة كل شيء، والنصور أنه من حزب أصحاب السعير.

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنَ كُلِّ تَاكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ جَلِيَّةً تَحْبُسُونَهَا وَتَرَى الْفُلُكَ فِيهِ مَوَاجِرَ يَبْتَغُوا مِنْ قَضِيهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (فاطر: ١٢).

البحران مختلفان، من السهل جداً على من لم يعرف واحداً منهما أن يتصور أن هذا الذي لم يعرفه، المختلف عما عرفه، هو ضد، لكن اختلاف البحرين لم يكن اختلاف تضاد، كان مجرد تدرج في صورة واحدة، تغفل عن كلها فتتوينا الفكرة.

﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَدَّدٍ ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ (فاطر: ١٣).

الليل والنهار، يبدوان مختلفين جداً، يبدو كل منهما لو كان معاكساً لآخر تماماً، لكن هذا ما تراه من قريب فحسب، عندما نكون داخل حدود

الليل أو داخل حدود النهار، لكن لو ابتعدت، لو نظرت من الأعلى، ستري أنهما يتكاملان معاً، بل ويتبادلان الأدوار بينهما.

لكن هذا الأمر لا ينطبق على كل شيء، هناك من الأشياء ما يندرج اختلافها ضمن النوع والتدرج والتكامل، وهناك ما لا يحدث فيه ذلك، هناك ما يجب أن تحدد موقعاً منه، هناك ما يجب أن تحدد موقعك ومكانك منه.

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢١﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿٢٢﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَخْيَاءُ وَلَا الْأَقْرَابُ إِنَّ اللَّهَ يَسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِسَمِيعٍ مِّنَ فِي الْمُبْتَوَىٰ ﴿٢٣﴾﴾ (فاطر: ١٩-٢٢).

هذه أضداد كاملة لا نسبي فيها ولا تدرُّج. وعليك أن تحدد موقعك، هل تختار العمى أم البصيرة؟ هل تختار المظلمات أم النور؟ هل تختار أن تبقى في منطقة الراحة دوماً، أن تكون مستريحاً تحت الظل، أم عليك أن تحسم أمرك وتمضي إلى ما يجب أن تمضي إليه ولو كان في منتهى الحر؟ ﴿إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ (فاطر: ٢٣).

هنا الإنذار، رسالة تطلب منك أن تحدد موقعك مما يدور حولك، يمكنك أن تختار ألا ترى شيئاً، أن تغمض عينيك، أن تختبئ في الظلام.. تحت الظلام.. في الظلال، أن تكون الظلال عنوانك الدائم الذي لا تستطيع الخروج منه.

ويمكنك أن تختار البصيرة، أن تفرج عن عينيك وعقلك كل عوائق الرؤية والفكر، وأن تختار أن يغمرك النور بدلاً من أن تغطس في الظلمة، وأن تخرج عن مناطق اعتيادك وراحتك إلى قارات العمل والتغيير.

خيارات كهذه لا يمكن أن يكون موقفك منها «بَيِّنَ بَيِّنَ»، لا يمكن أن تكون رعادياً هنا، لا يمكن أن تضع قدمك في منطقة والقدم الأخرى في المنطقة المضادة، لا فصام هنا، لا يوجد أصلاً خيار كهذا.
هنا ثمة قرار حاسم يجب أن يُتخذ.

هذا القرار وبهذا الاتجاه، هو جزء من الفطرة الإنسانية، كيف؟ لأن العمى، الظلمات، الظل؛ هي خيارات تقود إلى الموت في آخر المطاف، طبيعة الحياة الإنسانية والصراع المستمر من أجل البقاء يتطلب أن تحدد موقفاً فيه الحركة الواعية بما حولك، قد تقودك الحركة إلى الهلاك أيضاً، لكنها تحتوي أيضاً على احتمالية النجاة، أما البقاء في الوضع الساكن؛ في العمى والظلمات والظل، فهي توقيع مسبق على رسالة الانتحار. مهما طال الأمد.

الحياة الإنسانية بطبيعتها تتطلب هذا القرار، هذا الانتقال من منطقة (العمى/الظل) إلى منطقة النور والعمل هو جزء من تعريف الحياة.

لذا كانت المقارنة الناضية بين الأموات والأحياء، هي المقارنة المتممة لمقارنات العمى - البصيرة، الظلمات - النور، الظل - الحرور.

هذا القرار الذي تحدد فيه موقفاً، هو جزء من الفطرة التي أودعها الله فينا، ﴿فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الذي تبتدئ السورة بالحمد له في هذه الصفة تحديداً: أنه فاطر كل شيء، والفاطر هو الذي ابتدأ كل شيء، كما لو أن الحمد هنا يتجه لله الذي وضع هذا القانون وابتدأ فيه كل شيء: السماوات والأرض. ومن ضمنها نحن.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ۖ وَمِنَ النَّاسِ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّا بِنُحْشَى اللَّهِ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ (فاطر: ٢٧-٢٨).

هذا الاختلاف المتشوع المتدرج هو سنة الله في خلقه، وقدرة الناس - بعضهم على الأقل - على تمييز هذا الاختلاف عن الاختلاف المتضاد هو منبع خشية الله، الخشية التي تثمر تحديداً صائباً للمواقف بين الخيارات المتنوعة.

في النهاية، أغلب الخيارات من النوع المفصلي يمكن اختزالها إلى اختيار بسيط عليك أن تحدد موقفك منه.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْمُفْقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (فاطر: ١٥).

عليك أن تحدد موقفك، هل تمحاز إلى فقرتك الذي هو جزء أساسي من طبيعتك الإنسانية، المفقرة إلى الكمال بالتعريف؟ أم تدع عن إلى الحقيقة وتحدد موقفك لتكون مع الله الغني بالتعريف؟

القرار شخصي جداً، يخص كل شخص على حدة، مهما كانت تبعات هذا الموقف تمس وتؤثر على أشخاص آخرين.

﴿لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جَنْبِهَا لَا يَخْمَلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنَّا نُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَرَكَا فإِنَّا يَنْزَغِي لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ (فاطر: ١٨).

كلّ يحمل ثقله بنفسه، يحمل قراراته ومواقفه ونتائجه، من سيتحرى الصواب سيفنع نفسه أولاً..

أدواتنا كبشر سيختلف في امتحان تحديد المواقف هذا.

﴿هُمُ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُؤْتِي اللَّهَ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ (فاطر: ٣٢).

بعضنا سيكون ظالماً، ظالماً لمن؟ لنفسه أولاً، كل ظلم للآخرين هو ظلم للنفس أولاً؛ لأنه انحياز لطبيعة بشرية مفتقرة إلى الكمال، إنه الرهان على الخاسر.

آخرون سيكونون مقتصدين، لم يحددوا دوماً المواقف الصائبة، لكن كان لديهم رصيد من تحديد المواقف الصحيحة في الوقت الصحيح.

وآخرون سابقون بالخيرات، خياراتهم دوماً في الخير. يحددون مواقفهم بناءً على تلك الخشية المثمرة، فتكون في الاتجاه الصحيح.

من يحدد كل هذا؟ من يحدد الظالم من المقتصد من السابق في الخيرات؟ ليس أيّ منا، كلنا في النهاية نجلس في قاعة الامتحان كممتحنين، لكن البعض منا يتصور أن له الحق أن يوزع نتائج الامتحان قبل انتهائه وقبل تصحيح النتائج.

في النهاية، واضح الامتحان وحده - عز وجل - هو الذي يحدد من المقتصد، من الظالم، ومن السابق بالخيرات، ومن المحتمل جداً أن من نصبوا أنفسهم كموزعين للنتائج يكونون في خانة الظالمين، وهو عز وجل أعلم. كما أن ذلك محتمل أيضاً بحق كاتب هذه السطور وقارئها كذلك.

لا أحد يمكنه أن يعلم قبل أن تُعلن النتائج.

﴿وَجَنَّاتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذَقَنَا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿فاطر: ٣٣-٣٤﴾.
أولئك الذين دخلوا الجنة. سيحمدون الله الذي أذهب عنهم الحزن، وهو معنى أوسع من الحزن (نقيض السرور)، بل يعني الأرض الغليظة التي يصعب الإنبات فيها.

طردتهم كان صعباً، خياراتهم لم تكن هينة، لم يكن الدرب ممهداً دوماً، ربما دفعوا ثمناً غالياً نتيجة تحديدهم لمواقفهم، ولكنهم وصلوا إلى الجنة في نهاية المطاف.

آخرون ستكون أوضاعهم مختلفة تماماً، هنا سيدفع ثمن المواقف الخاطئة، أو اللا موقف أحياناً.

﴿وَهُمْ يَصْطَرِّحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ (فاطر: ٣٧).

لكن زمن الضرس الثانية قد انتهى. كان هناك ما يكفي منها في الحياة الدنيا.

في النهاية، تحديد المواقف هي جوهر الاستخلاف، الاستخلاف الذي هو الهدف من وجودنا في الأرض.

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ (فاطر: ٣٩).

تحديد المواقف هذا - بين ثنائيات متعارضة - هو جزء من نظام هذا الكون كله.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُعَذِّبُكَ السَّعَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْ تَزُولَ وَلَئِنْ رَأَيْتَ أَنَّ أَمْسَكْتَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ نَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ (فاطر: ٤١).

هل من ضرر من هذا من ضرورة اتخاذ موقف. من أن تكون مجموعة هذه المواقف أساسية في تحديد مصيرنا لاحقًا.

﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ نَحْدِثَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ (فاطر: ٤٣).

لا فرار. هذه هي سنت الأولين والآخرين، سنة الله في خلقه.

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهِمَا مِنْ ذَنْبٍ وَلَعَيْنَ يُؤْخَرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِبِعَادِهِ بَصِيرًا﴾ (فاطر: ٤٤).

لكنه لن يؤاخذهم، بل يترك لهم الفرص الثانية، العمر كله فرص ثانية في النهاية، يؤخرهم إلى حين أن تستنفد هذه الفرص، ليسوا دوابًا، الدواب ليس عليها أن تحدد موقعها من شيء.

الإشارة إلى نهاية الفرص الثانية ليس تهديدًا بعواقب التخلف عن تحديد المواقف فحسب.

بل هو أيضًا تذكير بأنك إنسان، تحفيز لهذا الإنسان في داخلك أن يرتقي إلى إنسانيته.

أن يحدد موقفه.

ليس مثل المخلوقات الأخرى.

سورة يس ٣٦

يا انسان!

اعتدنا على أن نُقرأ هذه السورة على الموتى، لا دليل قوي على صحة هذا الفعل، وقد فهم الأولون الدليل الضعيف على أنه قراءة لهذه السورة على المحتضر، وليس الميت الذي مات وانتهى عمله.

رغم هذا، لم أفهم لماذا سورة يس تحديداً هي التي تُقرأ على الميت أو حتى المحتضر. ما الذي يميزها حتى يجعلها خاصة بالموت؟ فيها ذكرٌ للموت نعم، لكن ليس أكثر من سور أخرى كثيرة. الموت وما بعد الموت من العناصر الثابتة في النسيج القرآني، ويندر أن تخلو سورة من ذكره، خاصة من السور الطويلة أو حتى متوسطة الطول.

ما الذي فيها إذن؟ لماذا ارتبطت في أذهان الناس بالموت حتى صارت ملازمة لشعائر ما بعد الموت عند الكثيرين؟
لم أكن أفهم ذلك تماماً.

اليوم يبدو لي الأمر كما لو أنه متعلق بمعنى أعمق للحياة، ومعنى أعمق للموت.

سورة يس تحدثنا عن حياة تشبه الموت، وعن موت هو أقرب للحياة.
عن موت متكرر بالعيش، وحياة تحدث بعد الموت.



يبدأ الأمر بنداء: يس.

ثمة خلاف بين أن تكون يس من الأحرف المقطعة في أوائل السور، أو أن تكون اسمًا من أسمائه عليه الصلاة والسلام، أو أن تعني: يا رجل أو يا إنسان، بالحبشية، ذكر المفسرون هذه الاحتمالات الثلاثة في تفسيرهم لمطلع السورة.

وهذا الخلاف يقدم لنا منطقة متداخلة خصبة بين «يا إنسان» وبين أن يكون المندى هو الرسول عليه الصلاة والسلام، خاصة أن بقية الآيات مخاطبه بوضوح: ﴿وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (يس: ٢-٣).

كما لو أنك تجد في نفسك شيئًا يجمعك معه عليه الصلاة والسلام. شيئًا في إنسانيتك يؤهلك لتكون معه في فئة مخاطبة واحدة.

ليس هذا فقط، لكن إنسانيته عليه الصلاة والسلام ستكون مفتاحًا لنا في فهم السورة.

إنسانيته عليه الصلاة والسلام هي أرقى ما يمكن لإنسان أن يحققه. وعندما يكون الحديث عن حياة كالموت وموت كالحياة، فإن هذا إنسانية من هذا الرقي، سيكون لها دور كبير.

الحياة التي تقول لنا السورة: إنها كالموت. والتي تريد أن تبعتها منها هي حياة الغفلة، حياة في ظل غياب الوعي.

فاهلون مَهْمُحُونَ لا يبصرون، وبالتالي: لا يؤمنون.

اللفظة هي الوصف الأول. ثمة أشياء كبيرة تحدث حولهم في عالمهم لكنهم أفلتوا على أنفسهم داخل عالم ضيق يحجزهم عن العالم الحقيقي.

﴿مُقْمَحُونَ﴾ الكلمة تعني أن رؤوسهم مرفوعة إلى الأعلى^(١)، وأبصارهم تنجّه نحو الأسفل. لا أعرف وصفاً لللفظة أعمق من هذا. أن تنظر إلى الأرض. حتى لو كان رأسك مرفوعاً إلى الأعلى وتبدو مرتفعاً شامخاً، لكن في الحقيقة: أنت تنظر إلى الأرض، إلى سفاسف الأمور، إلى تفاصيل التفاصيل التي لو حُذِفَتْ لما أثّرت في شيء.

﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْيُنِهِمُ أَغْلَالًا فَبَيَّ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ﴾ (يس: ٨).

﴿مُقْمَحُونَ﴾، الأغلال التي في أعناقهم ليست بالضرورة قيوداً مادية مرئية. هي على الأغلب: أغلال نفسية وعقلية تجعلهم مشدودين إلى القطيع. تجعلهم جزءاً من قطيع الخوض مع الخائضين. رؤوسهم إلى الأعلى: لأنهم ربما يعيشون حياتهم طويلاً وعرضاً، لكن أبصارهم إلى الأسفل: لأنهم ببساطة لم يدرهوا أن ثمة بُعداً آخر غير الطول والعرض: العمق.

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَ يَدَيْهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ (يس: ٩).

سد من أمام. وسد من الخلف، لا يرون القادم، ولا يرون الماضي. كيف يمكن لوحي أن يتشكل عندما تؤخذ منه إمكانية النظر إلى الأمام والخلف. لا نلظر إلا إلى القاع.

(١) لسان العرب مادة قمح.

لكن هذه السدود، ومن قبلها الأغلال، الآيات تقول عنها «جعلنا»، أي إن هؤلاء - في هذه الحالة - لا حول لهم ولا قوة، الله - عز وجل - هو الذي جعل هذه الأغلال في أعناقهم وهذه السدود بين أيديهم ومن خلفهم. إنهم بطريقة ما، مُسيَّرُونَ على طريق القلع.

لكن هذا التصور ناشئ عن خلط في أفهامنا بين «الجعل» و«الخلق»، السورة لم تقل: إن الله خلق في أعناقهم هذه الأغلال أو السدود بين أيديهم ومن خلفهم، بل قالت: إنه جعلها.

ما الفرق؟

الفرق أن الجعل يعني تصيير أو توظيف شيء معين موجود من قبل هذا الجعل؛ ليكون في وظيفة معينة. بينما الخلق يعني إيجاد هذا الشيء أصلاً.^(١)

إذن الأغلال والسدود كانت موجودة بصيغة ما، والفعل الإلهي كان أنه جعلها بصيغة الأغلال والسدود.

كانت موجودة - أولاً - باختيارهم، يكامل إرادتهم وسابق تصورهم وتصميمهم.

وعندما أبقوا عليها لفترة ما دون أن يجربوا إزاحتها: جعلها الله أغلالاً وسدوداً.

(١) كما في:

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا [النمل: ٨١]

[الله الذي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ كَمْ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةٌ كَمْ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَتَبَيَّنَ بِذَلِكَ مَا يَكُنْهُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ (٥٤)] [الروم: ٥٤].

[وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا] [الفرقان: ٥٤].

وأصبح:

﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (يس: ١٠).

ليسوا ضحايا، بل هم شركاء أساسيون في الجريمة، جريمة حياة الغفلة، حياة كالموت.

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ (يس: ١٢).

كل الموتى سيحييهم الله ليواجهوا هذا الاختبار: هل كانت حياتهم موتاً آخر قبل أن يموتوا؟ هل دلت آثارهم على حياة غفلة كالموت؟ أم كانت حياتهم حياة حقيقية؟

الجواب عن هذا السؤال سيترتب عليه أشياء كثيرة، بل ربما يمكن القول: سيترتب عليه كل شيء.

لكن كما مع كل امتحان، لن نعرف الإجابة إلا لاحقاً. حياتنا كلها نقضيها في قاعة الامتحان ونحن نحاول أن نقدم أجوبتنا؛ بوحي أحياناً ودون وحي - للأسف - في أحيان كثيرة.

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ (يس: ١٢).

﴿وَأَثَرَهُمْ﴾ نُوقِفُنَا هنا، آثارنا هي التي تبقى، بعض أعمالنا ستكون أقل أهمية من أخرى، هناك أعمال ستترك آثاراً، ربما في حياة آخرين، ربما بعد أن نمضي، ربما آثار إيجابية وربما سلبية. هذه الأعمال ربما سيكون لها وزن أكبر من تلك التي كانت آثارها ضيقة النطاق وعابرة للزمان.

من يحدد انطلاق والزمان؟

ليس نعلن بالتأكيد، هذا جزء من الامتحان ومن نتائجها التي لن نَعْرِفَ إلا بعد أن ينتهي كل شيء، لكنه أمر يُذَكَّر ولا بد، يجعلنا ننشبه إلى أهمية أن يكون هناك أثر إيجابي وعابر للزمان فيما نفعله في حياتنا.

تأخذنا السورة بعدها مباشرة إلى «أصحاب القرية»، قرية يبدو أنها تعيش تلك الحياة التي تجعل رؤوسها مرتقعة وعيونها منخفضة إلى الأسفل إلى كل ما هو متدنٍ، إنهم قوم مسرفون، ثلاثة رسل أُرسلوا لهذه القرية، ولكن أهلها يمانعون، لقد تشاءموا من الرسل وما يدعون إليه، في الوقت الذي يتمسكون فيه بمصدر الشؤم: بعياتهم المتفemسة في كل ما هو متدنٍ، الحياة التي ظاهرها حياة، ولكن باطنها موت مقنَّع.

لكن السورة لا تتركنا مع الرسل، بل تهر بهم ونمضي إلى شخص عادي، مجرد رجل آخر في المدينة. لكنه حمل الحقيقة التي يؤمن بها إلى قومه وهو مشفق عليهم! لأنهم لا يبصرون.

﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِي عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِي ﴿٢٣﴾ إِنْ أَرَادْتُ إِذًا لِي ضَلَالٌ مُبِينٌ ﴿٢٤﴾ إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمِعُونِ ﴿٢٥﴾﴾ (يس ٢٠-٢٥).

مجرد رجل آخر، قد يشبهنا جميعًا. ربما بلا ملامح مميزة مثل أغلبننا، ليس برسول، لكنه آمن بما قالته الرسل، آمن بحياة في عمق الحياة وبعد الحياة، وجاء يسعى من أقصى المدينة وهو يحمل ما يرى إلى الناس.

﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قُرْبِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ يَا غَفَرٌ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرِمِينَ ﴿٢٧﴾﴾ (يس: ٢٦-٢٧)

لقد انتهى الأمر فيما يخص امتحانه، صدرت نتيجة النهائية: أن ﴿ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾. ماذا كان رده: ﴿يَا لَيْتَ قُرْبِي يَعْلَمُونَ﴾. لو أنهم كانوا قد خرجوا من أغلالهم، لو أنهم نظروا إلى الأعلى، لو أنهم آمنوا بالبعد الأعظم للحياة. لقد حمل معه ذلك الشعور بالحسرة عليهم حتى آخر العمر، لا، بل بعد آخر العمر، في الآخرة. لا يمكن أن يحدث ذلك من دون أن يكون هناك حب لهم، وليس فقط حب للفكرة التي يحملها.

﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٠﴾﴾. حتى النهاية، سيكون هناك هذا الشعور بالحسرة، لو أنهم سمعوا. لو أنهم رمقوا أبصارهم إلى الأعلى، لو أنهم أدركوا معنى الحياة قبل أن يموتوا.

﴿وَأَيُّ لَهمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَخْيَبَتْهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا قَبْلَهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَجِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٣٢﴾ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٣﴾ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِثْلًا مِثْلًا وَالْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ (يس: ٣٣-٣٦).

نحن لا نزال في معنى الحياة والموت، الحياة هنا تخرج من الموت، الأرض كانت ميتة غير منتجة، ثم انبثقت فيها الحياة: جنات وعيون ونخيل وأعنان، وعمل يدوي يطعم الناس.

والأزواج أيضًا تثبت من هناك، من نفس الأرض، ولعل هذه الأزواج تكون ميتة أيضًا إلى أن تنتج، مثل موت الأرض التي خرجت منها، لعل الحياة في أعماق معانيها هو هذا الإنتاج الذي يحقق الهدف من الخلق.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (يس: ٤٨).

لا يرون إلا ما هو أدناهم؛ لذا فهم لا يستطيعون فهم الآخرة، يريدونها (الآن وهنا) ليفهموها؛ لأنهم لا يفهمون إلا ما هو آني ومباشر، الآن وهنا.

لذلك يسألون: متى؟

ولو جاءهم الجواب مباشرًا محددًا التاريخ؛ لما تغيرَ شيء في موقفهم، إنهم مُقَمَّحُونَ، رؤوسهم مرتفعة ولكن أبصارهم في الأرض. يعيشون الحياة موتى، يبعد الحياة الأدنى.



من بين كل سور القرآن، فإن هذه السورة تحديدًا هي الأكثر التي تكررت فيها كلمة «مبين»، في سياقات مختلفة.

إمام مبين، ضلال مبين، عدو مبين، خصيم مبين، وقرآن مبين.

سبع مرات، تكررت فيها الكلمة. كما لو كانت تشير لنا إلى أهمية أن يكون كل شيء واضحًا. معنى الحياة ومعنى الموت ومعنى الضلال ومَنْ هو عدوك ومَنْ هو خصمك.

هناك أشياء يجب أن تكون واضحة: لأن حياتك - وبالتالي آخرتك - ستعتمد عليها.

هناك أشياء عليك أن تحدد بوصلتها؛ لأنها ستحدد أين سترسو
مراكبك في النهاية.

﴿يس﴾.

هلنذكر أنها ربما كانت تعني: يا رجل، أو يا إنسان.

﴿يس﴾ يا إنسان، السورة تقول لك أن تعيش حقًا قبل أن تموت، ألا
تموت قبل الموت.

نحن أُولئ بقراءتها من الموتى.

ما دام لدينا فرصة.

الصفات ٣٧

استعد، تثبت، انطلق

سورة الصفات هي السورة التي تأخذك إلى الصف.
تُجسّد في الصف الأول، الصف الأمامي، وتُجمّع ذرايعة ما يحدث،
تتعلّم منه، ومن ثم تأخذ دورك في العمل. تصطف لتعمل.

تبدأ السورة بهذا القسم:

﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ۖ قَالُوا جِرَاتٍ رَجْرًا ۖ﴾ (الصفات ١: ٣).

ثمة ترتيب في الأمر، الصف أولاً ثم الزجر بالذكر.

السياق هنا هو عن الملائكة كما تقول كل كتب التفسير.

ملائكة تقف صفّاً وملائكة تزجر وملائكة تتلو المذكر.

نفهم معنى الصف هو الاستواء، الوقوف بانتظام، بسوية، بصفوف متوازية.

الزجر، نعرف أنه النهر، لكنه ليس هذا فقط، فهو أيضاً الحث، الحمل على المضيّ بسرعة، تقول العرب: زَجَرَ الإبل أي حَثَّها على الإسراع.

يبدو هذا المعنى أكثر انساقاً مع ما سبق، ومع جو السورة العام كما سنرى.

﴿قَالَتِ الْيَتَامَىٰ ذِكْرًا﴾.

بعد الاستواء والحث على الإسراع، يأتي الذكر.

الذكر هو حفظ الشيء، دراسته، جريانه على لسانك.

لدينا إذن ثلاث مراحل.

الاستواء في الصف، الحث على الإسراع والمضي، وبعدها: أن يبدأ الذكر، الذكر بهذا المعنى الذي يتضمن الفهم وتبليغ الفهم.

الأمر يشبه: استعد، تثبت، انطلق.

سورة الصافات تأخذنا إلى هذه الثلاثية، إلى حيث نقف في الصف الأمامي، نحثنا على المضي، ثم تقول: اذكروا جيداً ما سترون وستعجبون! لأنه سيتكرر دوماً بأشكال مختلفة.

﴿إِنَّا زَيْنًا السَّمَاءِ الدُّنْيَا بِرَبِّهِ الْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحَفَظْنَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَا يَسْعَوْنَ إِلَى الْأَعْلَىٰ وَرُبْقَدُونَ مِنْ كُلِّ حَايٍ ﴿٨﴾ دُخُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ رَّاجٍ ﴿٩﴾﴾ (الصافات ٦: ٩).

أول ما سنعرفه في هذا الصف الأمامي أن عالمنا هذا محصن من التدخلات الخارجية التي يؤمن بوجودها البعض. لا نجم يؤثر على حياتك

أو صفاتك لأنك وُلِدْتَ في مطلعه، لا أبراج هناك تؤثر على حياتنا إلا تلك الأبراج التي نبغيها نحن، والتي تؤثر عليها أكثر مما تؤثر علينا.

افهم هذا وانطلق بعدها. أنت تتعامل مع هذا العالم المرئي وظروفه وتعميداته وتداخلاته، لا تعلق فشلك أو تفسر نجاح الآخرين بشيء قادم من عالم آخر لم يبدل فيه البشر جهداً.

دخول هذا الفهم الخاطي إلى ثلاثية الاستواء والحدث والذكر سيقفل أهم معاني الثلاثية.

ما هي معاني هذه الثلاثية؟ سنرى.

في هذا الصف سنرى أشياء متقابلة، كلاً في طرف، فيها ما يجمعها، فيها تشابه، ولكن جوهر كل واحدة منها يعاكس الأخرى. وسيكون علينا أن ننتبه لهذا التشابه، وأن ننتبه أكثر للجوهر خلف التشابه.

ضمن هذه التقابلات سنرى أسئلة تُطرح ظاهرها متشابه، لكن لأن أجوبتها مختلفة فكل ما سيلبي ذلك سيكون مختلفاً.

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ ﴿قَالُوا إِنَّا كُنْتُمْ نَأْتُونَنَا عَنِ الْبَيْتِ﴾ ﴿قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (الصافات ٢٧: ٢٩).

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ ﴿يَقُولُ أَإِنَّكَ لَإِنَّ الْمُصَدِّقِينَ﴾ (الصافات ٥٠: ٥٢).

السؤال هو هو، كيف وصلنا إلى هنا؟ لكن الجواب كان مختلفاً تماماً في كل مرة.

لأن نقطة النهاية كانت مختلفة، مرة طُرح السؤال في جهنم، حيث انتهت الطرق الخاطئة، ومرة طُرح في الجنة، حيث قادت الطرق الصواب.



ضمن نفس منطق الأسئلة والأسئلة المضادة يأتي السؤال الأهم: ﴿إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا﴾...؟

نعرف ذلك من القرآن، ونعرفه من المشككين والملحدين في زماننا وفي كل زمان، مسألة البعث من الموت هي التحدي الأكبر لعقولهم، يقيسونها بمقاييس الحياة اليومية المادية المباشرة، فيجدون صعوبة في تصديقها أو تخيلها، فيسألون هذا السؤال: أبعد أن نموت ونصبح عظاماً متحللة؟

قد نتخيل أن السؤال تكرر كثيراً في القرآن، لكنه ذُكر خمس مرات فقط في كل سور القرآن.

اقتتان منها في سورة الصافات:

المرّة الأولى كانت بالصيغة التي نعرفها والتي تكررت في بقية المواضع.

﴿إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ (الصافات: ١٦).

والمرّة الثانية حدث فيها تغيير بسيط، لكنه تغيير مهم جداً يُكْمِل الصورة. ويجيب عن السؤال ثلثائياً.

﴿إِنَّا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ (الصافات: ٥٣).

مبعوثون أولاً.

مدِينون ثانياً.

المعنى ذاته؟ لا.

عديّون، والتي تعني أنهم مُجازون، مُعاسبون، عليهم دينٌ يجب تسديده.

هذا المعنى يشمل معنى البعث ويجعله أكثر تقبلاً بالنسبة للعقل البشري. البعث من الموت هو لهدف وجدوى: ثمة ديون يجب أن تُسدّد، الحياة كلها مبنية على الأسباب والنتائج، وعندما تكون هناك نتائج لا نراها مباشرة، فهذا فقط لأنها مؤجلة، وكل الحسابات، النهائية، تكون آجلة، لا نرى في حياتنا سوى حسابات عاجلة مختزلة.

مبعوثون نعم، ولكن: مبعوثون لأنهم عديّون.

كلنا مبعوثون وعديّون.

ونحن في الصف سنفهم ذلك بوضوح أكبر.

في الصف أيضاً سنرى شجرتين: كل واحدة منهما في طرف مضاد للآخر.

﴿أَذْلِكَ خَيْرٌ نَزْلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقْوِمِ ﴿٦٥﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْحَجِيمِ ﴿٦٧﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ زُرُّوسُ الشَّاطِلِينَ ﴿٦٨﴾﴾ (الصافات ٦٥: ٦٨).

الأولى هي شجرة الزقوم، الشجرة الفتنة للظالمين.

والثانية؟

﴿فَبَدَّلْنَا بِالْعَرَاءِ وَهْوَ سَهِيمٌ ﴿١٤٧﴾ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ ﴿١٤٨﴾ وَأَرْسَلْنَا إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٩﴾﴾ (الصافات ١٤٥: ١٤٧).

إنها الشجرة التي نبتت على النبي يونس بعد أن خرج من بطن الحوت، قبل أن يعود لمواجهة المهمة التي تصور أنها مستحيلة.

الشجرة الأولى: الفتنة، ربما تكون أكثر ارتفاعاً وبروزاً من شجرة اليقطين، لكن ارتفاع الأولى هو الذي يجعلها فتنة، هو الذي يجعل الناس ينخدعون بها، يعتقدون أن علوها يجعلها أفضل، لكن العبرة الحقيقية هي في الثمار، في النتائج، وليس في الارتفاع.

شجرة اليقطين ليست شاهقة العلو والارتفاع، لكنها كانت شجرة الأمل والعمل والمضي في المهام التي كنا نعتقد أنها مستحيلة.

وكذلك يحدث كثيراً في حياتنا، نرى الأعلى والأكثر ارتفاعاً، فننخدع به وببيرقه ونغفل عن نتائجه وثماره، وقد نزهد فيما يبدو أقل ارتفاعاً وبروزاً فلا ننقبه عن فوائد ثماره.

بعض المنتجات في المدينة الحديثة قد تجذبنا، تخطف اهتمامنا، وقد يتخذ البعض من أضوائها المترافضة منازلاً له، لكننا لا نفكر كثيراً في مآلاتها، في نهاية الطريق الذي تقودنا إليه.

تلك هي شجرة الرقوم: الفتنة، طريق مختصر إلى جهنم.

وقد ننظر باستخفاف إلى منتج آخر، تبدو أضوائه شاحبة نسبياً، يبدو قديماً، ولكن ثمرته لا تنتهي صلاحيتها، يمكن أن تعد دوماً بالإيمان العابر للأزمان، بالأمل المتجدد رغم الوعي بصمويات الواقع.

تلك هي شجرة اليقطين، الطريق الطويل الذي لا بد من المضي فيه إلى النجاة والتجاح.

في كل سور القرآن تتكرر عبارة «عباد الله المخلصين» ثمان مرات.

من هذه الثمان: تحتل سورة الصافات مرتبة الصدارة.

خمس مرات تكررت فيها هذا العبارة.

المرات الأربعة الأولى كانت بصيغة الاستثناء:

﴿إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمَ ۖ وَمَا تَحْزُرُونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿ (الصافات ٣٨: ٤٠).

﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُتَكِبِينَ ۚ﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿ (الصافات ٧٣: ٧٤).

﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ۚ﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿ (الصافات ١٢٧: ١٢٨).

﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَبَاً وَلَقَدْ عَلِمَتْ الْجَنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ۚ﴾ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿ (الصافات ١٥٨: ١٦٠).

لكن في المرة الأخيرة جاءت العبارة بصيغة مختلفة:

﴿وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُنَّ ۚ لَوْ أَنَّا عُنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ ۚ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ۚ﴾ (الصافات ١٦٧: ١٦٩).

هناك من يحاول التصحج، لو أن عندنا ﴿ذُكِّرْنَا مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾: لأصبحنا من هؤلاء، من عباد الله المخلصين، لو أننا كنا مع الرسول، زمن الرسول؛ لأصبحنا مثل الصعابة.

مبدئيًا، لكل مرحلة تاريخية ظروفها، كما لكل شخص تفرده الذي لا يطابق فيه أحدًا كما بصمته لا تطابق أحدًا، لا أحد يمكنه أن يكون نسخة من شخص آخر، وخاصة من شخص ينتمي لحقبة تاريخية مختلفة.

وهذا لا يمنع الاقتداء، السير على النهج، أن نجد الإلهام بهذه الشخصيات، ولكن لا تطابق، لا نسخ كربونية عابرة للزمان والمكان.

الأهم من هذا: إن حجة «لو أننا كنا في ذلك الزمان؛ لَكُنَّا مثلهم» حجة ساقطة أصلًا؛ لأن هناك ناسًا عاشوا في تلك الحقبة، وكانوا على الطرف الآخر، لا شيء يضمن أبدًا أنك ستكون في أي طرف ضمن ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ (الصافات: ٥٠)، قد تكون من المصدقين بالبعث والجزاء، وقد تكون قد قلت: ﴿إِنِّي هِيَ إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾.

فلننتبه أن «عباد الله المخلصين» تعبير يمكن أن يصف أي شخص دون مؤهلات مسبقة، لا يتطلب منه أن يكون رسولاً أو نبياً أو صحابياً أو حوارياً، جواز المرور إلى هذه «الفئة» يتطلب الإخلاص في العبادة فقط، ليس أمراً سهلاً يمكن الحصول عليه بسهولة، لكنه أيضاً ليس مستحيلاً.



تأخذنا سورة الصافات عبر ثلاثية: «الاستواء والحث والذكر» إلى قصص الأنبياء، لكننا سنراها هذه المرة من خلال هذه الثلاثية تحديداً.

سنبداً بنوح، ثم نذهب إلى إبراهيم، ثم موسى وهارون، ثم إلياس، ثم لوط، وأخيراً يونس.

أغلب قصص الأنبياء نمر فيها من سور سابقة، عدا إلياس الذي لا يُذكر في القرآن إلا هذه المرة.

لكن ما الذي يميز قصص الأنبياء في سورة الصافات عن سواها؟

ما الذي نراه عبر ثلاثية الاستواء والحث والذكر؟

سنرى أن كل هؤلاء - عدا يونس - قد ذُكرَ ومعهم أهله أو أسرته أو ذريته.

﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾ ﴿وَحَنَيْنًا وَأَهْلُهُ مِنَ الْكُرْبِ الْعَظِيمِ﴾ ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ (الصافات ٧٥: ٧٧).

﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ﴿فَبَشِّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ (الصافات ٩٩: ١٠١).

﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ﴾ ﴿وَحَنَيْنًا هُمَا مِنَ الْكُرْبِ الْعَظِيمِ﴾ ﴿وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾ (الصافات ١١٤: ١١٦).

﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا﴾ ﴿وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾ ﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ﴾ ﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ ﴿سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ (الصافات ١٢٣: ١٣٠).

﴿وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿إِذْ حَنَيْنَا وَأَهْلَهُ أَتَجَعِلِينَ﴾ ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ﴾ (الصافات ١٣٣: ١٣٥).

ليس صدفة أن يكون هناك ذكر للأهل في كل هذه السياقات؛ أسرة أو أخ أو زوجة أو آل، الاصطغاف أولاً يكون هنا في الأسرة، الحصن الأول وأحياناً الأخير في النهاية. الأسرة هنا بمعناها الضيق: الأخ والزوجة والأبناء. ومعناها الأوسع: الذرية، الآل.

لست وحدك تماماً، على الأقل عليك أن تجرب ألا تكون كذلك، أن تتمسك بأسرتك ومن حولك لأن قوتك تزيد بقوتهم، كما قوة كل شخص منهم تزيد بقوتك، الأمر يشبه يديهيات الحساب. $1 + 1 = 2$ ، و $2 + 2 = 4$ ، فلننتبه أن الأمر هنا يعتمد أولاً على غريزة أساسية من غرائز البشر؛ التناسل والتكاثر، منذ فجر الحياة، وهذه الغريزة تحرك كل المخلوقات، كل مخلوق في كل نوع يريد أن يحفظ نوعه عبر صراع مستمر على البقاء، ولكي تبقى فإن عليك أن تنتج نسخة من نوعك، تدخل بدورها في ملحمة الصراع من أجل البقاء.

لكن الأمر هنا يتجاوز بدائية الغريزة التي تشترك فيها مع كل المخلوقات إلى ما هو أعلى، لم يمد الأمر مجرد بقاء للنوع، بل أصبح مرتبطاً بحاجاتك النفسية أيضاً، في أن يكون هناك معنى في هذه الرابطة، أن يكون البقاء «نوعياً» وأن تكون العلاقات بين أفراد هذه الرابطة تربطهم بأكثر من قرابة الدم والعرق والنسب، بل بالقيم الأخلاقية المعركة للمجتمع، القيم التي تحمي المجتمع والتي تجعله ينمو ويتطور في الوقت نفسه.

جوهر الأمر هنا أن غريزة البقاء التي تمثل واحدة من مخاوف الإنسان المزمنة، تتحول هنا إلى عنصر قوة.

أن تتحول نقاط ضعفك إلى منبج لقوتك.

هذا درس مهم نتعلمه في هذا الصف.

كل ما يخيفك في أعماقك، كل تلك المخاوف السرية التي قد تعتبرها عَقْدًا لك، يمكن أن تتحول لتصبح منبجًا للقوة والعطاء والإبداع.

لكن يلزم أولًا أن تكون واعيًا معترفًا بها.

لكن لماذا «يونس» يختلف عن كل الأنبياء الذين ذُكِرُوا في عدم وجود أي ذكر لأسرة أو ذرية في سياق قصته؟

السبب واضح، علينا أن نعرف أن ذلك قد لا يتيسر أحيانًا لأي سبب كان، الأمور ستكون أكثر صعوبة عندما تكون وحدك، لكن هذا لا يشترط بالضرورة ترك المهمة أو الفشل، على العكس، نجاح يونس في جعل قومه يؤمنون وجعل إيمانهم ينقذهم كان أمرًا مميزًا له بين سياقات قصص الأنبياء الذين ذُكِرُوا في السورة.

مخاوفك قد تكون أكبر دوافع نجاحك.

نعم.

أيضًا يمكننا أن نلاحظ من سياقات قصص الأنبياء أننا نرى صورًا في حالة حركة سريعة، نوح يركب السفينة، إبراهيم يحطم الأصنام وتتوالى

الأحداث معه بعدها. ينتقل من بلد إلى آخر، الشيء ذاته بالنسبة لموسى وهارون ولوط ويونس.

هناك حركة دائمة، هجرة، انتقال من حال إلى آخر.

كأن هذا يتسق مع معنى الزجر، الحث على الإسراع؟

لم تنته دروس الصافات.

ثمة درس مهم جداً في خضم هذه السياقات.

فسورة الصافات هي السورة الوحيدة التي ذُكرت فيها قصة رؤيا إبراهيم بذيح ابنه، لم يُذكر الأمر أو ترد إشارة له في أي سورة أخرى.

القصة جاءت في سورة نصطف فيها بانتظام، ونحث على العمل، ومن ثم نرى العبرة والذكر.

﴿قُلْنَا بَلِّغْ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي السَّمَاءِ أَنِّي أُدْجِلُكَ فَاظْكُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٣﴾ قُلْنَا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا وَثَلَهُ لِإِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٤﴾ وَتَدَانِيَاهُ أَنَّ يَإِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٥﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٦﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٧﴾ وَقَدَرْنَا بِإِبْرَاهِيمَ عَظِيمَ ﴿١٠٨﴾﴾ (الصافات ١٠٣-١٠٧).

فلنتذكر هنا أولاً أن التضحية بالأبناء كانت طقساً شائعاً في مجتمعات كثيرة من ضمنها مجتمعات الشرق الأدنى التي جال فيها سيدنا إبراهيم، وما يستفطعه البعض عندما يمرون على القصة كان أمراً مقبولاً، وعلى العكس، فقد كانت هذه الواقعة - الرؤيا والطاعة والهم بتنفيذ الأمر،

ومن ثم الفداء - بمثابة خطوة انفصال لا بد منها للخروج من منظومة القرايين البشرية.

إذن سيدنا إبراهيم، الذي عانى من العقم فترة طويلة، وبعد أن بُشِّرَ بمجيء غلام، وبعد أن جاء الغلام وكبر حتى ﴿بَلَغَ مَعَهُ السَّنَى﴾ أي أصبح يعينه، تأتي الرؤيا: الذبيح.

الأمر هنا أصعب بكثير من تجربة سيدنا يونس، يونس تأفلم على وضعه، سيدنا إبراهيم مر بامتحان أشد بكثير، حُرِمَ من الأبناء أولاً، ثم ذاق نعمة وجودهم وتربيتهم وأن يقفوا بجانبه.

ثم الذبيح بيديه.

النضحية عظيمة.

لا يشبه الأمر ابن نوح أو زوجة لوط، لا، ذلك كان خيارهما، هنا الابن كان مؤمناً منسجماً مع قيم والده.

الامتحان أصعب بكثير.

لعل هذا السياق يشير إلى أننا قد نضطر في أحيان كثيرة أن نضحى بما هو عزيز جداً علينا، بما هو جزء منا، ليس لأن هذا الجزء يتبني التخلص منه ليعتَبَ فيه، بل لأن الأولويات تحتم تقديم أشياء أخرى أولى وأهم، أن نتخلص مما هو عزيز عليك - مثل جزء من قلبك - لأن قيمك تحتم ذلك.

امتحان عظيم، نسأل الله أن يجنبنا إياه.



بعد هذه السياقات يأتي تذكير مهم.

﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَلْزَمَ الْبَيْتَاتِ وَلَهُمُ الْبُيُوتُ ۖ أَمْ حَلَاقًا الثَّلَاطِثَةُ إِنَّهَا وَمُمْ شَهِدُونَ ۖ أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِنْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ۖ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ۖ أَصْطَفَى الْبَيْتَاتِ عَلَى الْبُيُوتِ﴾ (الصافات ١٤٩: ١٥٣).

لا يأتي هذا التذكير هنا صدفة، حاشا لله.

الحاجة الإنسانية إلى الزواج والإنجاب جعلت البعض يعتقد أن الإله يمكن أن يمتلك نفس الاحتياج، التصور البشري محصور بطبيعته البشرية، البعض لا يمكنه أن يتصور أن هناك ما هو خارج هذه الطبيعة؛ لذا فهم يتصورون الإله مثل البشر، وأنه - حاشاه - يتزوج وينجب إلخ.

لكن رب العالمين لا احتياج له أصلاً، هذه الحاجات بشرية فحسب، وتصوراتنا عنه عز وجل عليها أن تتخلص من كل ما نعرفه من طباع البشر.

هذه أول خطوة للخروج من سوء الفهم، سوء الفهم الذي قد يتراوح بين انحراف في العقيدة الصافية نحو الشرك أو نحو الإلحاد الرافض لفكرة الله: ما هذا الإله الذي يشبه البشر؟

صف استوتونا فيه.

وزجر، حث، تنبيه انتبهنا له.

وتذكرة لكي نرى كل ما يمر بنا من منظار دقيق.

وليس صدفة - حاشا لله - أن تنتهي السورة بهذه التسيبحة تحديداً:

﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (الصافات: ١٨٠).

رب العزة، المرة الوحيدة التي وُصِفَ رب العالمين بهذه الصفة هي في هذه السورة.

العزة، نستشعر معانيها أكثر عندما نكون في «الصف»، متنبهين لأي أمر أو زجر أو حث، وفي قمة الاستعداد للذكر.

رب العزة، نعم سبحانه.

خاصة أن السورة التالية ستحدث عن العزة والشفاق.

سورة ص ٣٨ عن العزة والشقاق

﴿ص وَالَّذِينَ يَدْعُونَ الذِّكْرَ (١) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ (ص: ١-٢)
ندخل عليك سورة ص فجاءة من دون مقدمات، تقول لك: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ (ص: ٢).
بل؟

بل تفيد الاستدراك، تتحدث عن شيء معين، فتستدرك، هو أكثر مما قلت ومما تصورت.

أو تستدرك، لتقول شيئاً معاكساً لما ذُكر.
لكن السورة تبدأ هكذا، دون أن يكون هناك ما يسبق هذه الـ «بل» حتى تستدرك عليه.

لا، كان هناك شيء في نفسك، والسورة ألقت القبض عليك متلبساً به، وقالت لك بوضوح: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ (ص: ٢).

ماذا كنت تقول في نفسك حتى قال لك القرآن هذا؟
لا بد أنك كنت تقول شيئاً عن قوة الذين كفروا، عن عزتهم، عن هيمنتهم على العالم، عن تقدمهم، عن تطورهم.

أليس كذلك؟

«القرآن ذو الذكرة يقرأ أفكارك، إن لم تكن تقولها الآن، فربما قلتها سابقاً، أو ستقولها لاحقاً، وما هو يقول لك - استباقاً - : ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ (ص: ٢)».

نعم، إنهم في عزة ظاهرة للعيان. لكن ثمة ما هو أكثر في هذه العزة. ثمة شيء قد لا يكون مرئياً على الفور، يستلزم أن تدقق كي ترى ما تحت هذه العزة من شقاق.

يشبه الأمر بناءً تاريخياً شامخاً مرتفعاً، تراه من بعيد فيختلف بصرك بهيبته، ثم تقترب فتري آثار التصدعات والشفوق على واجهته، ثم تقترب أكثر فتسمع صوتاً في الجدران، وتشمع بحركتها بفعل الريح. من بعيد، الأمر مختلف تماماً.

﴿وَانظُرْ إِلَى الْمَلَأِ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴿١﴾ مَا سَبَعْنَا يَهُدَا فِي الْبَلَاءِ الْآخِرَةِ إِنَّ هَذَا إِلَّا اخْتِلَافٌ ﴿٢﴾ أَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِ الذِّكْرَ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابٍ ﴿٣﴾﴾ (ص: ٦: ٨).

يريدون الإبقاء على الوضع القائم ضد أي تغيير، كل شيء مؤامرة بالنسبة لهم، مؤامرة تريد أن تطيح بهم ويمزقهم ويقتولهم ويشتريهم.

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ﴿١﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿٢﴾﴾ (ص: ١٢: ١٣).

قبلهم كانوا هؤلاء، ولكن السلسلة تستمر، دوماً هناك حضارات ومجتمعات تشبه هذه المجتمعات، عزة لا تخطئها العين، ولكن أيضاً شقاق.

لا يتعلق الأمر بالمجتمعات والحضارات فقط، بل بالأشخاص أيضاً.
أحياناً ترى البعض في حالات عزة مبهرة.

ولكن هذا من بعيد فقط، من الداخل هناك مشاكل كثيرة، ربما هناك صراع في داخل هذا الشخص. ربما هناك أرق وقلق يأكلانه كل ليلة، ربما هو ضحية سهلة لهذه العزة كل يوم.

وربما ستعرف لاحقاً حقائق تؤكد هذا، تؤكد التصدعات والشقوق خلف الواجهة المبهرة، وربما لن تعرف قط، سيأخذ معه أسرارهِ إلى قبرهِ، ثم إلى يوم عرضه وحسابهِ.

المهم، لا تقتر كثيراً بالعزة، سواء في الأشخاص أو في المجتمعات، فقد يكون هناك ما لا تراه خلف هذه العزة.



هكذا إذن، هل يرسل لنا القرآن رسالة مفادها أن هذه المجتمعات والشخصيات القوية ليست بهذه القوة التي تتخيلها، وأن علينا أن ننتظر إلى أن تتقلب نقاط الضعف على نقاط القوة وينتهي الأمر؟
محال، القرآن لا يفعل هذا.

القرآن يدلنا على أمثلة أخرى للعزة، العزة المستمدة من رب العزة - كما وصفته السورة السابقة تماماً -، العزة التي يأمرنا - عز وجل - أن نمشي على خطاياها ونقتفي آثارها، لا التي نثيهر بها فحسب.

الحكم بالحق، ترك الهوى في التعامل مع الناس ومع القيم، عدم التعامل بمكاييل مختلفة حسب اللون والعرق والأيدولوجيا، هذه هي سميزات العزة المستمدة من رب العزة التي بلا شقاق.

مزيد من الأمثلة؟ سليمان، ﴿يَنْعَمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾.

﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَخِي أَنْ يَبْعِدَ إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾
 ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ وَالْقِيَاطِينَ كُلَّ بَتَاءٍ وَعَوَاصٍ
 وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (ص ٣٥: ٣٨).

المزيد من العزة، المزيد من وسائل القوة الأكثر تطوراً حسب معايير عصره، مع المحافظة على القيم التي كرسها والده داود، عليهما السلام، هل تعدنا سورة ص بمثل آخر عن العزة كما يجب أن تكون غير مثلي داود وسليمان؟

نعم، بمثل مختلف جداً.

﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾
 ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ وَوَعَيْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً
 مِنَّا وَكَرَرَى الْإِنَابِ (ص ٤١: ٤٣).

كيف يكون أيوب مثلاً عن هذه العزة وهو الذي ابتلي بمرض باعد عنه الناس؟ ببساطة، هذه هي العزة الحقيقية عندما تمر بأزمة، أن تبقى متمسكاً، صامداً، صابراً! إلى أن تجتاز العاصفة.

أيوب وسليمان وداود . كيف يمكن الربط بين هاته الشخصيات؟ نماذج مختلفة عن العزة الحقيقية في مراحل مختلفة. العزة التي جعلها الإيمان تكون قوية وعادة، وجعلها أيضا تصمد.

ماذا عن أمثلة أخرى عن العزة والشقاق، تلك التي لا ذراها في حياتنا الدنيا؟

﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَعْدُنَا هُمْ سِحْرًا أَمْ رَأَعَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ (ص ٦٢: ٦٤).

لقد انتهوا إلى جهنم، لكنهم يريدون أن يأخذوا الجميع معهم. أين فلان وعلان؟ لم هو ليس معنا يحترق في نار جهنم؟

أي شقاق أكثر من هذا؟

بل إننا سنرى مثالا مبكرا جدا عن هذه العزة وذلك الشقاق، قبل أن يبدأ كل شيء.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ﴿١٥﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿١٦﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿١٧﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِي اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿٢٠﴾ قَالَ فَاهْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٢١﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لعَذَابَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ (ص ٧٦: ٧٨).

إبليس - النموذج الأعلى للغواية والشر - بدأت رحلة سقوطه من نقطة الالتقاء العزة بالشقاق، من هذا الشعور بالتكبر والاستعلاء الذي جعله لا يمثل لأمر الله بالسجود لآدم، الممثل الأول للنوع الإنساني في هذا الصراع. الحكاية إذن مبكرة جداً، لا تبدأ بقوم نوح ولا تنتهي بكفار قريش. هي مع بداية الإنسانية، وتستبقى ما دامت الإنسانية. الأمر في حقيقته وجوهره صراع داخلي في أعماقها، ضمن صراعات داخلية أخرى، صراع بين عزة في داخلك مستمدة منه عز وجل، من الإيمان به وبالقيم التي ترسبها رسالته. وبين العزة الأخرى، عزة التكبر والاستعلاء، وكل الشقاق والتصدعات التي تتبع ذلك.

﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ ﴿إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ ﴿قَالَ فَمِعْرُوكَ لِأَعْيُنِهِمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾
(ص: ٧٩: ٨٣).

إبليس يُقسم بعزة الله على أنه سيفي كل البشر.

بين كل سور القرآن التي ذُكر فيها هذا الموقف، سورة ص هي السورة الوحيدة التي يُذكر فيها هذا القسم لإبليس. القسم بالعزة، بالتأكيد، إنها سورة تتحدث عن العزة من بدايتها. وإبليس يقسم بعزة الله أنه سيفيهم نحو عزة أخرى: عزة وشقاق.

إبليس من المنظرين، كل منا جزء من هذا التحدي، جزء من هذا الصراع.

سورة ص تحكي لنا قصتنا الشخصية ولكن من زاوية بعيدة جدًا، بحيث نراها من البداية المبكرة، من أصلها.

أما نهاية هذه القصة، فلن نعلمها الآن، بل بعد حين.

خلال ذلك يمكننا أن نساهم في تحديد هذه النهاية.

الزُّمَر ٣٩

معركة مدوية بصمت

لولا أن هناك سورة أخرى اسمها سورة الإخلاص لربما أخذت سورة الزُّمَر هذا الاسم بجدارة،

فهذه البداية تشير السورة إلى الإخلاص، وتكرر هذه الإشارة صريحة في أربعة مواضع لاحقاً.

لكنها ليست سورة الإخلاص،

بل هي سورة الزمر.

وسنعرف أن «الإخلاص» وه الزمر» مرتبطان بأكثر مما بدأ لنا أولاً.



توجه السورة الحديث إلى المخاطب الفرد في أغلب آياتها.

﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ (الزمر: ٢).

﴿إِنْ تَعَفُّوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَنَفَّكُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (الزمر: ٧).

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَلَهُ نِعْمَةٌ مِنْهُ كَسَىٰ مَا كَانُ
يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْفَادًا لِّيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَتَّبِعُوا مَا يَأْمُرُكُمْ فَتُخْلَقُوا
بِرَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ ۝ أَمْ هُوَ قَائِمٌ أَنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ
وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو
الْأَلْبَابِ ۝﴾ (الزمر: ٨: ٩).

﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ۝ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ
الْمُسْلِمِينَ ۝ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝ قُلِ اللَّهُ أَعْبُدُ
مُخْلِصًا لَهُ دِينِي ۝﴾ (الزمر: ١١: ١٤).

﴿أَقْسَمَ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ بِالْإِسْلَامِ قَهْرًا عَلَىٰ نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلنَّفَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ
مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ۝﴾ (الزمر: ٢٢).

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ
مَثَلًا لَخُمِدَ اللَّهُ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝﴾ (الزمر: ٢٩).

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ
هَادٍ ۝ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُبْدِلٍ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ ۝﴾ (الزمر: ٣٦: ٣٧).

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَتَمِيزْ اهُتَدَىٰ فَيَنْفُسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا
يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ بِمُكَيِّلٍ ۝﴾ (الزمر: ٤١).

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ آلِكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ
مِنَ الْخَاسِرِينَ ۝ بَلِ اللَّهُ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ۝﴾ (الزمر: ٦٥: ٦٦).

كل هذه السياقات فردية شخصية في طبيعتها، كما لو أنها تذكرنا
بارتباط الإخلاص - وهو الذي اهتمت به السورة وركزت عليه في أكثر

من موضع - بأمر داخلي جوانبي يخص كل شخص على حدة، الإخلاص لا يمكن قياسه أو تعبيره أو حتى معرفة وجوده من الخارج، هذا أمر بينك وبينه عز وجل فقط، بل إنك أنت شخصياً كنت تكون في شك أحياناً من إخلاصك، ووحده رب العالمين هو القادر على تحديد ذلك.

الإخلاص معركتك الشخصية الداخلية، مثل ذلك الرجل الذي ذكرته الآيات. رجل فيه ﴿شُرَكَاءٌ مُتَشَاكِسُونَ﴾ وآخر ﴿سَلَمًا لِرَجُلٍ﴾، المعنى المباشر كان يعني الرق، فقد يشترك بضعة رجال في امتلاك عبد في زمن العبودية، وقد يكون هذا العبد ملكاً لرجل واحد، هذا المعنى يمكن أن نراه اليوم بزاوية أخرى، أحياناً يكون في داخل فرد واحد أشخاص متشاكسون، كل منهم يمتلك جزءاً من روح هذا الشخص أو عقله أو من قلبه وعواطفه، وعندما يحدث تضارب مصالح بين هؤلاء المتشاكسين؛ فإن كلاً منهم يريد أن يأخذ الشخص إلى مكان آخر.

إنها موقعة الإخلاص، لا يسمع صوتها أحد، ولا تُعْرَفُ نتائجها إلا لاحقاً، لكنها حاسمة ومصيرية.

لكن رغم فردية المعركة، إلا أننا سنرى في نهاية السورة شيئاً مختلفاً جداً.

﴿وَيَسِّرْ لِلَّذِينَ آمَنُوا رُحُومَهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ أَرْحَمَ رَحْمَةٍ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٤﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنُحْمَ أُجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٧٥﴾﴾ (الزمر ٧٣: ٧٤).

بعد مواجهة فردية شخصية، كنت تمتد أنك وحدك من تخوضها، تقول لك السورة: إنك - في النهاية - ضمن فوج كبير، وإنك هذه المرة ستدخل الجنة ضمن مجموعة كبيرة من الأشخاص الذين خاضوا معاركهم داخلياً كما فعلت أنت.

كيف كان الطريق من هذه المعركة الفردية إلى الزُمرَة؟ من الآن إلى الفتح؟

في أحيان كثيرة كان موحشاً حتماً، ككل الطرق المهمة في الحياة، لكن لم يكن ذلك حاله دوماً، مجرد فكرة أن هناك زُمرَة بانتظارك ستخفف من الأمر، مجرد إيمانك بأنك لست وحدك في هذه المواجهة، وأن هناك غيرك - ربما بالملايين - يواجهون مواجهة مماثلة في نفس اللحظة: فإن هذا سيخفف كثيراً من وحشة الطريق.



تشبه هذه اللحظة، لحظة الوعي بأنك جزء من فوج ستضم له، لحظة استشارة، لحظة يتسرب فيها النور إلى دربك، فلا يعود موحشاً كما كان. تشبه تلك اللحظة الأخرى:

﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (الزمر: ٦٩).

أرضك ستشرق بنور ربك.

والطريق من الآن إلى الفتح سيكون أيسر.

سورة غافر ٤٠

البحث عن منفذ للخروج

سورة غافر تتقنك إلى ذلك السؤال الذي قد تطرحه على نفسك في لحظة ضياع ويأس، عندما تسأل نفسك: كيف وصلت إلى هنا؟

هل سأتمكن من الخروج؟

تلك اللحظة عندما تشعر أن كل شيء يحاصرك، وأن كل شيء يطارذك، وأن المعائم على سمته قد ضاقت عليك.

سورة غافر تأتيك هنا بينما أنت تسأل: ﴿فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾ (غافر: ١١).

فتقول لك: ﴿اتَّبِعُونِي أَهْدِيكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ (غافر: ٣٨).

تدلك على الطريق الذي ينفذك من ضياعك، من شعورك باليأس، من شعورك أن لا حل هناك يمكن أن ينفذك مما أنت فيه.

يبدأ هذا الطريق بهذا الوصف لله - عز وجل - الذي ابتدأت به السورة: ﴿غَافِرِ الدَّنْبِ وَفَاقِلِ الثَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهِيهِ التَّجَسُّرُ﴾ (غافر: ٢).

مهما كانت معصيتك، مهما ابتعدت عنه عز وجل، مهما أوغلت في ذنوبك، فإنه ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾.

الباب مفتوح دومًا، يغفر ذنبك ويقبل توبتك.

لكنه شديد العقاب أيضًا.

هل هذه الصفة هنا لتوازن «غافر الذنب، قابل التوب» التي بدأ بها الوصف؟

ممكن، لكن البدء بغافر الذنب وقابل التوب، يعطيك الأمل، بحيث إن «شديد العقاب» تأتي كتمعة منطقية تكمل الصورة دون خلل في الاتجاه نحو هذه الجهة أو تلك بين الترهيب أو الترغيب، بل الاثنان معًا في سياق واحد لا يفصل بينهما فاصل.

﴿ذِي الطَّلَوِ﴾؟ صاحب النعمة والفضل، وأصل الكلمة من فلان، طَوَّلَ، على فلان، أي فضل عليه، والمطالوة تعني المباراة في الفضل، ومنها ما جاء في الحديث: «اللهم بك أحاول، وبك أطاول». ويأخذنا هذا المعنى تحديدًا إلى أفق آخر:

اللهم، يا ذا الطلول، بك أحاول وبك أطاول، أن أخرج من هذا النيه، من هذا اليأس، أن أجد باب الخروج، سبيل الرشاد.

بين المحاولة المتخبطة العابثة كغريسة تتلوى في الفخ، وبين المحاولة التي تستهدي بهديه، وتسترشد بإرشاده، فرق كبير، تعدك سورة غافر بخيوطه.

هنا يصبح لمحاولة الخروج معنى آخر، ليس بمعنى المحاولة كما نفهما بلغتنا اليومية الدارجة، بل بمعنى استمداد الحَوْل والقوة منه عز وجل في هذه المحاولة.

﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الْقَوْلِ﴾.

الله دون أي تجرئة في صفاته.

ستقابلنا آية تتحدث عن ﴿إِنَّ الَّذِينَ هَفَرُوا يُنَادُونَ لَنُنْفِثَنَّ اللَّهُ أَكْثَرَ مِنْ قُبْحِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَعْتَفُونَ﴾ (غافر: ١٠).

والتفسير السائد - ولا شك في صحته - يشير إلى أن الكفار سيكرهون أنفسهم يوم يرون حقيقة أعمالهم.

لكن الكثير من الكافرين في حقيقة الأمر يكرهون أنفسهم قبل ذلك بكثير، يكرهونها في الحياة الدنيا ربما دون أن يعوا ذلك تمامًا.

أولئك الذين لديهم الكثير من الكبر، من الذات المتضخمة، من الأنانية الطاغية لديهم أيضًا كراهية داخلية لذواتهم الداخلية، الذات المتضخمة هنا تعكس تصور شخص ما عن نفسه، وهو تصور بعيد عن الذات الواقعية، عن حقيقة هذا الشخص، وهو لا يملك - كلما تضخمت أناء - إلا أن يكره نفسه الحقيقية الصغيرة الضعيفة - بالمقارنة - مع الذات المتخيّلة.

إنهم يكرهون أنفسهم حقًا، يهربون منها إلى محاولة جعل الذات المتخيّلة واقعًا أمام الناس. حتى لو بالتمثيل، بعمليات التجميل، بالتصنع، بأي شيء.

ومؤمن آل فرعون الذي يكتم إيمانه.

تخيلوه، تخيلوا صعوبة هذا الكتمان، تخيلوه يحمل هذا الإيمان ويخفيه في صدره وهو ضمن الفئة المقربة في قصر فرعون.

ثمة صراع في داخله؟ نعم بالتأكيد، لكن هذا الصراع أخف وطأة من ذلك المقت الذي تحدث عنه السورة، صراعه لأنه يكتم هذا السلام الذي دخل فيه، صراعه كان مع الخارج أكثر مما كان في الداخل.
وفي لحظة ما، لم يعد الكتمان ممكناً.

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٣﴾ يَا قَوْمِ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٢٤﴾ قَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْرَابِ ﴿٢٥﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَدَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ الْفِتْنَةِ وَمَا كُنْتُمْ بِمُعْظِمْهُمْ وَأَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ تَبْيَضُّ بُيُوتُنَا خُضًى وَقُلُومُنَا يَسْوَدُّ بَآبُ السَّمَاءِ فَكَفَى لِلْعَالَمِينَ أَمْرًا ﴿٢٦﴾﴾ (غافر: ٢٣-٢٦).

ما الذي حدث لمؤمن آل فرعون؟ لا نعرف، بقي يجادل قومه وهو يخاف عليهم العاقبة، لا تخبرنا السورة ماذا حدث له وماذا كان رد فعل فرعون تجاهه بالضبط، نعرف أنه نجا من «سبئات ما مكروا»، هل لعبت القرابة دوراً؟ أم أن أسلوب هذا المؤمن كان أخفّ وقعاً من صدمة السحرة الذين

انقلبوا على أفرعون أمام الجميع؟ لا نعرف التفاصيل، لكننا نعرف أن مؤمن آل فرعون يذكرنا - كما تذكرنا زوجة فرعون - بأن النفس البشرية في داخلها خير مهما كانت الظروف المحيطة بها، وأنه هناك بشر لديهم مشاعر ونوازع إيمانية رغم أنهم في عمق معسكر أعداء الإنسانية.

ويخبرنا سكوت السورة عن التفاصيل أيضًا أن مصير السحرة ليس حتميًا على كل المؤمنين أن يتجهوا له بعيون مغمضة، بل ربما كان هناك سبيل للخروج.



﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُنْكَرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانَ امْنِ لِي صَرْحًا لَعَنِي أَبْلُغَ الْأَسْبَابَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَكْذِبُهُ كَذِبًا وَكَذَلِكَ زَيْنٌ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كُنْذِرْ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ (غافر: ٣٥-٣٧).

فرعون وهو يريد أن يبني صرحًا ينال السماء، كان كأنه يهرب من كرهه لذاته الحقيقية، فرعون هو التمثيل الأعلى للذات المتضخمة بين البشر، ولأنه كذلك فلا بد أن كرهه لتفهمه الحقيقية - نفسه البشرية الضميمة مثلنا جميعًا - لا بد أن يكون أكبر من أي كره آخر شعر به البشر لأنفسهم.

كان كرهًا فرعونيًا لدرجة الصعود للسماء، فقط ليهرب من حقيقة ضعفه إلى وهم الأنا المتضخمة، في الظاهر كان يريد أن يتحدى موسى

ويرى ربه، لكنه في جوهر الأمر ربما كان يريد أن يهرب من حقيقة يعرفها: موسى على حق، هو ليس إلهاً، ليس سوى إنسان آخر، مثل كل الذين يحكمهم.

ضاهت عليه الدنيا وهي تحاصره بهذه الحقيقة الكريهة: ربما السماء تكون أوسع له.

لكن عندما تكره نفسك، تحاصرك هذه النفس في كل مكان، فهل إلى خروج من سبيل؟

لا، لا سبيل هناك إلا إن بدأت في استجواب نفسك وما أوصلك إلى هناك.



الطريق إلى سبيل الرشاد، سبيل الخروج من هذه المتاهة يمكن أن يكون بسيطاً واضحاً.

﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِيكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٦٠﴾ يَا قَوْمِ إِنَّمَا هِيَ إِلَهُاتُكُمْ الْحَيَاتُ الذَّنْبُ مَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٦١﴾ مَنِ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُحْزِزْ إِلَى إِلَهِهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ دُونِ ذَلِكَ أَوْ أَنْتَقَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٦٢﴾﴾ (غافر: ٦٠-٦٢).

ليس الأمر معقداً مثل نظرية فيزيائية تحتاج إلى شهادة عليا لفهمها.

الأمر بسيط مثل بديهة لا تحتاج إلى تفسير: العمل السيئ له عقاب، والجيد له ثواب، نقطة انتهى.

للأسف، لا يبدو الأمر كذلك بالنسبة لكثيرين، سيكون هناك الكثير من الجدل لغرض الجدل، لا لغرض الوصول إلى الحقيقة، الجدل المدفوع بقوة تضخم الأنا، والذي سيقود إلى حادث مسدود.

بالنسبة لمؤمن آل فرعون، وكل مَنْ هو مثله، بما فيهم أنت شخصيًا، لن يكون هناك سوى قول: ﴿قَسَدَ كُرُونِ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَقْرَضَ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ (غافر: ١٦).

في هذه الرحلة في البحث عن سبيل للخروج سنمر بآية سبق وأن مررنا بها يشبهها في سورة البقرة، لكن هذه المرة سنفهمها على نحو مختلف.

﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَنْكُرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَبِّحْلُونِ جَهَنَّمَ نَاجِرِينَ﴾ (غافر: ٦٠).

هنا سنرى أن الدعاء والاستجابة تعلقان بسبيل الخروج من هذا التيه. من يدعو الله أن يخرج من هذا سيجد الطريق.

أما الذي يعتقد أنه ليس بحاجة للدعاء ليصل إلى الطريق، فلن يجد سوى طريق فرعون وصرحه الذي يريد أن يطّلع به إلى السماء. ونهايته معروفة سلفًا.

وقبل أن نغادر سورة غافر نقول لنا السورة: إن رحلة البحث عن سبيل للخروج ساهم فيها رسل كثيرون.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَضَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرُسُولِي أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ فُضِّي بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ (غافر: ٧٨).

ليس المهم أن نعرف أسماء كل الرسل، المهم أن ننتبه إلى أن كل تجاربهم كانت متشابهة في العمق والجوهر، وأن ننتبه إلى الأنماط المتكررة في سلوك الناس من حولهم؛ لأنها غالبًا ستبقى تتكرر دومًا رغم اختلاف الأزمنة والأماكن واللغات ودرجة تطور المجتمعات.

وفي خاتمة السورة نودعنا بملخص عام.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرُ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَأَثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَعْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْشِبُونَ﴾ (غافر: ٨٢).

ربما ساروا ولكن لم يبهسروا جيدًا، أو أشاحوا بأنظارهم بعيدًا، ربما وجدوا المنفعة في المناهضة وقرروا أن يعضوا في الضياع، ربما كان ضياعهم مهربًا من مواجهة الحقيقة، من مقتهم لأنفسهم.

أما نحن، فتحن نريد أن نسير ونحن نبصر، وأن نجد سبيلًا للخروج. وسندعو غافر الذنب قابل التوب شديد العقاب ذي الطول أن ييسر لنا الطريق.

سورة فصلت ٤١

صافرة إنذار داخل رأسك!

سورة قُصِّلَتْ مثل صافرة إنذار تطلق صوتها داخل رأسك.

صافرة إنذار تصرخ في أذنك: حذار، الصاعقة قادمة.

أغلب صافرات الإنذار تُطلق عندما يكون الخطر وشيكًا، القارة قادمة، الصواريخ دخلت مجالًا جويًا قريبًا، بالكاد تستطيع أن تذهب أنت وأطفالك إلى الملجأ لو كان قريبًا.

لكن سورة قُصِّلَتْ هي صافرة إنذار تقول لك: الصاعقة قادمة. ولا فائدة من الذهاب إلى الملجأ؛ لأنه سيُدمَّرُ وسينهار عليك أيضًا.

صافرة الإنذار هنا تقول لك: إن الصاعقة قد تكون من داخلك، وبالتالي فالهروب لا يجدي، كل ما تستطيع فعله هو أن تحاول أن تتغير. الملجأ الوحيد الممكن من صاعقة تأتيك منك هو أن تتغير أنت.

هذا ما تقوله السورة، وهذا تفسير صوت صافرة الإنذار الذي يدوي في رأسك عندما تقرأها.

وهذا ما فهمه بعض رجالات قريش عندما قرأها عليهم عليه الصلاة والسلام.

ذهب إليه واحد منهم - عتبة بن ربيعة - ليضاضه عليه الصلاة والسلام.

فقرأ عليه سورة فُصِّلَتْ إلى قوله تعالى ﴿قَبَّانِ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثُودٌ﴾ (فصلت: ١٣).

هنا قال عتبة: حَسْبُكَ حَمْبُكَ، مَا عِنْدَكَ غَيْرَ هَذَا؟
قَالَ: لَا.

فَرَجَعَ إِلَى قُرَيْشٍ فَقَالُوا: مَا وَزَأَكَ؟
قَالَ: مَا تَرَكْتُ شَيْئًا أَزِي أَنْكُمْ تُكَلِّمُونَهُ بِهِ إِلَّا وَقَدْ كَلَّمْتُهُ بِهِ.
فَقَالُوا: فَهَلْ أَجَابَكَ؟

قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: لَا وَالَّذِي نَضَبَهَا بَيْنَهُ مَا فَهِمْتُ شَيْئًا مِمَّا قَالَ غَيْرَ أَنَّهُ
أَنْذَرَكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثُودٌ.
قَالُوا: وَبِئْسَ بِكَ كَلِّمَكَ رَجُلٌ بِالْعَرَبِيَّةِ لَا تَدْرِي مَا قَالَ؟
قَالَ: لَا وَاللَّهِ مَا فَهِمْتُ شَيْئًا مِمَّا قَالَ غَيْرَ ذِكْرِ الصَّاعِقَةِ.^(١)

عتبة كان يفهم حتمًا ما يقال، لكن صوت صافرة الإنذار في رأسه كان
عاليًا مدويًا، لم يستوعب سوى ذكر الصاعقة.

كانت هذه المرة الأولى والوحيدة التي يتم فيها توجيه إنذار مباشر
وصريح لقريش بصاعقة تضربهم كما ضربت عادًا وثمود.

(١) مصنف أبي شيبة ٣٦٥٦٠، المستدرک علی الصحیحین للحاکم ٢٠٠٢، ومصحح الألباني في صحيح البصرة.

في المواضع الأخرى تُذكر القصة، ويُفهم منها التحذير.
 لكن هنا: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثُمُودَ﴾
 (فصلت: ١٣).

ولقد أعرضوا.

إذن؟

صاعقة عاد وثمود.

لكن ما الذي أوصل الأمور إلى هذه النقطة؟

ما الذي جعل صاعقة الإنذار تتطرق هنا؟

من هو الذي يستحق هذا الإنذار الأخير، الفرصة الأخيرة؟

﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا نَدْعُونَ إِلَيْهِ فِي آذَانِنَا وَقَدْ أُنْزِلَتْ مِنَّا بَيِّنَاتٌ وَبَيِّنَاتٌ حِجَابٌ
 فَأَعْمَلْ إِنَّا غَائِلُونَ﴾ (فصلت: ٥).

هذه هي نقطة الالعودة. هذا هو الاختلاف عما سبق.

لماذا؟ مرت مثل هذه الآيات سابقاً، في سور الإسراء والكهف والأنعام
 ولقمان.

لا، هذا الشبه ظاهري فقط.

في كل تلك السور السابقة هناك وصف لهم مشابه لهذه الآية، الآيات تصفهم بأنهم ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةٌ أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾.

هنا هم من يعترف بذلك، هنا يقولون بوضوح: في قلوبنا أكِنَّة مما تدعونا إليه، في آذاننا وقْر، وبيننا وبينك حجاب، فاعمل إننا عاملون.

بعبارة أخرى معاصرة أكثر: نحن لا ولن ولا يمكن أن نسمع لك، أصابعنا في آذاننا ومهما ارتفع صوتك لن نسمع. غافل ما تريد.

الأمر هنا صار مع سبق الإصرار والترصد.

وصلنا لمرحلة لم يعد السير مع القطيع أو اتباع الآباء هو السبب في رفض الإيمان.

بل صار رفضاً واعياً مدركاً أنه إنما يتعمد عدم السماع.

وتدوِّي الصافرة.

﴿أَنْذَرْتَكُمْ ضَاعِقَةً مِثْلَ ضَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ (فصلت: ١٣).

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَبِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ الْأَعْجَبِيُّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَبَيِّنَاتٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آفَانِهِمْ وَقُرْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ (فصلت: ١٤).

هذا النوع من الأشخاص لا يكتفي أبداً من الجدل، يسألون الأسئلة لا لغرض الوصول إلى جواب، بل لغرض طرح سؤال آخر، يفعلون ذلك عمداً.

لماذا نزل القرآن بالعربية؟ مهما كان الجواب فسيكون هناك أسئلة أخرى،
وسيقولون الشيء ذاته عن أي لغة أخرى.

لا يريدون الحق ولا الجواب، قلوبهم في أكف، وفي آذانهم وقر.

﴿صُمُّ بُحْمٌ عُنِي﴾، مع سبق الإصرار والترصد.

في حياتنا قد نلتقي أشخاصاً كهؤلاء، يرفضون الحق وهم يعلمون أنه
الحق، مختلفون عن أولئك الذين يتبعون الباطل؛ لأنه خدعهم أو ضللهم
أو غسل أدمغتهم أو استغل جهلهم، هؤلاء مضللون، لكن أولئك يمرضون
تماماً ما يفعلونه وهم يفعلونه عن سابق تصميم، عن وعي.

أحياناً نلتقي بهم.

وأحياناً نكونهم.

نعم، قد يحدث هذا أحياناً معنا.

علينا أن ننتبه لصوت صافرة الإنذار.

هناك صاعقة بطريقة ما - بشكل من الأشكال - قد تأتي في أي وقت.

هل يشترط هنا أن تكون الصاعقة هي الصاعقة التي تنتج عن التفريغ

الكهربي من الغيوم؟

الصاعقة التي أُذِرْتُ قريش بها كانت مثل هذه الصاعقة؛ لأنها مثل

صاعقة عاد وثمود.

لكن على المستوى الفردي الشخصي، ربما صاعقة كل منا مختلفة، ربما تكون في تحجر مشاعر نصاب به فتصبح قلوبنا ميتة، مجرد مضخة تضخ الدم إلى الجسم، ربما تكون في ثقب أسود من ثغوب الحياة ومناجاتها، بيتلنا إلى ما لا نهاية، فننسى أنفسنا فيه، ربما تكون أن نتحول لتصبح كل ما نكرهه ونكره أن نكونه.

وقد تكون الصاعقة هي تلك الصعقة في النهاية جداً يوم القيامة؛
نسخة الصعق.

للصاعقة أشكال كثيرة جداً.

علينا أن نتجنب ما يمكن أن يقود لها في حياتنا.

هؤلاء الأشخاص الذين يتمسدون الوقر في الأذان والقلوب في الأكنة يمتلكون غالباً من يصفق لهم ويؤيدهم، قد يكون متبوعاً من قبلهم، وهو سبب أمامي فيما هم فيه.

وقد يكون العكس، قد يكون هؤلاء المصفقين هم التابعون.

سواء كان هذا أو ذاك، يحدث هذا يوماً، تابع أو متبوع، مصفق ومصفق له، ولعل هذا يزيد من إصرارهم على المضي في العناد، يشعرون أنهم على صواب ما دام هناك من يصفق.

﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ (فصلت: ٢٥).

﴿حَقِّ إِذَا مَا جَاءَهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَنُحْمُ وَأُبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٠﴾ وَقَالُوا لَوْلَا جُلُودُهُمْ لَمْ يَكُنِ لَهُمْ لَبَاسٌ قَالُوا تِلْكَ قَوْلُ اللَّهِ الَّذِي أَنْتَطِقُ كُلُّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤١﴾﴾ (فصلت: ٤٠، ٤١).

كل حواسهم ستبصر منهم، هذه الحواس تعرف أنهم كانوا متممدين في موقفهم، كانت تثقل لهم المعلومات كما هي، لكنهم كانوا بصمئون أذانهم ويفمضون عيونهم عامدين، بالتأكيد ستبصر منهم حواسهم وتقف لتكون شاهدة موجهة أصابع الاتهام لهم.

نستطيع أن نخيل أن حواسنا ستتصل عنا بكل سهولة يوماً ما لو حدث شيء مشابه، وستتوجه أصابع الاتهام نحونا آنذاك.

تنتهي سورة فصلت بذلك الوعد الذي لا نزال نراه متجدداً حياً.
﴿سَرَّيْهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَّيْنَ لَهُمْ أَنََّّهُ الْحَقُّ أَوْ لَمْ يَكُفِ بِرَبِّكَ أَنََّّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ (فصلت: ٥٣).

المسافة بين النفس والأفاق قد تبدو طويلة، لكنها ستكون مليئة بالآيات التي لن نبصرها أو نستشعرها أو نعلمها إلا إذا نزعنا الوقر عن أذاننا، وقلوبنا من الأكنة.

وإذا لم نفعل، فمضافة الإنذار تصيح مدوية: الصاعقة قادمة.

الشورى ٤٢

العسل الذي وصل!

عندما ندخل سورة الشورى، تذهب أذهانتنا فوراً إلى كل الحديث السائد عن الشورى سياسياً وتاريخياً، وكيف أنها سبقت الديمقراطية الغربية إلخ.

لكن لا شيء من هذا كله في سورة الشورى حقاً.

لا ديمقراطية في سورة الشورى.

ولا يعني هذا موقفاً مضاداً للديمقراطية على الإطلاق، كما لا يعني أنه موقف مؤيد لها، هذا خلط للأوراق، والديمقراطية آلية مختلفة عن مفهوم الشورى كما تقدمه السورة.

السورة في الحقيقة تهتم في أذنك شخصياً بأمر قد تكون بعيدة عن السياسة، السورة تصالحك مع حقيقة إنسانية قد تكون مزعجة لكثيرين، لكنها ككل حقائق الحياة، يجب أن نتصالح مع وجودها، ونتعامل معها بأنها أمر كان وسيكون ولا جدوى من إنكاره، علينا التعامل مع مخرجات هذه الحقيقة بواقعية.

هذه الحقيقة هي الاختلاف بين البشر.

مهما حاولت ومهما كان الحق - من وجهة نظرك - واضحاً صريحاً لا لبس فيه ولا غش عليه، فإنك ستجد من يختلف معك إلى درجة التضاد التام مع الحق».

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالْقَاسِيُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَرِيٍّ وَلَا يُصِيرُ﴾ (الشورى: ٨).

﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكِّمُوهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ (الشورى: ١٠).

﴿فَنَزَّلْنَا الْحُكْمَ مِنَ الذِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴿١٠﴾ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَيِّنَاتٍ يَبَيِّنُ لَكُمْ بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّوَلَا كَلِمَةً سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١﴾ فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْبِدَ يَتَنَكَّبُ اللَّهُ رَبَّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْتَبِى بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ النَّصِيرُ ﴿١٢﴾ وَالَّذِينَ يُخَاجِرُونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتَجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ (الشورى ١٣-١٦)

الاختلاف حقيقة مؤكدة إذن، بعض الأمور قد يؤدي الخلاف فيها إلى ما لا تُحمد عاقبته في الآخرة، لكن دنيوياً، الاختلاف سيبقى قائماً.

قد يتبادر إلى الذهن هنا أن مفهوم الشورى الذي تطرحه السورة هو حل الاختلاف الحاصل، أو للوصول إلى حل وسط، يرضي جميع الأطراف. على الإطلاق، مفهوم الشورى لا علاقة له بحل هذا الاختلاف. السورة تشير إلى الاختلاف بالفعل، ولكنها تدخل بعدها إلى شيء آخر. لكن ما معنى كلمة شوري أصلاً؟ من أين جاءت؟

قد نتخيل أن أصل الكلمة في معنى مرتبط بالنقاش والتساؤل، وهو ما يدل عليه المعنى الاصطلاحي، لكن في الحقيقة الأصل لهذه الكلمة يرتبط بمعنى شديد الإلهام والقوة.

الكلمة أصلها من «شار» العسل، اسْتَخْرَجَهُ مِنَ الْوَقْبَةِ واجْتَنَاهُ، شَرْتُ الْفَسْلَ واشْتَرْتُهُ اجْتَنَيْتُهُ وأَخَذْتَهُ مِنْ مَوْضِعِهِ^(١).

إذن هو استخراج العسل.

لكن كيف تطور الأمر من استخراج العسل إلى الوصول إلى رأي شديد كما هو معنى الشورى اليوم؟ يبدو الأمر بعيداً.

على الإطلاق، الأمران قريبان جداً، وهذا المعنى الأصلي هو الذي سيوضح لنا المعنى الحقيقي للشورى، المعنى الذي يمكن أن يكون شاعراً ومؤثراً حتى في حياتنا الشخصية.

(١) لسان العرب، عادة شار

استخراج العسل يحدث من خلية النحل كما هو معروف.

لكن هذا العسل يكون نتيجة لعمل كل أفراد مستعمرة النحل، بكل تقسيماتها وطبقاتها: الملكة، الذكور، العاملات.

إذا كنا نشبه العسل المستخرج بالرأي الناتج عن الشورى، فالرأي هنا هو نتاج جماعي لعمل دؤوب، ولا يشبه فكرة البعض عن الشورى بأنها الحل الوسط، أو الحل الذي يرضي جميع الأطراف المختلفة أصلاً.

الرأي الناتج هنا أقرب إلى أن يكون الحل الأمثل الذي يعمل عليه الجميع.

الجميع من؟

الجميع في مستعمرة النحل وليس في المستعمرة المجاورة، أو في مستعمرة النمل تحت الشجرة هناك.

بعبارة أخرى: هو ناتج يعمل عليه مجموعة من الأشخاص الذين ينتمون لمنظومة واحدة.

منظومة فكرية واحدة أو منظومة وطنية واحدة أو منظومة عمل واحدة، المهم أن لديهم ما يجمعهم على أساسات ومبادئ مشتركة، يمكنهم بعدها العمل للوصول إلى الرأي الأمثل، ناتج عمل الجميع.

الرأي هنا ناتج عن مجموعة منسجمة مع نفسها، لديها مرجعية مشتركة ومبادئ مشتركة وأهداف مشتركة، يأتي الناتج هنا كثمرة لكل هذا.

يمكن لفرقاء من منظومات مختلفة ومرجعيات مختلفة أن يصلوا أيضًا لحل يتوسط آراءهم ويقتنع أغلبهم بأنه الحل الأمثل لمشكلة يشترك في مواجهتها الجميع، لكن هذا شيء مختلف عن الشورى. الناتج المستخرج من مستعمرة النحل التي يؤدي كل فرد فيها دوره حسب منظومة متفق عليها.

وهذا هو بالضبط ما تحدث عنه سورة الشورى عندما تأتي لذكر الشورى.

﴿مَا أَوْتَيْنَا مِنْ شَيْءٍ فَتَبَاعِ الْحَبَاةَ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَالَّذِينَ يَخْتَفُونَ كِبَآئِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾﴾ (الشورى ٣٦: ٣٨).

الحديث هنا عن مجموعة مؤمنة لها مرجعية عقائدية وأخلاقية تربط بين أفراد هذه المجموعة، مؤمنون متوكلون يجتنبون كبائر الإثم ويفضلون المغفرة عند الغضب، وأقاموا الصلاة.

وبعد كل هذا: أمرهم شورى بينهم.

هناك ما هو متفق عليه أصلاً بينهم؛ ولذلك فالرأي الذي يصلون إليه في الشورى هو الرأي الأمثل حسب منظومتهم ومرجعيتهم.

حسب هذا: لا ديمقراطية في الشورى.

وهذا لا يعيب الديمقراطية في شيء، ولا يعني أننا يجب أن نأخذ منها موقفًا مضادًا أو مؤيدًا أو أي شيء، هي ببساطة شيء آخر، آلية وصل لها

البشر عبر تجاربهم التاريخية وأثبتت نجاحاتها في أحوال كثيرة، ولم تقدم الكثير في أحوال أخرى.

سورة الشورى تشير لنا ببساطة إلى أننا عندما نريد أن نسأل النصيح، أن نصل إلى حل المشكلة تواجهنا، علينا أن نبحث عن أشخاص يفهموننا. يتحدثون بلغتنا ويعرفون كيف نفكر! لأن هذا سيعني أننا نقف على أرضية واحدة، لن تكون هناك نصيحة قادمة من مرجعية مختلفة لا تفهم أن لكل شيء سياقاته وأسبابه وجذوره، وأنت لا يمكن أن تستورد النصائح كما تستورد الأدوية والمراهم.

لكن ماذا عن الأشخاص الذين لا نشترك معهم في نفس المرجعية؟

نتجاهلهم؟ لا ننظر إليهم؟ نُقصيهم؟ نلقي بهم في البحر؟

أو نفعل بهم ما هو أكثر من كل هذا؟ لأنهم لا يؤمنون؟

لا، بالتأكيد لا.

هناك أولاً إشارة أرى أنها قد جاءت لتذكيرنا بما هو خارج هذه

المنظومة المتفق عليها.

﴿ذَٰلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهَ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَن يَعْرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ (الشورى: ٢٣).

المودة في القرى.

عليه الصلاة والسلام، كانت لديه قرابة مع كل بطون قريش بدرجات

مختلفة، وقرابة كهذه يمكن أن تكون أساساً لمودة، لنوع من التعايش بين

الضراء المختلفين في أمور كثيرة، لكن القرابة يمكن أن تكون منطلقاً لحل مبني على المودة، حل ودي.

من الذي يمكن أن يُمنّنى من هذا؟

﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (الشورى: ٤٢).

الأمر هنا يختلف مع الظلم والبهني، المودة في القريب يتوقف العمل بها.

على المستوى الشخصي، قد يتفعنا كثيراً أن نرى وجهة نظر مختلفة قادمة من زاوية أخرى تماماً، من أرضية مختلفة.

لكن عليك أن تعي تماماً أن تعاملك الجاد معها كنصيحة قد يحمل بعضاً من الشك بمرجعيتك الأساسية، أو أنها لم تعد تمدك بالنصح والإرشاد اللذين تحتاج لهما.

قد لا يعني هذا وجود مشكلة في مرجعيتك نفسها، بل ربما فيمن حولك، فيمن يستخرج منها النصيح والتعليمات.

لا تستعجل البحث عن مرجعية أخرى، بل حاول أن تتفحص بنفسك.

﴿مَا كُنْتُ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِنْسَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَاطَ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾.

الزخرف ٤٣

بعض ما يلمع، يقتل

ليس كل ما يلمع ذهبًا.

في الحقيقة إن بعض ما يلمع يمكن أن يكون نصلًا حادًا لسكين يتريص برقبتهك، بينما أنت معجب ومتهرب بلمعانه وبريقه.

بل حتى لو كان هذا الذي يلمع ذهبًا، قد يكون نصلًا مديًا يريد خنكك.

ليس كل ما يلمع خيرًا بالضرورة، حتى لو كان ذهبًا حقيقيًا.

نأخذك سورة الزخرف إلى الممان قد يسلب لُبَّك وقلبك، وهو في حقيقته زيف أجوف. لكنك تسير خلفه كالمنوم. بل ربما أصبح السير خلف هذا الزيف المجوف أسلوب حياة يتبعه كثيرون، بل ويعتبرونه هو أسلوب الحياة الأمثل، الأسلوب الأكثر حداثة ومناسبة للعصر الحالي.

﴿أَفَتَنْتَظِرُ عُصْفُكُمُ الذَّكَرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ﴾ (الزخرف: ٥).

السرف ملازم للانبهار باللامع الأجوف، الدرب إلى الانبهار بالزيف يمر أولاً بالسرف، بهذا الجوع نحو المزيد، يتجاوز ما هو أساسي وضروري نحو الطمع والجشع.

وبعدها تأخذنا السورة إلى علامات فارقة تصف هذا اللعنان المزيف الأجوف.

﴿إِنَّمَا اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ﴾ (١٦) وَإِذَا بَشَّرَ أَحَدَهُمْ بِمَا صَرَّبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا قُلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿ (الزخرف ١٦: ١٧).

التفاخر بالولد الذكور والحزن على ولادة الأنثى؛ علامة على جعل المعايير مرتبطة بالاقتصاد، بالضبط بالظاهر السطحي من الثروة، فكل ذكر كان يُعد قوة عاملة إضافية للعشيرة أو القبيلة بما أنه قادر على حمل السلاح.

أما الأنثى فلم تكن تضيف للقبيلة ثروة حسب تصورهم الضيق. ولادة الذكر في هذا السياق كان مفخرة اقتصادية، مثل التفاخر اليوم بالسيارات الفارهة أو الملابس ذات العلامات التجارية الفاخرة أو الساعات أو غيرها.

هؤلاء تحولهم معاييرهم المغرقة في ماديتهما إلى الاستسلام للواقع بكل ما يأتي به دون محاولة لتغييره.

﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاكُمْ مَا لَكُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢١﴾ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتُمْسِكُونَ ﴿٢٢﴾ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرِكُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ (الزخرف ٢٠: ٢٤).

ها هم المترفون يفضلون البقاء على إرث الآباء، بالتأکید. ما دام هذا الإرث يضمن لهم ترفهم والبقاء فيه.

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ (الزخرف: ٣٦).

التجاح والشرف والعظمة حسب معاييرهم كانت تتطلب أن ينزل القرآن على رجل من كبار أثرياء قريش أو الطوائف، في هذا السياق لم يكن لديهم مشكلة في وجود قرآن ينزل أو رسول من الله يحمل رسالته، كانت مشكلتهم في أن هذا الرجل الذي تنزل عليه القرآن - صلوات الله وسلامه عليه - لم تطبق عليه شروط العظمة والشرف حسب معاييرهم، لا مال كثير يخصه، ولا ذكور، إذن، كيف يختاره الله لهذه المهمة؟

معايير التفاضل المادي كانت نعيمهم لهذه الدرجة.

هل تميمنا نحن أيضًا لنفس الدرجة؟ أم أقل؟ أم أننا نحاول أن نغض النظر عن ذلك؟



﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيُوبِتَهُمْ سَعًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ ﴿وَلِيُوبِتَهُمْ أَبْنَاءُ وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَكَبَّرُونَ﴾ ﴿وَزُخْرَفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعٌ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ (الزخرف ٣٣: ٣٦).

﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ﴾.

﴿يَعْشُ﴾ هنا من العشو، العمى، كما في «العشو الليلي».

من يعم عن ذكر الرحمن.

لماذا عمي عن ذكر الرحمن؟ ما الذي أعماه؟

لأن بریق الفضة والزخرف وكل الزيف المبهرج الأجوف بلمعانه الأخاذ
أعماهم عن ذلك، خطف أبصارهم وسلب عقولهم.

وعندما تسير في الطريق وأنت لا ترى، عليك ألا تتوقع الكثير.

تعيداً عليك ألا تتوقع أنك تسير في الاتجاه الصحيح.

ولا يمكن أن يكون هناك حديث عن هذا الزخرف الكاذب دون أن نرى
فرعون، نموذج الأنا العليا في أشد صورها طغياناً، وهو يستخدم المظاهر
والترف كدليل لجعل قومه أشد انصياعاً له.

﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي
 مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥٠﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَصْطَادُ يُبِينُ ﴿٥١﴾
 قُلُوبًا أَلْقَىٰ عَلَيْهِ آسُورَةً مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَأِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٢﴾ فَاسْتَحَفَّ
 قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٣﴾﴾ (الزخرف ٥١: ٥٤).

فرعون يقول لقومه: عندي كل هذه الأموال والأملالك، لو أن موسى جاء
على الأقل بأسورة ذهبية، أو كان معه ملائكة.

منطلق لا يكاد يصلح للحديث مع شخص ناضج.

تعامل مع قومه بهذا المنطق الذي يستخف بعقولهم.

لكنه نجح معهم، أظاعهم، لما إذا لأنهم أصلاً كانوا فاسقين، قدموا
شهواتهم وغرائزهم على عقولهم وجعلوا لها الأولوية.

لذا كان من الطبيعي أن يجدوا ما قاله فرعون مناسباً.

ولا زال الأمر يحدث كثيرًا مع وسائل إعلام تعامل الجماهير بنفس الطريقة وتسببها إلى حيث تريد، بل حتى على مستوى الأشخاص والأفراد، يحدث كثيرًا أن نجد من يحاول خداعنا بنفس الطريقة، وكثيرًا ما ينجح.

ربما كنا نحن أنفسنا تفعل ذلك أحيانًا دون أن نكون واعين بما نفعل.



﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ (الزخرف: ٨١).

لو كان لمنطق الزخرف قوة وصلابة ويمكن أن يؤتي ثماره، لو كانت هذه الزخارف حقيقة لكنت أنا أول من يتبناها ويؤيدها.

لكنها مجرد زخارف، تعمي الأبصار عن حقيقة الأشياء.



لو تأملنا في تجاربنا الشخصية التي انتهت نهاية لا نريد تذكرها، لوجدنا أن الزخرف كان سببًا أساسيًا في دخولنا لها، في غفلتنا عن حقائق واضحة أدت إلى ما أدت إليه.

أحيانًا زخرفت لنا الأحلام والأمنيات واقمًا لم ندرسه بما فيه الكفاية، وأحيانًا زخرفت لنا عواطفنا أشخاصًا فجعلتنا نغمي عن صفات واضحة، جعلتنا ننتبه للشكل والعطر والابتسامة والمجاملة، ونغفل عما هو جوهري وأساسي.

وأحياناً تُستخدَم الزخارف للترويج لأيديولوجيات وأفكار، فيتلع العلم
ونجد أنفسنا في داخل بطن حوت عملاق.

حتى «قال الله، قال الرسول» يمكن أن تُستخدَم كزخارف للأسف،
يمكن أن تكون ضمن كلام منمّق يهاجم حقائق العلم، أو يدعو للقتل
والذبح باسم الدين.

لا يمكن لتجار الشر إلا أن يجدوا زخرفاً ما ليروجوا لتجارتهم.
يستخفون الضوم! ليطيحهم.

الدُّخَانُ ٤٤

دخان بنكهة الوعي

في السماء ثمة دخان من بعيد،

هذا يعني أن هناك ناراً في مكان أبعد.

وأن هذه النار قادمة.

لا دخان بلا نار كما يقولون، والدخان يعني هنا شيئاً واحداً، لقد ابتدأ الحريق بالفعل، وها هو الدخان يأتي.

ما الذي تفعله هناك

الكتاب المبين، الذي تَفْتَحُ السورة بالإشارة إليه، هو الذي يدلّك على ما يجب أن تفعله، عندما ترى السماء وهي تأتي بالدخان.

لكنه دخان مبين، هذا الدخان.

الدخان عادةً يكون مموهاً، يخفي ما خلفه، عندما يراد أن يصرف أنظار الناس عن شيء معين، يرسي لهم بقنبلة دخانية.

لكنه هنا دخان مبين، دخان يقول لك الحقيقة، ربما يواجهك بنفسك، بحقيقة ما قدّمت وكنت تتلهى عنه بقنايل دخانية اخترعتها بنفسك.

لكن هذا دخان من نوع آخر.

﴿فَازْتَفِ بِيَوْمِ ثَلَاثِي السَّاءِ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾ (الدخان: ١٠).

ستقول لنا السورة شيئاً مبيناً في بدايتها.

﴿رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنُتُمْ مُوقِنِينَ﴾ ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ (الدخان: ٧: ٩).

هناك «موقنون»، وهناك من «هم في شك يلعبون».

هناك يقين يجعل أصحابه مستشعرين لوجوده عز وجل، وهناك في الجهة الأخرى: شك.

لكن ليس أي شك. ليس مجرد شك.

بل هو شك لاعب. شك يتصلى به أصحابه لمجرد الشك، مثل لعبة أخرى يقضون بها أوقاتهم.

يمكنك أن تشك بينما أنت في طريق رحلتك لليقين. شك جاد باحث عن الأجوبة، هذا الشك يمكن أن يكون معيناً لك على الطريق.

أما الشك عندما يكون جزءاً من اللعب واللهو والصرعات الفكرية الجديدة، فهو لا يمكن أن يكون إلا مثل قنبلة دخانية تزيدك ضلالاً على الطريق.

ربما هذا الدخان يعتمد على كيفية رؤيتنا له.

يمكن أن يكون معيناً لنا على الطريق، مبيئاً لأخطائنا وعيوبنا، إنذار بحريق قادم يمكننا أن نعمل على تحاشيه أو إطفائه.

ويمكنه أن يكون على العكس من ذلك.

لا يمكن أن يكون هناك حديث عن الدخان المبين دون أن نمرُّ على
 فرعون، نموذج مثالي لأننا عليها التي تعمى عن رؤية الدخان القادم
 بإنذار الفار.

﴿قَاسِرٍ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُّتَّبِعُونَ﴾ وَأَتْرَكَ الْبَحْرَ زَهَوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّفْرَقُونَ ﴿٢٦﴾
 كَمْ فَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٧﴾ وَزُدُّوا مَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٨﴾ وَنَعْمَ كَانُوا فِيهَا
 فَاكِهِينَ ﴿٢٩﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٣٠﴾ (الدخان ٢٣: ٢٨).

الذين آمنوا تعاملوا مع الإنذار كما يجب: فتهجوا.
 لكن فرعون ومن معه تعاملوا مع الدخان بتحدٍ، باستهزاء، يلعب.
 فكانوا مغرقيين.

﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ﴾ (الدخان: ٢٩).
 نتخيل دومًا أننا في غاية الأهمية والخطورة وأن الأماكن تشنق لنا
 وتبكي لفراقنا.
 لكن في الحقيقة لا شيء من هذا يحدث، الحياة تستمر كما لو أننا لم
 نمر بها أصلًا.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾ ﴿٣١﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ
 وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ (الدخان ٣٨: ٣٩).

صعب أن تتجاوز إشارة النفي عن اللعب هنا، خاصة بعد لعبة الشك
 التي مررنا بها قبل قليل.

هذا العالم لم يُخْلَقْ لعباً أو لهواً أو عبثاً، بل خُلِقَ بالحق، بقوانين وسنن نعلم بعضها منها ونجهل الكثير منها.

هذا الحق، هذا الخلق بالحق، بالقانون، يتطلب جدية في البحث عنه، حتى لو شككت بكل شيء، ليكون شكك على مستوى هذا الخلق، ليكون شكك جاداً، لا لعباً ولهواً.

وإن قضيتها لعباً وخوضاً ولا مبالاة، فسيكون لديك لعبة أخرى هناك، لاحقاً في الآخرة.

ما رأيك أن نحاول المشاركة بها؟

﴿إِنَّ شَجَرَتَ الرَّقْمِ ﴿ طَعَامُ الْإِنَّمِ ﴿ كَالْهَبْلِ بَغِي فِي الْبُطُونِ ﴿ كَفَنِي الْحَبِيمِ ﴿ خُدُوهُ فَاعْتَبِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْحَبِيمِ ﴿ ثُمَّ صُبُّوا قَوْلَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَبِيمِ ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿ (الدخان: ٤٣: ٤٩).

﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ سابقاً وبمعابيرك أنت، ولكن لأنك قضيت وقتك الدنيوي لعباً ولهواً وأشغيت بوجهك عن الدخان الذي كان يتسرب شيئاً فشيئاً إلى كل شيء، فقد وصلت إلى هنا.

ماذا عنا نحن؟

تقول لنا السورة أن نراقب الدخان ونميزه جيداً.

﴿فَارْتَبِّبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ﴾ (الدخان: ٥٩).

سورة الجاثية ٤٥

اللحظات الأخيرة قبل نطق الحكم

جربت الانتظار؟

انتظار نتيجة ما، امتحان مثلاً، امتحان مصيري يحدد مستقبلك، أو نتيجة مقابلة عمل يتوقف عليه مسارك المهني، أو نتيجة فحص طبي يقطع الشك باليقين في كون هذا التضخم الذي شككت بوجوده هو سرطان بنهش في أحشائك أو مجرد ورم حميد لا عواقب خطيرة له، أغلب البشر يتوترون أثناء الانتظار أكثر من توترهم أثناء التحضير له أو أثناء خوضه.

تعبيرهم عن القلق مختلف دوماً، البعض يروح ويحيي في قلق، ويكون معرضاً للانفجار في أي لحظة، البعض يفضل الهرب إلى عدم التفكير، النوم مثلاً أو الانشغال بالكثير من العمل. ريثما تظهر النتيجة.

في اللحظات الأخيرة من الانتظار، بينما النتيجة تكاد تُعلن، يبلغ التوتر مداً، القلوب عند الحناجر، تكاد تسمع دقاتها كما لو كانت في مكبر صوت. البعض هنا لا تحمله قدماء من شدة التوتر. يجثو على الأرض، لا هو يستطيع الوقوف قائماً، ولا يملك ترف الاستلقاء على الأرض في هذه اللحظات.

تلك اللحظات الأخيرة من الترقب والانتظار هي الأصعب الأشد، مصيرك معلق على ما سيظهر خلال ثوانٍ، وأنت لا تستطيع أن تفعل أي شيء حياله.

إلى هذه اللحظات الصعبة تأخذنا سورة الجاثية في جولة تفقدية، كما لو أنها تأخذنا إلى مكان سنعيش فيه لاحقًا، وعلينا أن نتعرف عليه من الآن.

ما الذي سيحدث في هذه اللحظات وقد قُضِيَ الأمر. لا شيء يمكنك أن تفعله لغير النتيجة التي لم تُعَلَّن بعد؟

تقول لنا السورة: إننا غالبًا سنكون في خضمّ فلاح باك يأخذنا في رحلة سريعة إلى أكثر ما نخشاه في حياتنا.

﴿يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُنْزِلُ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٩﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٠﴾﴾ (الجاثية: ٩).

ستقول سورة أيضًا للبعض منا أن يتخففوا من حساباتهم مع الآخرين، الأمر لا يستحق في النهاية، وعندما نغفر للآخرين، فإننا قد نستحق المغفرة أيضًا.

﴿قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (الجاثية: ١٤).

ثم تقول لك السورة شيئًا لا تعرف إن كان سيهدئ من روعك في هذه اللحظات أم سيزيد من توترك.

﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾
(الجاثية: ١٥).

تعار هنا، أين ستُصنَّف أنت؟ مع مَنْ عمل صالحًا أم مع من أساء؟
لحظات وتعرف أين موقعك، ولكنها تبدو كدهر.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾
(الجاثية: ١٨).

هذا سيكون مؤلماً في الفلاس بالك، لو أننا فقط اتبعنا «الشريعة من
الأمر»؛ لكان وضعنا أفضل الآن. ما الذي منعنا من ذلك؟

﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَفَىٰ لِقَابِهِ وَجَعَلَ
عَلَىٰ بَصَرِهِ عَنَارَةً فَمَنْ تَبِعْهُ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (الجاثية: ٢٣).

أفرايت؟ كنا نقول: لا، من هذا الذي يتخذ إلهه هواه، لا نعرف شخصاً
كهذا، الناس تعبد الله، من الذي يعبد الله؟

الآن نفهم، لقد كنا نرى هذا الشخص دائماً، ربما رأيناه مراراً في
المرأة، لكننا لم نميزه آنذاك، الآن نفهم.

﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ
بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ (الجاثية: ٢٤).

لا يد أنه إله الهوى الشخصي، إله الفردية، مفهوم الحرية الشخصية
وقد وسع من نفسه ونصب ذاته وثنا لا يقبل لطاعته شريكاً أو خلافاً في
الرأي.

لا بد أنه هو الذي أوصلنا إلى هذه القناعة ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾: لأن هذه القناعة هي التي تمنع كل الصلاحيات لإله الهوى الشخصي.

ولكن، فحالة.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُحْسِرُ الْمَبْطُلُونَ﴾
(الحجرات: ٢٧).

ما الذي يحدث؟ لقد متنا، يفترض أن تلك كانت النهاية، يفترض أنها حياتنا الدنيا، ومن ثم نقطة نهاية السطر، ما الذي يحدث الآن؟ هل هذا كابوس يزعم نومتنا الأبدية؟
إنها ساعة الحقيقة.

ساعة؟ يبدو الأمر كدهر، دهر من الحقيقة.

ها نحن في انتظار ما سيحدث. قيل لنا: إن هناك بعثاً وحساباً وجزاء
ولم نصدق. حدث البعث، إذن سيحدث كل ما قيل لنا.

﴿وَوَرَى كُلُّ أُمَّةٍ جَانِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُحْزَرُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾
(الحجرات: ٢٨).

ها نحن الآن في هذا الانتظار الصعب المرير.

﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِجُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾
(الحجرات: ٢٩).

كل شيء مسجل. كل شيء مستنسخ.

وضمنا في أذهانتنا أن غوغل يحسب حساب خطواتنا، يرصد تحركات بطاقتنا البنكية، يسجل ما نفضله من طعام، ما نشاهده من أفلام، ما نسمعه من موسيقى، يسجل حواراتنا ويتابعها ويدس فيها إعلانات بناءً على ما نتحدث عنه.

وضمنا في أذهانتنا رادارات مراقبة السرعة، وكاميرات المراقبة في الشوارع ومداخل النهايات والمصاعد.

ولكن فشفنا في أن نضع في حساباتنا أن ثمة مراقبة أعلى، ثمة استنساخ أدق، ثمة كاميرات في كل مكان، حتى في داخلنا، تسجل كل شيء.

ها نحن ننتظر النتيجة.

نجثو تقريباً في وضع الركوع، لا نستطيع أن نقف قائمين، ولكن لا نستطيع أن نستلقي أيضاً من التوتر.

الانتظار صعب ومُذَل.

﴿وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (الجاثية: ٢٧).

سورة الأحقاف ٤٦

العنوان: الرمال المتحركة

قد تتخيل أن الأرض تحت قدميك صلبة، لا يساورك أدنى شك في ذلك، بل وتبني خططاً ومشاريع لا يمكن أن تتحقق لولا صلابة هذه الأرض. لكنك لا تحاول حتى أن تتأكد من ذلك، صلابة الأرض تحت قدميك هي من مُسلّماتك.

ثم فجأة دون مقدمات، أو على الأقل دون مقدمات تنبّهت لها، تستحيل هذه الأرض الصلبة رمالاً متحركة تبتلعك وأحلامك ومشاريعك مرة واحدة.

هذا ما تأخذنا إليه سورة الأحقاف.

إلى اللحظة التي تكتشف فيها أن الأرض ليست صلبة حقاً كما كنت تتوهم. وأنك تغوص في رمال متحركة، كلما حاولت أن تخرج منها غُصت فيها أكثر.

﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّيَ النَّدْرَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (الأحقاف: ٢٦).

الأحقاف هي الرمال المعوجة، أو ما يسمى اليوم الكثبان الهلالية؛ لأنها تتخذ في ترتيبها شكل الهلال.

غالبًا كانت مساكن قوم عاد قريبة من هذه الكثبان، وربما كانوا لا يعدونها خطرًا عليهم. وربما كانوا يعدونها تحميهم؛ إذ إن هذه الكثبان تكون مرتفعة وقد يبلغ ارتفاعها عشرات الأمطار، كما أنها تنشأ بسبب رياح ذات اتجاه واحد؛ مما يجعل مساكن عاد في حماية من الرياح التي تأتي من نفس الاتجاه.

كيف تغير الأمر؟

﴿قُلْنَا رَأَوْا غَارِضًا مُسْتَقِيلًا أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا غَارِضٌ مُنْظَرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِينُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ النَّاجِرِينَ﴾ (الأحقاف: ٢٤).

الغيوم تتجمع في السماء، ثمة مطر قادم إذن، هذا خير أكيد، سيرتوي المزرع ويزدهر المرعى.

لكن أحيانًا، هذا الذي نأمل ونخطط أن يكون فيه ازدهارنا هو ذاته الذي تأتي نهايته منه، ذلك المطر الذي امشيش فيه قوم عاد كان فيه دمارهم وزوالهم، الأرض التي كانت تبدو صلبة تحت أقدامهم غارت وأخذتها معهم.

كيف؟ من التفسيرات المطروحة أن الفراغات بين جزيئات الرمال في بعض أنواع الرمال تكون أكبر بكثير من أنواع أخرى، وأن هذا يجعل المياه التي تتسرب بينها كافية لتحويل كل شيء إلى كتلة تسحب كل ما فوقها.

لم يحدث هذا مع قوم عاد فحصب.

بل حدث دومًا ويحدث دومًا، وسيحدث دومًا أيضًا.

حتى على مستوى الأفراد والتجارب الشخصية.

كثيرًا ما نتأمل خيرًا كثيرًا يأتي من جديد يدخل حياتنا، أو جديدًا نمشي له بكامل إرادتنا، شخص جديد في صداقة أو شراكة أو عاطفة أو عمل جديد أو تجربة فكر جديد، جديد بمعنى أنه ظهر حديثًا، أو جديد بمعنى أنه جديد علينا.

كم أقبلنا على تجارب من هذا النوع ونحن نتحدث عن تغيرنا ١٨٠ درجة إلى الأفضل طبعًا، ولم ننتبه في خضم احتفالنا بالتغيير إلى أننا قد دخلنا مستنقع رمال متحركة، وأنها نغوص شيئًا فشيئًا فيه، بينما نرفع أصابعنا بإشارة النصر.

﴿هَذَا غَارِي مُنْطَرِنًا﴾، ليس قوم عاد وحدهم من قالوها، بل هذا كان شعار المرحلة لشعوب وأقوام كثيرة، استبشرت بالخير والازدهار القادم تحت قيادة فلان أو بأيديولوجية معينة، ثم انتهت الأمور إلى حيث سر الأعداء.

حدث هذا كثيرًا ويحدث باستمرار.

السورة تحدثنا أولًا عن عدم السقوط في هذا المستنقع بالأساس، ألا تهني بيتك وأحلامك ومشاريعك على رمال متحركة، حتى لو بُدَّت لك هذه الرمال صلبة في البداية.

كيف؟

الإيمان بالطبع، الإيمان كقيم فاعلة ومحركة، الإيمان بالله الخالق واضح القوانين والسنن ومُنَزَّل كتب الهداية والإرشاد.

الإيمان على رأس قائمة أسباب الوقاية من السقوط، وعلى رأس قائمة مكونات حبل الإنقاذ الذي يمكن أن يمتد لأبادينا فيما لو حدث وسقطنا.

لكن الإيمان يتضمن أيضًا ما هو أكثر، ما لا نضعه في حسابنا كإيمان، لكنه في صلبه، وفي صلب موانع السقوط في الرمال المتحركة.

وفي رأس قائمة الإنقاذ.

عن العائلة أتحدث، أو بالأحرى نتحدث سورة الأحقاف.

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفِضَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَتِي وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي دُرِّيِّ إِنَِّّي نَسِيتُ الْإِنْيَاكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُنْسِيِّينَ ﴿١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَنْقُلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعندَ الصُّدُقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أَفْ لَكُمْ أَنْتُمَا نَبِيَّيْنِي أَنْ أُخْرِجَ وَقَدْ خَلَجَ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَعْجِلَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِينَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَقُوا مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمِّهِمْ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمِ الْغُرُوبُ وَالْإِنسَانُ لَهُمْ كَانُوا حَايِرِينَ ﴿٤﴾﴾ (الأحقاف ١٥: ١٨).

تقدم السورة نموذجان، الظروف التي مر بها النموذجان واحدة،
ويمر أغلبنا بها، نتلقى من والدينا الرعاية، ثم يأتي وقت نقدمه لهما،
ليس الأمر ذنباً علينا أن نسدده بحرفية، بل نسيج اجتماعي يضمن قوة
المجتمع، أمر لا تستطيع قوانين الضمان والرعاية الصحية أن تحققه، ولا
بيوت المسنين.

النموذج الأول أدى ما عليه، النموذج الثاني قرر أن يجرب شعارات، أن
يكون نفسه، أن يخرج المارد ربما، إلخ.
لكنه دمر حبل النجاة.



هل كان قوم عاد أغبياء؟ كيف فات عليهم هذا الأمر؟
هل كان كل من يسير على خطاهم غيباً ليصل إلى تلك النهاية في
الرمال المتحركة؟
على العكس.

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فَيًّا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَنَاعًا وَابْصَارًا وَفَنَدًا فَمَا
أَغْنَى عَنْهُمْ سَعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْنَدُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَحْضُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ
وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (الأحقاف: ٢٦).

كان لديهم كل أدوات التمكين، وكل آليات العقل، ولكن ربما وثقوا فيها
أكثر مما يجب، تصوروا أن لا حدود لإمكاناتهم، وكان ذلك نقطة التحول
التي جعلت من تمكينهم انتحاراً.

لا يتطلب الأمر قدرة خارقة أحياناً لكي نرى ما هو شديد الوضوح،
نحتاج فقط أن نكون متوازنين في النظر إلى الأمور، إلى قدراتك وإلى
قدرات خالقك وقوانينه وسفنه وإرشاداته.

﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِبِّ يَسْتَبْعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا
فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُّذِيرِينَ﴾ (الأحقاف: ٢٩).

لا نعرف الكثير عن الجن، غير أنهم مخلوقات في بُعد آخر إن جاز
التعبير. القرآن نزل لنا بشكل أساسي، لكنهم بقليل من الاستماع، من
النظر من بعيد، آمنوا به.

لا تحتاج الكثير لكي تؤمن بما هو واضح وبديهي.

لكنك إن لم تنزل غشاوة الأنا عن بصيرتك! فإن الكثير من الذكاء
والقدرات لن تجعلك تؤمن.



﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعِزِّ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ
مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبِسُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ بَلَاغٌ فَبَلِّغْ بِهِ الْغُثَّ وَالرَّقِيقَ﴾
(الأحقاف: ٣٥).

مهمة إنقاذ الناس من الرمال المتحركة ليست سهلة أبداً.

نحتاج صبراً وعزيمة بوجه الرياح والرمال المتحركة، وبوجه من يصفق
لكل عارض ممطر، بينما على بصيرته غشاوة.

سورة محمد ٤٧

نسخة أفضل منك!

تصلي عليه عندما ترى اسمه الكريم اسماً للسورة، ينأهب قلبك لحضوره المنير، تشرئب مشاعرك وأنت تريد أن تمسه أو تعانقه، وقد تصل أحلامك إلى أن تقبل يديه أو خده أو رأسه الشريف.

تريد الفردوس الأعلى، قلّم لا؟

تدخل السورة وقد جعل اسمها وحده هرمون الحب «الأوكسيتوسين» يُضخُّ في عروقك كشلال هادر، تكاد تتمش ارتباكاً وأنت تدخل، كأني محب مرتبك يحمل أشواقه وعواطفه.

تدخل وتدير رأسك بحثاً عنه، نعم، ثمة نور في أرجاء السورة، لكن أين هو صلوات الله وسلامه عليه؟

ستبحث بدقة في السطور، بين السطور.

ستفاجأ، السورة لا تتحدث عنه، اسمه الشريف يعلوها، لكنها لا تتحدث عنه.

بل هي - يا للمفاجأة! - تتحدث عنك شخصياً.

تحاول أن تعتوِّب الأمر، كمت تريد شيئاً آخر، هل أحبطك ذلك؟

ستنهم بينما تقرأ أن الأمر مقصود، أن تدخل السورة بهذا الترتيب، تريد أن تقترب منه عليه الصلاة والسلام. لكن السورة ستدلك على ما هو أهم من ذلك، ستدلك على قرب حقيقي تناله منه. ستدلك على نفسك عندما تقترب من سيرته وشخصه.

ستدلك السورة عنك شخصيًا، عنك في أفضل حالاتك، في أفضل نسخة ممكنة منك، أليس هذا ما بُعث عليه الصلاة والسلام من أجله بالأساس؟



﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ (محمد: ٢).

أصلح بالهم!

ما أجملها من كلمة، أن يكون بالك قد أُصلح، كان عاطلاً مليئاً بالمتاعب، ثم أُصلح.

أصلحه الله لهم.

هل صلاح الابل هنا كان استرخاءً، فراغاً من المشاكل وفضاوة بال كما قد نتخيل للوهلة الأولى؟

أيضاً، تأخذنا الآيات التالية فوراً إلى نوع مختلف تماماً من «صلاح الابل».

﴿فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَخْتَنُمُوهُمْ فَسُدُّوا أَلْوَنَاقَ
فَإِمَّا مَنًّا بَعْدَ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرْنَا مِنْهُمْ
وَلَكِن لِّبَيِّنَاتٍ لِّبَعْضِكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾
(محمد: ٤).

إنها المواجهة. صلاح البال حدث بالمواجهة. عسكرية هنا كما هو واضح، لكن الأمر في جوهره هو المواجهة، ليست عسكرية بالضرورة، بل مواجهة أفكار أحياناً، مواجهة نفسك في أخطائها، في تقصيرها، في ذنوبها.

صلاح البال يأتي أحياناً من مواجهات كهذه، ولا يأتي أبداً إذا هربنا، أنكرنا، تجنبنا مناطق نخاف من مواجهتها.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ (محمد: ٧).
الخطوة الأولى هنا تأتي منك، وهل يحتاج الله جل جلاله إلى نصر؟
حاشاه.

لا. أنت من يحتاج - في أفضل نسخة منك - أن تقدم مستحقات النصر، أن تثبت لنفسك أولاً أنك تستحق العون منه عز وجل. أنت من في حاجة إلى أن تثبت لنفسك ذلك كي يثبت هو أقدامك.

﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ أَهْلُكُنَاهُمْ فَلَا تَاجِرَ لَهُمْ﴾ (محمد: ١٣).

كل الأمور في النهاية تمر، وأنت تست حَجَرًا في قريتك أو مدينتك أو في مجموعة الأصدقاء حولك، تستطيع أن تغير عنوانك وموقعك لو عجزت

عن تغيير قريتك أو مدينتك أو أصحابك. لست الأول ولن تكون الأخير،
الفراق صعب حتمًا، لكن أن تتحول إلى حجر أصعب بكثير.

﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ (محمد: ١٧).

كما الأمر مع النصر، الخطوة الأولى منك، تهدي، تبحث عن الهدى
بنفسك، فيزيدك هداية، ويمسر لك التقوى أيضًا.

﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ
مُنْقَلَبَكُمْ وَمَتَوَاصِكُمْ﴾ (محمد: ١٨).

حقيقتان أساسيتان لا مفر منهما، مثل البديهيات بالنسبة لمن يريد أن
يقترّب منه عز وجل، أن يكون في أحسن نُسخه.

أنه لا إله إلا هو، بكل معاني ذلك، وأنت ككثير معرض للخطأ؛ لأنه جزء
من طبيعتك، فاستغفر لذنبك ولكل من معك.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا
الْفِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ السَّفِينَةِ عَلَيْهِ مِنَ التَّوْبِ
قَاوُلُ لَهُمْ﴾ (محمد: ٢٠).

البعض لا يريد المواجهة، يفضل أن يبقى في منطقة الراحة، من هؤلاء
البعض؟ الذين في قلوبهم مرض، تقول الآية ذلك كما لو كانت تقول لك:
هل أنت منهم؟

تبحث في الآيات عن المزيد من العلامات لكي تحدد جوابك، فتجد
جوابًا يفتح لك باب الخروج من هذه الخانة لو كنت فيها أصلًا.

﴿أَقْلًا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرَانَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ (محمد: ٢٤).

ستخرج من هذه الخانة بأن تزيل الأقفال على قلبك، بأن تدبر كل ما مر عليك من آيات.

ثم تتابع الآيات وهي تصف أولئك الذين في الطرف القصي من النسخة الأفضل منك، في الطرف الأبعد منه عليه الصلاة والسلام، وأنت تقف عند كل صفة لتأمل، نعم، لا، ربما؟

وتوقفك آية وهي تحذرك من أن تقف في منتصف الطريق، من نصف المواجهات.

﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَغْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعْصِكُمْ وَلَنْ يَزِيدَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ (محمد: ٢٥).

إن كنت في موقع القوة ضمن مواجهتك، فلا تقدم على نصف مواجهة، لا تنتهها بالتنازل إلا إذا كان هدفك أصلاً هو أن تعطي درساً في القيم والأخلاق وكسب العقول والقلوب، كما فعل عليه الصلاة والسلام في فتح مكة، لكن إن كانت خطتك أصلاً هي أن تمضي في مواجهتك، وكانت الظروف مناسبة لك، فلا تراجع.

﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ (محمد: ٢٨).

الله ليس بحاجة لنا، ورسوله أيضاً.

نحن بحاجة لهما، وإن قصّرنا في شيء فسيكون هناك ناس آخرون ليسوا أمثالنا.

سورة الفتح ٤٨

مفاتيح الأبواب الموصدة

نتخيل دومًا أن الفتح هو لحظة الانتصار الكبيرة، لحظة الفوز.

فتح مكة مثلاً، فتح القسطنطينية، فتح العراق، هكذا.

الفتح دومًا مرتبط في أذهاننا بحدث كبير من هذه الأحداث.

فكيف بالفتح المبين الذي أشارت له السورة في مقدمتها؟

لا بد أنه كان مرتبطًا بانتصار كبير ساحق حاسم.

فتح مكة ربما؟

لا. السورة نزلت قبل فتح مكة بنحو عامين.

ماذا إذن؟ أي انتصار عسكري هذا الذي وصفته السورة بالفتح المبين؟

لا يوجد، السورة تحدثت عن معاهدة صلح، الفتح المبين كان اتفاقية

هدنة، معاهدة صلح الحديبية، لا معركة ولا انتصار عسكري ساحق.

ليس هذا فقط، الكثير من المسلمين - ومنهم عمر بن الخطاب - كانوا

قد اعتبروا أن شروط الهدنة ليست لصالح المسلمين، وأنها كانت مجحفة

في جوانب كثيرة^(١).

(١) صحيح البخاري ٣١٨٢

لكنه الفتح، بل هو الفتح المبين رغم كل ما سبق،
وربما بسبب ما سبق.

يحدث كثيرًا أن نمر في أحداث نعدّها أنفس ما ألمّ بنا من مصائب
وكوارث، نعتبرها هزائم منكّرة قضت على أحلامنا وأمالنا.

ثم بعد فترة - تطول أو تقصر - نرى أن هذا الشيء ذاته كان أفضل
ما حدث لنا، لا أقصد هنا أن التجربة الناتجة عن هذا الشيء السيئ قد
زادنا قوة وجعلنا أكثر خبرة، فكان بالتالي أفضل ما حدث لنا.

يحدث هذا في أحيان كثيرة، لكنه ليس المقصود هنا.

المقصود حرفيًا أن حدثًا ما بدأ لك في البداية كما لو أنه دون أحلامك
وطموحاتك، ثم فهمت بالتدريج أنه كان أفضل من كل ما خططت له وما
خطمت به.

كان فتحًا مبيّنًا في الحقيقة، لكنك تصورت أنه مجرد هدنة بشروط
مهينة.

قد يحدث هذا في ارتباطاتنا الشخصية، نحلم بشخص بمواصفات
معيّنة، لكن أحلامنا لا تتحقّق على أرض الواقع، وقبل أن يفوت الوقت،
نقبل بمواصفات نعتقد أنها أقل من أحلامنا، نقبل بشخص ليس على قدر
طموحتنا، ولكن كحل وسط: عصفور في اليد.

ثم نكتشف أن هذا الشخص كان فوق كل أحلامنا الأولى. وأنه كان أفضل لنا بما لا يقاس. وأنه كان فتعًا مبيّنًا لنا، بينما تصورناه أولاً «هذنة بشروط معجفة».

يمكن أن يحدث هذا كثيرًا في حياتنا، مع خيارات الدراسة والعمل والارتباط والقضايا المصيرية الأخرى.

البعض يستطيع أن ينظر إلى الوراء ليقيم ما حدث، فيكتشف أن ما مرّ كان مليئًا بإيجابيات ثم تدّرّج به يوم نذب حظه على ما حدث.

البعض الآخر سيبقى حبيس لحظة الندب، لحظة «لم يكن هذا ما أريده»، لحظة «أستحق أفضل من هذا».

سيبقى حبيسًا في دور الضحية المظلومة، وسيمعز عن رؤية ما حدث بسياقات أوسع.

سورة الفتح تأخذك من يدك لتعلمك كيف تخرج من هذه اللحظة، أن تحاول تجنب دخولها أصلًا، أو أن تكون مجرد لحظة تمر بها في طريقك إلى النضج.

كيف تدرك السورة على هذا؟

السكينة هي طريق ذلك أولاً.

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيُذْكَرُوا بَأْسَنَا مَعَ إِيْمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (الفتح: ١٠).

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ (الفتح: ١٨).

﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِصَغُلِّ شَيْءٍ عَابِدًا﴾ (الفتح: ٢٦).

سورة الفتح هي أكثر سورة وردت فيها مفردات «السكينة».

ولا يمكن أن يكون هذا صدفة.

السكينة هي مفتاح الفتح الأول. السكينة التي هي الطمأنينة والاستقرار. أن تترك الجزع والعواطف المضطربة في رؤية وتفسير ما يمر بك من أحداث، هو أول خطوة في إمكانية فهم إمكانات الفتح فيها، في رؤية ما لا يمكن رؤيته في جزء اللحظة الأولى.

بعد السكينة، سيكون هناك عقد بيع عليك أن تذهب لتوقيعه.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِىْزَتُهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (الفتح: ١٠).

عقد البيع هذا هو النبیعة، عهد تقطعه على نفسك مع نفسك أمام الله، ليس لديك فرصة أن تضع يدك على يديه الشريفتين، لكن هناك فرصة أن تعاهد قيمه ورسالته، هذا لا يقل أهمية عن وضع يدك تحت يديه الشريفتين، ما دمت صادقاً في ذلك.

هنا بعد السكينة، عندما تعاهد قيمه، يكون ذلك عهداً على مواصلة الطريق، على رفض اليأس، على محاولة رؤية ما هو إيجابي.

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ (الفتح: ١٨).

لا يمكن أن نبايعه عليه الصلاة والسلام تحت الشجرة، جنبًا في زمان آخر.

لكن يمكننا دومًا أن نستظل بشجرة تعليماته وقيمه، وأن نقف تحتها لنبايعه مجددًا.

﴿لَقَدْ صَدَّقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَقَدْ خَلَّ السَّجْدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَهُمْ وَمُقْصِرِينَ لَا يُخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَمَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتَحًا قَرِيبًا﴾ (الفتح: ٢٧).

كانت الرؤيا هي دخول مكة كهدف نهائي، لكن دون ذلك كانت موانع عديدة، ليست العسكرية أهمها، بل كانت هناك عوامل أكثر أهمية تُعَلِّقُ أعلام المسلمين تحقيق هذا الهدف النهائي؛ جاهزية المسلمين أنفسهم، وضع قبائل العرب وتحالفاتها ورؤيتها للمسلمين واستعدادها أو عدم استعدادها للتخلي عن قريش.

كانت هناك أبواب موصدة كثيرة.

وكانت هذه الهدنة هي الفتح.

فتح الأبواب الموصدة، الفتح الذي جعل الطريق إلى الهدف لاحقًا يكون أكثر تمهيدًا.

ما بدأ لبعض المسلمين أنه مجحف كان في الحقيقة نازًا هادئة تُضجِ الظروف بل تُضجِهم هم أكثر؛ ليكونوا أكثر قابلية على تحقيق أهدافهم وفوزهم.

كل تأجيل أو تأخير تمر به - مهما أزعجك - يمكن أن يحتوي على مفاتيح ثمينة تحملها في رحلتك. تفتح به ما يوصد أمامك.

من هذه المفاتيح: خبرتك الشخصية، قدرتك على التحمل، إعادة الحسابات والتقييم، تواضعك أمام الظروف التي لا تستطيع تغييرها ووضعها في حساباتك.

كل صاحب تجربة يعرف جيداً كم هي مهمة هذه المفاتيح في تحقيق الأهداف.

كل صاحب تجربة يعرف أن تأخيراً أو تأجيلاً كهذا، يمكن أن يكون هو الفتح الحقيقي الذي مهد للنجاح لاحقاً.

﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوَارَةِ وَمَثَلُهمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ (الفتح: ٢٩).

تختتم سورة الفتح بهذه الصورة لمحمد والذين معه، صورة الزرع الذي بلغ أعلى صور نضوجه وزيادته، تذكرنا الصورة هنا بأن كل ذلك بدأ ببذور صغيرة، ومر ربما بظروف صعبة، واحتاج إلى وقت طويل وصبر لكي ينمو ويشتد إلى أن يصل إلى زهوته قبل الحصاد.

الفتح لم يكن لحظة الحصاد.

بل في المرور بكل مرحلة في وقتها المناسب، وفي عدم استعجال أي شيء للوصول إلى الهدف قبل أوانه.

سورة الحجرات ٤٩

في حجرة مجاورة

تبدو سورة الحجرات كما لو أنها ضمت أهم قواعد السلوك والتعامل بين البشر في مجتمع إنساني، من أبسط هذه القواعد: خفض الصوت أثناء الحديث، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (الحجرات: ٢).

إلى فض النزاعات بين أفراد المجتمع. ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَعَايِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (الحجرات: ٩).

مرورًا بعدم تصديق كل ما يقال، وعدم تكذيب كل ما يقال أيضًا فقطح لأن من قاله كان قاسقًا، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ قَائِلٌ يُبَشِّرُكُم أَنَّهُ نَصِيبٌ لَّكُمْ بِحَنَافَةٍ فَنُصِيبُكُمْ عَلَىٰ مَا كُنْتُمْ تَدْمِنُونَ﴾ (الحجرات: ٦).

السورة أيضًا توصي بعدم السخرية، عدم التنازع باللقاب:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْبِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَالِيُونَ﴾ (الحجرات: ١١).

السورة توصي أيضاً بتجنب الكثير من الظن، وليس تجنبه نهائياً فهذا أمر مستحيل ما دام هناك عقل في حالة عمل، التهي عن التجسس، وعن الغيبة:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا يَجِبُ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْنَاهُ وَأَتَقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ (الحجرات: ١٢).

بعد هذا القواعد الناظمة للتعامل اليومي بين أفراد المجتمع الواحد تقول السورة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَمَّكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات: ١٣).

كما لو أن السورة تقول لنا - بعد أن أسست لقواعد تعاملنا مع بعضنا - : إن التعامل نفسه يجب أن يكون مع باقي المجتمعات، وإننا لن نتمكن من تحقيق تعامل متوازن مع الخارج إلا إن كان تعاملنا في الداخل منضبطاً.

إنها تقول لنا أيضاً: إننا في النهاية واحد. نختلف قلباً ونشابه كثيراً. ولكننا متشابهون، إذا كنا نعيب على فلان أو نفتاب علاناً فنحن في الوقت نفسه لدينا عيوب يمكن أن يؤشّر عليها وأمور يمكن أن نفتاب عليها.

كلنا نسكن في حجرات متجاورة، كلنا جيران في نهاية الأمر. متشابهون في عيوبنا وميزاتنا مهما حاولنا تجاهل ذلك. وكلما تمارقنا على بعضنا، نعرفنا على أنفسنا أكثر، واكتشفنا تشابهنا وتعارفنا أكثر وأكثر.

ميزان واحد هو الذي يمكن أن يقيم فروقنا واختلافنا: التقوى.

شمة شيء آخر توحى به سورة الحجرات:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنَ الْمُنْجِرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٦﴾﴾ (الحجرات: ٥-٦).

ستأخذك الآيات إلى مكان تكون فيه قريباً منه عليه الصلاة والسلام، كما لو أنه في الحجرة المجاورة أو في حجرة قريبة ننتظره فيها.
نعم، هو قريب جداً.

كل ما علينا أن نفعله هو أن نصبر.

وسنراه يخرج إلينا، وسيكون خيراً لنا.

سورة ق ٥٠

ذاكرة المستقبل

ثمة صنف سينمائي حديث يقوم على نوع من التفاعل بين المشاهد والمادة التي يراها، يسمى هذا الصنف بالمتفاعل، حيث يختار المشاهد خياراً من ضمن عدة خيارات مفصلية لما سيحدث من أحداث، وتسير كل الأحداث لاحقاً بناءً على خيار المشاهد، الذي قد يختلف تمامًا عن خيار مشاهد آخر، وبالتالي فإن للفيلم مجموعة نهايات مختلفة بعدد الخيارات المطروحة أصلاً.

هذا النوع من التفاعل يمكن أن يكون أكثر وضوحاً في ألعاب الفيديو التي يختار فيها اللاعب الكثير من الخيارات بنفسه، وبالتالي يحدد مصيره بنفسه.



ما علاقة هذا كله بسورة ق؟

سورة ق - دون تشبيه - تعمل بنا شيئاً مقارياً.

تضعنا فوراً في لحظة النهاية، وتضع أمامنا خيارين، تختار واحداً منهما.

ثم تعودنا إلى «الغلاش بالك» الذي يوصل إلى الخيار الذي اخترته.

اخترت؟

إذن تعود إلى خط سير أحداث محدد في ماضيك، تسير عليه بما يتناسب مع خيارك.

نفشل في ذلك؟

تعود إلى الخيار مجددًا، هل أنت متأكد من صحة خيارك؟ ، الغلاش بالك، الخاص بك يوحى بخيار آخر.

هل أنت واثق أنك تريد أن تكرر الخيار؟ أم أنك هذه المرة ستغير ذكرياتك، ستغير حياتك الحالية، ما سيكون لاحقًا «الغلاش بالك»؟

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَغَنَّا آقْرَبَ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ (ق: ١٦).

هذا القرب يمكنك أن تتعامل معه بعدة مستويات، أن تشعر بأمان القرب منه عز وجل، أن تشعر بحميمية ذكره وقربه.

لكن هل سيكون الأمر كذلك لو أنك كنت بعيدًا عنه تمامًا في حياتك، في الطرف الأبعد، أو على الأقل كنت تعتبر نفسك هكذا؟

هنا سيكون للقرب من حبل الوريد وقع مختلف تمامًا.

سيكون مرعبًا.

سيكون ذكر حبل الوريد هنا مثل فكرة حبل يلتف حول أوردة عنقك.

﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿٢١﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمَ الْوَعِيدِ ﴿٢٢﴾ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢٣﴾﴾ (ق: ٢١-٢٣).

بدأت المشاهد تتوالى إذن، ها أنت تشاهد نفسك وأنت تصارع الموت. رأيت اللقطة ربما مع أحباب لك ورأيتهما على الشاشات، هذه المرة أنت الحبيب المقارن، أو أنت البطل الذي يموت على الشاشة، ثم تموت، لم تتخلفي الأضواء كما توقعت، بل حدث شيء آخر تمامًا.

﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٤﴾﴾ (ق: ٢٤).

﴿كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ﴾.

وجاءت سورة في لتحققك في وريدك بحقنة وحي: بصرك اليوم حديد، وها أنت تبصر نفسك في لقطة من المستقبل.

تبصر نفسك أمام خيارين:

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِلَّذِينَ هَلْ امْتَنَأْتُمْ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ﴿٣٠﴾﴾ (ق: ٣٠).

﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴿٣١﴾ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٢﴾﴾ (ق: ٣٥).

بين مزيدتين مختلفتين تمامًا، تقف أنت لتقرر.

الخيار الصحيح سيكون لمن؟ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ (ق: ٣٧).

سورة الذاريات اه أدوار في حياتك

نحب دور البطولة، وقد نعلم به، ونخطط لطموحاتنا على مقاسه وحسب مواصفاته.

وبفض النظر عن فشلنا أو نجاحنا في تحقيق هذا الدور، فإن تصورنا أن دور البطولة هو الدور الأفضل والأهم فيه مشكلة كبيرة.

البطل مهم فقط في سياقه، ضمن أدوار أخرى تمكنه من إبراز بطولته، لو حُدِّثَت أدوار الآخرين: لما أصبح بطلاً.

سورة الذاريات تأخذنا إلى هذه الحقيقة الأساسية التي يتغثر كثيرون منا قبل أن يتقبلوها، حقيقة أن الأدوار يجب أن تُوزَّع، وأن كل المشاريع الكبيرة التي تخدم الناس وتعمّر الأرض لا يمكن أن تحدث إلا بوجود توزيع للأدوار على نحو يجعل الكل شركاء في نجاح المشروع، لا بطل واحد، ولا قائد أوحده.

﴿وَالذَّارِيَاتِ ذُرْوًا﴾ ﴿فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا﴾ ﴿فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا﴾ ﴿فَالْمَقْسَاتِ أَمْرًا﴾ (الذاريات: ١).

كل المشاريع - حتى الشخصية منها - تبدأ ببذرة، بفكرة بسيطة، والبذرة مهمة حتمًا، لكنها في النهاية مرحلة أولى مبدئية، وصاحب الفكرة

- البذرة - ليس هو بالضرورة من يقوم بكل المراحل الأخرى، قد يكون تميزه في الفكرة فقط، ولن يكون بذات التميز في المراحل الأخرى.

تحتاج البذرة إلى من يعملها، من يحميها، يوفر لها الظروف المناسبة لكي تنمو وتكبر ويشتد عودها، مرحلة «الحاملات وقراء» التي تُفسّر عادةً بأنها السحب التي تحمل المطر، يمكن أن تتضمن توفير الدعم المادي واللوجستي والبشري والمعرفي، وكل ما تحتاجه البذرة وهي تفادر كونها بذرة إلى أن تكون نبتة تشق الأرض وتتطلع إلى السماء.

لكن هذا المشروع لا يمكن أن ينجح دون منفذين، مرحلة «المجاريات بسراً» والتي تُفسّر عادةً بأنها السفن التي تحمل الثمار، هي مرحلة المنفذين الذين قد يكونون في أحيان كثيرة جنوداً مجهولين يعتقدون أن أدوارهم عادية يمكن أن يؤديها أشخاص عاديون، لكن هذا الشخص العادي في حقيقته جزء لا يمكن الاستغناء عنه في نجاح هذا المشروع، نعيش موجة تنقص من السيد عادي والسيدة عادية، وتطلب من الجميع أن يكونوا قادة ورياديين وعالمقة ومردة، لكن هذا عدا عن كونه غير منطقي فإنه مضر؛ لأن الشخص العادي لا يقل أهمية في دوره عن القائد والريادي حتى لو لم يكن يخطف الأضواء مثلها، مضر لأن اختفاء الشخص العادي - على فرض إمكانية حدوث ذلك - سيصيب المشروع في مقتل.

توزيع الأدوار وتقسيمها هو من صلب وظيفة هذا القيادي الذي يحتاجه المشروع، وهذه هي مرحلة «المقسمات أمراء»، مرحلة القيادة التي نجمع أجزاء المشروع وتمسك بدفته نحو الهدف.

أربع مراحل إذن، تحدثنا عنها سورة الذاريات لأجل تحويل أهدافنا وأحلامنا إلى «أمر واقع».

بهذه الطريقة يمكننا أن نرى كل القصص التي أوردتها الصورة: (إبراهيم وملائكة البشرى له، والعذاب لقوم لوط، قصة موسى وفرعون، قصة نوح وقومه، وعاد وقومه) كلها من خلال منظار توزيع الأدوار، ربما لا نعرف كيف حدث التوزيع، لكن في كل هذه القصص كانت هناك (ذاريات، حاملات، جاريات، مقسمات). القيادة كانت دوماً للأنبياء في هذه القصص، لكن البذرة لم تأت منهم، بل استلموها من رب العالمين. وهناك كان مَنْ قَدَّمَ لها الحماية والدعم، وكان هناك مَنْ حملها ونفَّذ تعليماتها.

كل قصص المشاريع الناجحة - حتى الدنيوية منها - تحمل هذه الملامح الأساسية الأربعة.

وقصص الفشل تضم الخلل في واحدة من هذه الملامح على الأقل⁽¹⁾.



وليس صدفة أبداً أن تكون هذه السورة تحديداً هي التي جاءت فيها آية مفتاحية توضح الهدف من خلقنا.

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات: ٥٦).

ما علاقة هذا بالذاريات ذرؤاً والحاملات وهرأً والجاريات يسراً والمقسمات أمرأاً؟

(1) للمزيد عن سورة الذاريات كتاب سيرة خليفة لادم للعولف.

السورة تشير لنا أن الهدف من خلقنا أوسع بكثير من أن يُختَصَر
بقالب واحد أو دور واحد كما يتوهم كثيرون.

العبادة هنا ليست مقتصرة على المعنى الشعائري، المعنى الشعائري
محسوم ضمن مفهوم الإيمان نفسه، أما العبادة - هدف الخلق وامتحانهم
- فهي أفق واسع متدرج، تتضمن كل مشاريع الإعمار والعدل والتوازن
القائمة على القيم التي أنزلها الله في كتبه، ولا يُشترطُ فيها أن تكون
البطل الخارق الفاتح، أو القائد الفذ الأوحى، أو صاحب الفكرة البذرة
العبقريّة.

يمكنك أن تكون أيًا من هؤلاء، أو أن تكون واحدًا من المنفذين، الجنود
المجهولين الذين لولاهم لما كان هناك أي مشروع من الأساس.

يمكنك أن تجد دورًا لك في أي مكان في مشروع كهذا.

﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِي السَّمَاءِ
رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ (الناريات ٢٠: ٢٢).

سورة الطور ٥٢

أسئلة الامتحان معربة

ثمة جبل وكتاب،
ومسقف شاهق وبيت عامر.
وهناك أيضًا بحر مشرامي الأطراف غامض ومهيب ككل البحار.
وهناك أنت، بين كل هذا.
لا تعرف ما تفعل.

كما لو أنك رأيت كل هذا في منام، واستيقظت حائرًا مشوشًا، ما كل
هذا؟
وتأخذ سورة الطور بيدك لتفسر لك هذا المنام الذي يمكن أن يكون
قصة حياتك.

أما الجبل فهو جبل الطور، الجبل الذي استلم فيه شريعته.
الجبل هنا رمز للشرعة، يمكن للشرعة أن تجعلك مثل الجبل في قوته
وصموده وعلوه.

وبحسب كل ما يمكن أن يكون فيه من كنوز.

أما الكتاب فهو كتابك، الكتاب الذي يروي سيرتك الذاتية، بعبارة أخرى: كتاب أعمالك.

كم يختلف هذا الكتاب عن الشريعة «الجيل» كم اقتديت بها في حياتك؟ وكم خالفتها؟ هذا سؤال أنت تعرف جوابه دون سواك.

والسقف المرفوع هي هذه السماء التي تبدو لك بلا حدود، هل ترى كم هي بعيدة؟ يمكن لهذه السماء أن تكون سقف طموحاتك وحدود إمكاناتك، يمكنك أن تتطلق دون كوابح.

لكن لا تنس أبداً، مهما ارتفعت، هذا «البيت المعمور»، هذا البيت الذي يجب أن تساهم في جعله «عامراً معموراً» دوماً، البيت هو المعيار الحقيقي الذي يفتح فيه ارتفاعك بلا حدود ولا سقف، مهما ارتفعت إذا لم ينعكس هذا الارتفاع في زيادة متانة وصلابة البيت، الأسرة، فإن هذا الارتفاع كان مجرد صعود إلى هاوية.

كمن تسلق الجبل الشاهق ليلقي بنفسه من قمته.

وكذلك يفعل الكثيرون مع جبل الشريعة بطريقة أو بأخرى.

﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾ (الطور: ٦٥)

البحر هو هذه الحياة التي نعيش فيها جميعاً، تحاصرنا جميعاً كما يحاصر المحيط جزيرة منفردة، والحياة كما البحر، إن خُصتْ فيها دون معرفة بالسباحة، غرقت فيها وأغرقتك.

وإن تدربتَ جيداً قبل المضي فيه، يمكن أن تكتشف فيه الكنوز والسرورات.



كان هذا هو تأويل منامك، يمكن أن تجد فيه قصة حياتك كلها لو دهقتَ، بالأحرى يمكن أن تجد فيه ما يختزل أهم ما في حياتك. ما يحدد مصيرك بعدها.

عندما تُقبل على حياتك وأنت تحمل هذه المعاني في وعيك (وفي لا وعيك) فأنت تعلم جيداً طريق حياتك، حتى لو تَهَتَّ قليلاً وتعثرت، أنت تعرف الطريق بطريقة ما، ربما دون تفاصيل.

أما الذين لا يعرفون هذه المعاني، فحياتهم قد تكون بلا جبل، أو قد تكون على كومة من الرمال يظنونها جبلاً، وكتابهم يُكتب كما اتفق، والمعقف كلما ارتفع ضعفت أساسات البيت، والبحر مغامرة غير مأهونة العواقب، ورحلة الحياة قد تكون مثل رحلة روينسون كروزو.

وعندما تحين لحظة الحقيقة، لن يفهموا ما سيحدث، لن يتمكنوا من فهم هذا المشهد الذي وجدوا أنفسهم فيه.

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ (الطور: ٢٥).

أما أنت.

فقد نلتَ فرصة أن تطلع على أهم الأسئلة قبل دخولك الامتحان.

سورة النجم ٣٥

في أعالي التجربة

تأخذك سورة النجم على ظهر نجم، ليس وهو يهوي، بل وهو يرتقي،
تأخذك في رحلة تقريك من الرسول عليه الصلاة والسلام، في واحدة
من أهم وأعلى لحظات ارتقائه وقربه من الوحي المنزل عليه.

هذا القرب منه وهو في هذه الحالة، يكاد يشبه رحلة إلى النجوم
البعيدة في مجرات قصية، وهي رحلة - في الوقت نفسه - داخل نفسه
الكريمة بينما هو يتفاعل مع الوحي الشريف.

بين هذا النجم وتلك التجربة الفريدة، تأخذك السورة وأنت تلتقط
أنفاسك بصعوبة، ربما كان أقصى أمنياتك أن تقترب منه في أحواله
المعادية.

لكن السورة تأخذك إليه وهو في رحلة المعراج، تجعلك تتعسك به بينما
العالم كله يهوي أمام عينيك، وأنت ترتقي معه أفقاً بعد أفق، إلى الأفق
الأعلى.

﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ﴿١﴾ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى ﴿٢﴾ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى ﴿٣﴾ ثُمَّ دَنَا
فَقَدَلُ ﴿٤﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴿٥﴾ فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى ﴿٦﴾ مَا كَذَبَ

الْقَوَادِّ مَا رَأَى ﴿١٠﴾ أَهْتَا زَوْنَهُ عَلَىٰ مَا يَرَى ﴿١١﴾ وَلَقَدْ رَأَاهُ نَزْلَةً أُخْرَى ﴿١٢﴾ عِنْدَ بِيذَرَةٍ
الْمُنْتَهَى ﴿١٣﴾ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى ﴿١٤﴾ إِذْ يَخْفَى السُّدْرَةَ مَا يَفْقَى ﴿١٥﴾ (النجم: ٥-١٦).

وأنت في خضم الرحلة، لا تكاد تميز إن كان الحديث هنا عن الرسول - عليه الصلاة والسلام - أم عن ملاك الوحي جبريل؟ من الذي دنا فتدلى؟ من الذي كان قاب قوسين أو أدنى؟ النور المتسرب من الآيات يكاد يعميك عن بعض تفاصيل الأجوبة، لا يستطيع بصرك أن يركز على كل شيء هنا، لكن يكفي شلال التور المنبعث هنا لكي تعرف أنه ﴿مَا رَأَى الْبَصَرُ وَمَا طَفَى﴾ (النجم: ١٧)، وتعرف أيضاً أن أي حديث عن إله آخر من تلك الأصنام المقدسة، أو من مفاهيم مادية تقول: «لا إله» وتعامل كما لو أنها آلهة في هيكل العلموية المزعوم، أي حديث آخر لا يمكن أن ينبثق منه شلال نور مماثل، قلبك يعرف هذا تماماً، ﴿أَقْرَأْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ﴾ ﴿وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ﴾ (النجم: ١٩-٢٠).

كم يبدو كل تلك الأوثان، وكل النسخ المعاصرة منها، هزيلة ونافهة أمام تجربة قرب نبصرها بقلوبنا، كم يبدو كل ما يمكن أن يَرَى بالعين تافهاً ولا معنى له أمام ما لا يَدْرِك بالبصر ولكن يُسْتَشْعَرُ بالقلب بشيء لا يمكنك تفسيره وفهمه تماماً، ولكن لا يمكنك أن تجادله أيضاً.

بينما تكاد الرحلة تنتهي، وبمدا استهلكك هذا النور وأمدك بطاقة الحياة في الوقت نفسه، تهمس سورة النجم بحقائق أساسية عليك أن تحملها في رحلتك في الحياة.

﴿وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ ﴿الَّذِينَ يَخْتَفُونَ كِبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّسَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَتٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْتُمْ سَكُفُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ (النجم ٣١: ٣٤).

﴿أَلَا تَرَوْا وَازِرَةً وَزَرَ أُخْرَى﴾ ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى﴾ ﴿ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوَّلَى﴾ ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ النُّثْقَى﴾ ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى﴾ ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الرُّوحَ الْبَاطِنَ وَالْأُنثَى﴾ ﴿مِنْ نُّطْقَةٍ إِذَا تُنْفِثَى﴾ ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ النُّشْأَةَ الْآخِرَى﴾ ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى﴾ ﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ السُّعْرَى﴾ ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى﴾ (النجم ٣٨: ٥٠).

هنا نحن أمام رؤية شاملة تبدأ منك كفرد، فرد واحد سيتحمل مسؤوليته وسعيه وسيجازى على أفعاله شخصيًا دون أن يتحمل عبء أفعال الآخرين، لا تزر وازرة وزر أخرى، عليك بنفسك أولاً، هذا هو الدرس الأول الذي يمكن فهم كل الدروس الأخرى من خلاله، لن تحمل أفعال غيرك، ولن يحمل غيرك أفعالك، والذي سيحاسبك يعرف تمامًا كيف يفصل بين أفعالك وأفعال سواك.

ولن ينفي هذا وجود جزء من الثقل ومن المسؤولية التي عليك أن تحملها تجاه مجتمعك أو محيطك، لذلك لا تزر وازرة وزر أخرى، فلتحم به، أنه أهلك عادًا الأولى، الأمور في النهاية تتداخل وأنت وأوزارك لن تعيش في أنبوبة مفرغة من الهواء، سيكون هناك تأثيرات من المحيط، عليك بالمقابل أن تؤثر فيه، لكن هذا لا ينفي أن الدرس الأول الذي تدخله سورة

النجم فبك بعد أن جعلتك تكون قريباً منه في تجربة المعراج الهائلة وبعد أن سلبت منك كل أليات مقاومتك وقابليات جدالك؛ هو درس مسؤوليتك الشخصية وتحملك لها في الحساب الأخرى. درس أن سعيكم سوف يُرى وسيكون له جزاء، وهو الدرس الذي سيكون حجر الأساس في كل الشريعة. هذا الدرس - لو تأملته - مستجده بديهيًا منطقيًا، يرتبط بكل النظام الذي بُني عليه الكون.

ومنطقية هذا الدرس ستجعلك تسجد له.

﴿أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٦٠﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦١﴾ وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ ﴿٦٢﴾﴾
فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾ (النجم ٥٩: ٦٢).

سورة القمر ٤٥

بديهيّات واضحة كالشمس .. والقمر

بعض البشر يتغذون من الإنكار أسلوب حياة.

إنكار كل ما لا يوافق أهواءهم، كل ما يمكن أن يشكل تهديدا لمعضداتهم ونمط حياتهم، لكل ما هو مألوف ومستقر بالنسبة لهم.

حتى لو كانت هناك حقائق صارخة تقول: إن كل شيء في طريقه إلى الزوال، سيستحيون بوجوههم ويؤكدون أن كل هذه محض أكاذيب، الوضع تحت السيطرة.

ممكّن أن يكون الأمر في أي شيء، أن تكون كل الدلائل تشير إلى وجود مشكلة في أحد أولادك، أو في علاقة شخصية تستنزفك، ولكنك مصمّم على أن تخترع تفسيرات وتبريرات تجعل هذه الدلائل لا قيمة لها، هذه أمور تحدث مع الجميع، مجرد مرحلة، وستمر بالتأكيد.

ممكّن أن يكون الأمر في ورم بدأ يظهر برونزه في جسدك، لكنك لا تريد أن تواجه كل الاحتمالات التي يمكن أن تنتج من الذهاب إلى طبيب لإجراء الفحوصات؛ لذا تقول لنفسك: إن هذا المبروز كان موجودا دائما، وإنه يظهر ويختفي من تلقاء نفسه منذ سنوات، كل شيء طبيعي وتحت السيطرة.

ويمكن أن يكون الأمر في حدث يندلع من تحت رماد ما تسميه استقراراً في بلدك، وهنا يكون كل شيء مؤامرة كونية تستخدم كل شيء مستهدفةً لاستقرار بلدك.

من العلاقات العائلية إلى السياسة الدولية، مروراً بالصحة الشخصية، يمكن أن يواجه بعض الناس الحقائق الواضحة بالإنكار، وبالمزيد من الإنكار.

يكذبون؟ الكذب جزء من الموضوع لكنه لا يكفي لتفسير ما يحدث، ربما يبدؤون بالكذب، لكن بالتدريج يصدقون أنفسهم، يتركون لأدبهم ممارسة حيلة نفسية عديدة لإشعارهم بالأمان، ومن ضمنها حيلة «الإنكار».

الإنكار يمكن أن يجعل الناس يتجاهلون حقائق واضحة كالشمس، أو كالقمر، حتى لو انشق أمامهم.



أغلبنا تمرّف في حياته على هذا النوع من البشر، وهم يمارسون هذا النوع من الإنكار (ربما تكون منهم أحياناً).

نعرف أنهم لو شاهدوا يأثم أعينهم ما يخالف أهواءهم! لقالوا: لم يحدث، لم تر شيئاً.

ترغب أن تمسك برؤوسهم وتديرها نحو الحدث، فتتح أعينهم على اتساعها وتقول لهم: انظروا مجدداً.

سيقولون لك أي شيء: خداع بصر، سحر، تمثيلية، مؤامرة، فوتوشوب، أي شيء يساعدكم على تبرير الإنكار.

حتى لو قيل لهم: إن يوم القيامة سيحدث غداً، وهذه علامات بالترتيب، وبدأت العلامات بالتحقق، وانشق القمر بكل عواقب ذلك على الأرض من فيضانات وزلازل، سيصرون على أن لا علاقة لهذا الأمر بيوم القيامة، الأمر مجرد صدفة، ظاهرة جيولوجية لا علاقة لها بيوم القيامة وما يقولون.

﴿وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَعْتَبٌ ۖ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّنتَبِرٌ ۖ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُّزْدَجَرٌ ۖ حُكْمُهُ بِالْعَمَةِ ۖ فَمَا تَغْفِي الْثُدُرَ ۖ فَأْتُولُ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُصْحِرُ ۖ﴾ (القمر ٦٠:٦٢).

لخص مطلع السورة ما يحدث مع هؤلاء، مهما سبّرون من أدلة وبراهين قاطعة، فسيجدون ما يفسرها على نحو مختلف، مهما رأوا من أحداث سبق تحذيرهم منها، فهم سيتجاهلون الدلائل. ويمضون في إنكارهم، إلى أن يأتي يوم يأتي فيه هذا الذي أنكروه ليكون شيئاً يواجههم وجهاً لوجه.

في كل السورة سنرى هذا الشيء، إنذار، تكذيب وإنكار، تذكير بالإنذار.

﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ۖ وَلَقَدْ يَسْرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ ۖ﴾ (القمر ١٦:١٧).

يتكرر الأمر مع قوم نوح وعاد وثمود ولوط وآل فرعون، الأحداث ليست متشابهة في تفاصيلها، فكل منهم «نذره» الخاصة به، وعذابه المختلف عن عذاب الآخرين، ولكن التشابه فيها هو في الداخل، في آفة الإنكار التي وُحِّدَتْ بين كل هذه الأقوام.

ثم تأتيك أية كما لو كانت تخبرك.

﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرُونَ ﴿٤٠﴾ سَيَهْرَمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ ﴿٤١﴾ (القمر ٤٠: ٤١).
﴿سَيَهْرَمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ﴾.

ما أجمل هذا! ما أروع! أن ترى هذه النهاية السعيدة في حياتك الدنيا.

أين الاختبار في هذا؟

الامتحان هو في أن تتعامل مع الآية في سياقها، لا أن تتخذها كما لو كانت وعداً إلهياً قاطعاً يمنع أعدائك الهزيمة في الدنيا بشكل حاسم.

لا، الآية لم تقل ذلك، بل تحدثت عما يمكن فهمه أنه يخص «كفار مكة» تحديداً، وربما يخص غيرهم وربما لا. هذا ممكن، لكن أن تتخذها كما لو كانت آية عامة تخص كل من يقف على المعسكر الآخر فأنت ببساطة تستعملها في غير موضعها.

ليس هذا فقط.

بل ربما كنت تستعملها لتساعدك في حالة إنكار خاصة بك.

ربما كان الواقع كله يشير إلى أن الهزيمة الدنيوية بعيدة عن معسكرهم، بل ربما هي أقرب إليك.

لكنك ستنكر الواقع ودلالته وتذره، وتقول: بل وعدنا الله بغير ذلك، ﴿سَيَهْرَمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ﴾ لا بد أن يحدث ذلك.

هنا تكون قد فشلت في الاختبار، سقطت في فخ إنكار الحقائق والنذر الذي حذرتك منه السورة مراراً وتكراراً.

العبارة كلها في صدقك، في التعامل مع كل شيء، مع الواقع المحيط ومع نفسك ومع آيات الله في كتابه أيضاً.

الصدق.

لذلك ليس غريباً أن تنتهي السورة بالصدق.

﴿إِنَّ الْمُنِيفِينَ فِي جَنَاتٍ وَنَهْرٍ ﴿٥٠﴾ فِي مَقْعَدٍ صَنِيعٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥١﴾﴾ (الفرص: ٥٥).

سورة الرحمن ٥٥

علاج نفسي يحتاجه حتى الأصحاء

هذه الصورة جلسة علاج نفسي إلزامي يحتاجه الأصحاء نفسياً قبل المرضى.

هذا في حالة وجود مَنْ هو صحيح نفسياً على نحو كامل بينما هو يتفاعل مع هذه الحياة المليئة بكل الممرضات على صعيد النفس والجسد.

كلنا مرضى بطريقة أو بأخرى، بنسبة ما على الأقل، فينا يتعلق بهذا الجزء منا، النفس.

كلنا؟ فلنقل: أغلبنا لكي نخرج من تهمة التعميم.

أغلبنا بالتأكيد، بنسب مختلفة ومتفاوتة.

لذلك فأغلبنا نحتاج إلى جلسة علاج نفسي تقدمها سورة الرحمن.

حتى لو كنت صحيحاً «نفسياً» مائة بالمائة فيمكنك أن تأخذ الجلسة مثل مصطلح مناعة، (على فرض وجود شخص كهذا، علماً أن من يعتقد أنه صحيح نفسياً إلى هذه الدرجة يحتاج إلى جلسة علاج أكثر من سواه).

كلنا بحاجة لهذه الجلسة، نسلم رؤوسنا المشوشة المنهكة إلى سورة الرحمن، ونتركها تتسلل، تنظم، تشذب، تواجه، تعالج.

إنها سورة الرحمن.



ثمة شيء في هذه السورة. بل أشياء تشدك لتسمع وتهدأ.

هذه النهاية الصوتية المتشابهة في أغلب آيات السورة القصيرة (أن - ام) تجعل عقل المتلقي يدخل في حالة هدوء، هنا السورة لا تأخذك في رحلة تخطف أنفاسك، بل تقول لك: هون على نفسك، وتطيطب على كتفك، بل وستشعر بكلماتها تحتويك كما لو كانت تحتضنك.



﴿الرَّحْمَنُ ﴿ عِلْمُ الْقُرْآنِ ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴿ عِلْمُ الْبَيَانِ ﴾ (الرحمن: ١).

مجرد ذكر اسمه الرحمن وارتباطه أغلب نهايات الآيات بحرفين مشابهين لنهاية اسم الرحمن، فإن هذا يجعل معنى هذا الاسم العظيم يخيم على السورة كلها، ستشعر بالرحمن في السورة كلها رغم أن لفظها ذُكر مرة واحدة فقط في كل السورة.

﴿عِلْمُ الْقُرْآنِ ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴿.

تشعر بها كما لو أنها تعني أنه تركه علامة على الطريق، تدل الإنسان على الطريق الصواب وسط مفترقات الطرق.

كما لو أن الثلاثة هنا مرتبطون وظيفياً معاً: (القرآن، الإنسان، البيان) وبهذا التسلسل، البيان مهارة إنسانية في الفهم والتدبر، دونها لن يمكن للإنسان أن يعرف علامات الطريق التي في القرآن.

ما هو أول ما سيفهمه الإنسان عبر البيان من القرآن، علامة الطريق؟

﴿النَّسْرَ وَالْقَمَرَ يُحْمِلَانِ﴾ وَاللَّجْمَ وَالشَّجْرُ يَنْجِدَانِ ﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا
وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ (الرحمن: ٥: ٧).

التوازن، كل شيء في هذا العالم متوازن ومحسوب، من النبتة الصغيرة إلى النجم، كل شيء بميزان، حتى السماء.

وهذا التوازن هو مفتاح جلسة العلاج النفسية التي نحتاجها جميعاً، والتي تقدمها لنا سورة الرحمن.

﴿أَلَّا تَنْظُرُوا فِي الْمِيزَانِ﴾ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ (الرحمن: ٨: ٩).

الميزان في كل شيء هو مفتاح السلامة النفسية، أن تسد حاجتك واحتياجاتك بتوازن، وأن توازن علاقاتك بنفسك وبالآخرين من خلال ميزان يقيس بالقسط. لا تظلم أحداً ولا تظلم نفسك أيضاً، واعمل على أن يعاملك الآخرون بالميزان، الميزان في كل شيء.

﴿فَيَأْتِي آلَاءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴿ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ ﴿ فَيَأْتِي آلَاءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (الرحمن: ١٣: ١٦).

صيفة الخطاب بالمتن، يمكن أن تفهم بأنها خطاب عام للإنس والجن، ولكن هذا الذي جاء إلى سورة الرحمن ليسلم لها رأسه المتعب ونفسه المنقوية بممارك الحياة اليومية، سيجد أن الخطاب بالمتن يناسبه، في داخله هناك شخصان يتصارعان، أو يتنازعهما فيما بينهما، أحياناً تكون الغلبة لواحد منهما، وأحياناً يكون صراعهما شديداً، وأحياناً يتناقضان بصوت مرتفع طيلة الوقت.

تذكرهما السورة بكل نِعَمِ الله عليهما معًا، حتى مرج البحرين عندما يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان، كل شيء بالميزان، فبأي آلاء ربكما تكذبان؟ وبين النعم التي تستخدمها السورة في علاجك تقول لك حقيقة مستهون عليك الكثير من أوجاعك: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ (الرحمن: ٢٦: ٢٧).

كل مَنْ عليها فان يا صديقي، كل شيء سينتهي، كل خلافاتنا ومعاركنا وماراثوننا اليومي ومنجزاتنا وفشلنا وانتصاراتنا وهزائمنا وخيباتنا واحباطاتنا وعُقدنا، كلها ستنتهي كما لو لم تكن، فلا تحمل همها على نحو خارج طاقتك، خارج التوازن والقسعة، كل من عليها فان، فهوون على نفسك.

سنأخذنا رحلة العلاج هذه إلى العقاب والثواب، لا مجاملة في ذلك، لكنها ستترك باب الأمل مفتوحًا أكثر إلى الثواب، آيات وصف الجنة ستكون أكثر، وستكون هناك ضمنها هاتين.

﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ (الرحمن: ٤٦).

﴿فَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ (الرحمن: ٦٠).

وقتني الجلسة بأية ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ (الرحمن: ٧٨).

بدأت بالرحمن، وانتهت بنبي الجلال والإكرام، وبينهما شعرت بالآيات تحنويك وتحضنك كما احتواك رحم أمك ذات حياة أخرى، ثم أصبحت بعدها أكثر قوة على فهم معنى ﴿ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾.

سورة الواقعة ٥٦

تسليق طبقي

بعض المعتقدات الشعبية المنتشرة دون دليل يستند لها يجعل من قراءة سور بعينها بعدد محدد من المرات مفيد في تحقيق بعض الأمور. مثلاً سورة الواقعة تجلب الرزق، لو قرأها إحدى عشرة مرة. وسورة الضحى تجعلك تجد الشيء المفقود الذي تبحث عنه منذ ساعات.

لا صحة للأمرين بطبيعة الحال.
لكن سورة الواقعة تساعدك فعلاً في أن تجد نفسك،
بالضبط أن تحدد موقعك الطبقي.
في يوم آخر تماماً، غير كل ما نعيشه من أيام.



في حياتنا الدنيوية، يقسم انتماء الناس اجتماعياً إلى طبقات بناءً على مستوى دخلهم السنوي.
الطبقة العليا المرفهة التي تملك المال أو السلطة، أو الاثنين معاً في عالم لا يعيز كثيراً بينهما.

في بعض الدول المتقدمة، تسيطر طبقة الـ ١٠٪ العليا على ما هو أكثر من ٧٠٪ من الثروة في البلاد. بينما الـ ١٠٪ التي تليها تحصل على ١٢٪ من الثروة.

الطبقة الوسطى، وتُقسَّم بدورها إلى «وسطى عليا» و«وسطى دنيا». وهم يقعون في المنتصف من حيث الدخل بين الأغنياء (الطبقة العليا) والفقراء (الطبقة الدنيا)، وغالبًا يقضي هؤلاء حياتهم في محاولة البقاء في طبقتهم، أو الصعود إلى الطبقة الأعلى، أو على الأقل عدم السقوط إلى الطبقة الأدنى، وتكون هذه المحاولات في حالة نجاحها، مثل الدوران في عجلة هامستر لا تتوقف أبدًا، نسبة هؤلاء من السكان في بعض البلدان قد تبلغ ٤٠٪، وهم يحصلون تقريبًا على ١٥٪ من الثروة في البلاد^(١).

الطبقة الدنيا هي الطبقة الأفقر، طبقة العمال وصغار الكُسبة، نسبتهم مشاربة لنسبة الطبقة الوسطى. ٤٠٪ من السكان. ويحصلون على أقل من ١٪ من الثروة والدخل.^(٢)

قسمة ضيزي بلا شك، ليس فقط بسبب الفجوة الهائلة الموجودة بين الطبقات، ولكن لأن الطبقة العليا قوية بما فيه الكفاية لتضمن بقاء هذه القسمة على ما هي عليه.



لكن سورة الواقعة تحدثنا عن تقسيم آخر، تقسيم عادل بمعايير مختلفة عن معايير الدخل والثروة، معايير

(١) Wealth inequality in the U, Wikipedia.

(٢) هذه الأرقام أمريكية، وبالتأكيد هناك دول كثيرة تمتلك قدرًا أفضل من توزيع الثروة.

﴿خَافِضَةً رَّافِعَةً﴾ (الواقعة: ٣).

قد ترى بعض مَنْ كانوا في الطبقة العليا جداً في قعر التوزيع الجديد، وقد ترى العكس، قد ترى أن من تصوره سيكون في وضع ممتاز أخوياً قد سقط في التقييم، وقد ترى العكس أيضاً، شخص حكم عليه كثيرون دون حق، وجاء الحكم العدل لينصفه.

وقد ترى غنياً تمكن من امتلاك الدنيا والآخرة، وفقير خسر الاثنين معاً.

إنها معايير مختلفة تماماً، لا يمكن إيجاد مساحة مشتركة فيها مع المعايير السائدة للطبقات دنيوياً.

ثلاث طبقات أيضاً.

ميمنة. مشأمة.

وطبقة «السابقون السابقون» منزلة متقدمة تتفوق حتى على الميمنة.

لا يوجد طبقة وسطى هنا، أو على الأقل ليس بهذا التقسيم.

السابقون السابقون هم أقصى اليمين إن شئتم، لكن الميمنة والمشأمة متجاورتان فيما يبدو.

هل يبدو هذا أمراً مهدداً لمن في الميمنة؟ ليس بالضرورة، لقد قُضي الأمر، هم في الميمنة في هذا التقسيم. لا شيء سيستأنف هذا الحكم، عليهم الثبات على ما هم عليه.

لكنه أمر واعد وباعث للأمل بالنسبة لمن في المشأمة، المسافة بينهم وبين مَنْ في الميمنة ليست بعيداً حقاً، يمكنهم أن يفعلوا شيئاً لكي ينفروا موقعهم الطبقي، الفجوة بين الطبقتين ليست سحيقة كما هي في طبقات الدنيا.

لا أحد منا يعرف موقعه الطبقي الآن، لكن على الجميع أن يعي أن الطبقتين متجاورتان، وأن ذلك فيه إيجابيات وسلبيات، الإيجابية الأساسية هي أن الأمل موجود دائماً في التجاة، مهما كانت المعطيات تسير في اتجاه آخر، والسلبية الأساسية أن لا أحد محصن من الانزلاق إلى الطبقة الدنيا؛ لذا فعلى الجميع التمسك والحدّز.

ماذا عن «السابقون السابقون»؟

هؤلاء هم الفئة التي تحتل المرتبة العليا، فيهم الأنبياء والقادة والمصلحون، أولئك الذين كانوا الرواد في درب تغيير المجتمعات البشرية، ومهدّوا الطريق لمن بعدهم في أن تكون حياتهم أكثر عدالة وتوازناً، في أن يكونوا ضمن الميمنة.

لكن ماذا عن نسب كل من هذه الطبقات؟ بالنسبة لنا، تمؤدنا أن نقيس احتمالية وجودنا في فئة ما بكونها الأكبر حجماً، كلما كانت نسبتها كبيرة، زادت احتمالية أن نكون فيها، منطوق تمؤدنا على التعامل معه ومن خلاله، لكن سورة الواقعة لا توقعنا في فخ توقعات رقمية، بل تعلمنا أن نرى الأمر من منظور مختلف.

المقياس هو نسبة كل فئة من «الأوليين» ومن «الآخرين»، المعايير التي تحاسب كل فرد ستكون مختلفة بحسب عصره وظروف زمانه، ربك هو الحكم العدل الذي لن يتعامل مع الأمور كما يتعامل بعض البشر دون مراعاة لتغير الظروف والأحوال، بل هو الذي يقيس كل المتغيرات فلا يظلم أحداً.

﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١﴾ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٣﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿٤﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴿٥﴾ (الواقعة: ١-١٤).

عدد كبير إذن من الأولين، مقارنةً بعددهم من الآخرين، لم يفلح الباب للآخرين تماماً، ولكن عددهم أقل بالمقارنة بالأوليين، لا بأس، هذا أمر مفهوم، فيهم رسل وأنبياء، وقد أُقْبِلَ هذا التصنيف تماماً، وفيهم أيضاً من تأثر مباشرة بالرسول والأنبياء. وهذا التصنيف قَبْلَ أيضاً، وبقي هناك المصلحون والقادة العظام الذين قادوا مجتمعاتهم إلى الأفضل، ورواد أعمال الخير الذين تركوا بصمة في تاريخ الإنسانية. هذا التصنيف لم يُقْبَل. ومنه تكون هذه القلة من الآخرين.

فرصة أن تكون من هذه الفئة قليلة، ولكن فلنكن واقعيين، هذا منطقي جداً، نسبة هؤلاء الأشخاص قليلة جداً في أي مجتمع، ووجود الأنبياء والرسل - الذين منحوا الإنسانية قرصاً مضافة - هو الذي يجعل هذه الطبقة تحتوي على «ثلة من الأولين».

الأمر مع أصعاب الميزنة سيكون متوازناً بين الأولين والآخرين.

﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴿٧﴾ (الواقعة: ١٠).

هذا كافٍ جدًا لكي يملأنا بالأمل، هذه الطبقة فيها جمع غفير من الأولين والآخرين، لدينا فرصة أن نكون من أصحاب الميمنة، الآية تفتح لنا الباب على مصراعيه، إذا كانت طبقة «السابقون السابقون» صعبة، فإن هذه ممكنة، ليست سهلة بالتأكيد، لكنها ممكنة.. واقعية.

ماذا عن أصحاب الشعال؟

المسورة لا تخبرنا عن نسبتهم، لا قليل ولا كثير، لا من الأولين ولا من الآخرين.

هذه المعلومة تُترك عمدًا؛ لكيلا تؤثر علينا ونحن نأمل أن نكون من أصحاب اليمين، أصحاب الشعال على بُعد خطوات، والمسورة تخبرنا عما يمرون به، وهذا كافٍ جدًا لكي يجعلنا نبذل كل ما وسعنا لكي نكون من أصحاب اليمين.

سورة الحديد ٥٧

الإنسان الحديدي

كثيراً ما نسمع عن الرجل الحديدي، المرأة الحديدية، وصف يراد به القوة والصلابة، والمضي في تحقيق هدف ما دون الاهتمام بالعواقب. من أفلام الخيال العلمي والحركة، إلى الحملات الانتخابية، يُستخدَم اللقب لوصف هذا النوع أو ذاك من القوة.

سورة الحديد تأخذنا إلى وصف مختلف للقوة، إلى إنسان يدخل الحديد في تكوينه وبنائه، لكن لا يمكن اختزاله إلى هذا المكون فقط، بل هو مكون ضمن عدة مكونات تساهم كلها في صنع هذا الإنسان.



أول ما تحدثنا به سورة الحديد عن هذه القوة المختلفة، عن هذا الإنسان الجديد قيد التكوين، هو الحديث عن الله الذي يؤمن به هذا الإنسان.

﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُخَيِّتُ وَيُيَسِّتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢﴾﴾ (الحديد ٢: ٣).

قدرة مطلقة، «عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».

ليس هذا فقط، هو مطلق، أول وآخر وظاهر وباطن، خارج كل المقاييس البشرية المادية، مجرد قدرتك على الإيمان به خارج مفاهيم «التجسيم» و«التمثيل» التي تقيد فكرة الإيمان وتجعلها محدودة؛ مجرد إيمانك بهذا يمنحك قوة مختلفة.

هذا الإيمان بالمطلق هو أول ما يمنحك قوة الحديد، حسب المواصفات التي تدلك عليها سورة الحديد.

﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ (الحديد: ٧).

الإِنْفَاق؟ لا، ليس فقط الإِنْفَاق، الإِنْفَاق مما هم مستخلفون فيه، إنهم مسؤولون ومنجرون، وبعد ذلك: منفقون، قوة الإِنْفَاق هنا تتضمن قوة العمل والإنتاج، القوة على مقاومة طبيعة النفس البشرية التي تعيل إلى الحرص والشح.

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ قَطًّا أَلَيْسَ الْأَمْدُ فَرَسًا قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (الحديد: ١٦).

وهذه القوة ليست مثل قوة حجر الجرانيت الذي لا يكاد يتأثر بشيء، بل هي مثل قوة الحديد، يمكن أن ينصهر. يعتمد، قابل للطرق والسحب والتثني، خضوع الحديد هذا هو عنصر قوة إضافية؛ لأنه بتغيراته هذه يتمكن من تكيف نفسه مع تغيرات المحيط من حوله، «الذين أوتوا الكتاب من قبل» ربما كان إيمانهم قويًا أيضًا، لكنه كان بقوة الحجر الصوان أو

الجرانيت، لا يتفاعل مع المحيط، صلد، يقاوم التغيرات، نعم، لكن إلى درجة معينة، بعدها سينكسر، ينحطم.

الحديد يقاوم ويعداها يتغير، يعيد تشكيل نفسه، لكن يبقى حديداً، هذا هو الفرق الحقيقي بين أن تكون قوياً كالحديد، وبين أن تكون قوياً كصخر. الحديد قوته مرنة، يتغير كي لا ينكسر، بينما لا يملك الصخر هذه المرونة، فينكسر ويتشظى.

ربما هذه المرونة هي التي نجعلهم يتعاملون مع الأحداث التي تحيق بهم على هذا النحو:

﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾ (الحديد: ٢٢، ٢٣).

لا أسى على ما مضى، لا عيش على ذكريات الماضي وتوايح وتذب عليه، بل تعدد وطرق ومحب حسب ما تقتضي التغيرات.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾ (الحديد: ٢٥).

الكتاب والميزان ﴿لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾، وبمدهما: الحديد.

كما لو أنك لا يمكن أن تحافظ على القسط، إن لم يكن لديك قوة الحديد، صلابة الحديد، مطاوعة الحديد.

لا يمكن الاستغناء عن الحديد في الحياة الإنسانية، حتى أنه يدخل في تكوين كريات الدم.

لكن أيضًا لا يمكن الاستغناء عنه في إيماننا، بل يكون كالعمود الفقري الذي نقف به منتصبين.

اللهم قلّ من نسبة الحجر في إيماننا. وزِد من نسبة الحديد...

يمكنكم تحميل المزيد من الكتب الرائعة والحصريّة
بحجم خفيف جداً على مكتبة جديد بدف

<https://jadidpdf.com>

